موريس بوكاي

Maurice Bucaille

القرآن والتوراة والإنجيل

دراسة في ضوء العلم الحديث

ترجمة: عادل يوسف



القرآن والتوراة والإنجيل

دراسة في ضوء العلم الحديث



القرآن والتوراة والإنجيل

دراسة في ضوء العلم الحديث

ترجمة: عادل يوسف





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزيّ ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

القرآن والتوراة والإنجيل – دراسة في ضوء العلم الحديث

الدكتور: موريس بوكاي

الطبعة الأولى، 2009

◆

الغلاف والصف الضوئي : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن



المحتويات

مقدمة

لكل دين من الأديان الثلاثة كتاب. تشكل نصوصه أساس الإيمان لدى كل مؤمن يهودياً كان أو مسيحيًا أو مُسلماً، وكل مؤمن منهم يعتبر كتابه تسجيلاً مادياً لوحي إلهي. وقد يكون هذا الكتاب منزلاً بشكل مباشر، كما هو الأمر فيما يتعلق بإبراهيم أو بموسى فقد تلقيا من الله نفسه، وقد يكون منزلاً بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختص بالمسيح أو محمد ﷺ، فقد أعلن المسيح أنه يتحدث باسم الأب، وأما محمد ﷺ فقد بلغ الرسالة التي نقلها إليه جبريل.

وعلى ضوء المعطيات الموضوعية لتاريخ الأديان يوجب وضع العهد القديم والأناجيل والقرآن على مستوى واحد من حيث إنها مجموعات للوحي المكتوب. وغير أن هذا الموقف الذي يقول به المسلمون مبدئياً ليس هو نفس الموقف الذي يقبله مؤمنو البلاد الغربية التي تؤثر فيها المؤثرات اليهودية والمسيحية؛ والتي ترفض اعتبار القرآن كتاباً منزلاً.

وتعرف هذه الأوضاع من الرجوع إلى المواقف التي تتخذها كل جماعة دينية إزاء الجماعتين الأُخريين بالكتب المقدسة.

فكتاب اليهودية المقدس هو التوراة. وتختلف التوراة عن «العهد القديم المسيحي»، لأنه أضاف عدة أسفار لم تكن موجودة بالعبرية؛ غير أن هذا الاختلاف لا يمس شيئاً من العقيدة. لكن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعدها.

وهكذا فإن المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية، ولكنها زادت عليها بعض الإضافات، غير أن المسيحية لم تقبل كل الكتابات تُعرف الناس برسالة

عيسى؛ ولذلك قامت الكنيسة بحذف فقرات هامة جداً من عدد كبير من الأسفار التي كُتبت لتعريف الناس بحياة المسيح وبتعاليمه، وهكذا فإن الكنيسة لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات، وكان من أهمها الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسياً، غير أن المسيحية ـ بدورها ـ لا تعترف بأي وحي جاء بعد المسيح وحوارييه، ولذلك فهي تستبعد القرآن.

أما القرآن، وقد أتى بعد المسيح بستة قرون، فإنه يتناول معطيات عديدة جاءت في التوراة العبرية والأناجيل، ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيراً. والقرآن يوصي كل مسلم بالإيمان بالكتب التي سبقته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]. وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل مثل نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء، خاصة المسيح الذي يحتل مكانة بارزة بينهم، والقرآن مثل الأناجيل، يقدم ميلاد المسيح كفعل خارق (غير طبيعي)، ويخص بالذكر أيضاً مريم، ويُسمي على السورة (19) باسمها (سورة مريم).

والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام التي ذكرناها مجهولة في البلاد الغربية، ولن نستغرب ذلك إذا تذكرنا الطريقة التي اتبعت في تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان، وكيف فرض عليهم الجهل في كل ما يمس الإسلام، وهكذا فإن التسميات المتداولة مثل: «الدين المحمدي» و«المحمديون» تدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل، وأنه ليس لله (بالمعنى الذي يعتقده المسيحيون) مكان في تلك المعتقدات؟ ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية

والاجتماعية والسياسية في الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامي بصورة خاصة كما كان يجب عليهم أن يفعلوه. ويرون مِّن المسلم به أن محمداً ﷺ قد اعتمد على من سبقه وذلك بقصد استبعاد قضية الوحي منذ البدء.

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين، ولقد خبرت هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معاً في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضاً باتاً للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل، فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة، كأن الرجوع في ذلك إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان.

ومع ذلك يبدو لنا أن هناك تغيراً أساسياً قد يتحقق اليوم على أعلى مستوى في العالم المسيحي، فالوثيقة التي طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين في مجمع الفاتيكان الثاني، بعنوان «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين» والتي طُبعت للمرة الثالثة في عام 1970م، تشهد بعمق التحول في المواقف الرسمية؛ فقد دعت وثيقة الفاتيكان إلى استبعاد الصورة التي يصور المسيحيون المسلمين عليها، «تلك الصورة البالية التي ورثنا الماضي إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة»، ثم اهتمت الوثيقة «بالاعتراف بمظالم الماضي التي ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية في حق المسلمين». والوثيقة تنتقد أيضاً مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن الحتمية الإسلامية وحرفية الإسلام وتعصبه، وغير ذلك. إن الوثيقة تؤكد على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين وتذكر كيف أثار الكاردينال كونيج إعجاب مستمعيه بالجامع الإكبر حين أعلن في محاضرته الرسمية التي ألقاها بجامعة الإزهر في القاهرة عام 1969. والوثيقة تذكر أيضاً بأن سكرتارية الفاتيكان قد

دعت المسيحيين منذ عام 1967 إلى تقديم تهانيهم إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر (انتهاء شهر الصوم) فهو يمثل «قيمة دينية أصيلة».

وقد جرت بعد تلك البوادر المواتية للتقارب بين الهيئة البابوية والإسلام لقاءات واجتماعات جعلت تلك البوادر للتقارب أمراً واقعاً. ومع ذلك فلم يعلم بهذه الأحداث الهامة التي حدثت بالعالم الغربي إلا فئة قليلة على الرغم من كثرة وسائل النشر والإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون.

وكذلك فإن الصحف لم تأت بذكر للزيارة التي قام به الكاردينال بنيودولي رئيس سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين إلى جلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية في الرابع والعشرين من أبريل عام 1974م، ولم تعلق جريدة الموند على تلك الزيارة إلا في سطور قلائل في عددها الصادر في 25 أبريل عام 1974م، برغم أهمية الخبر، وخاصة عندما نعلم أن الكاردينال قد سلم للعاهل السعودي رسالة من البابا بولس السادس مدفوعاً إلى ذلك بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهاً واحداً، ومعبراً فيها قداسته عن تقديره لجلالة الملك فيصل باعتباره الشخصية العليا في العالم الإسلامي».

وبعد ذلك بستة أشهر، أي في أكتوبر 1974، استقبل البابا رسمياً بالفاتيكان كبار علماء المملكة العربة السعودية، وكانت مناسبة لندوة بين مسيحيين ومسلمين حول حقوق الإنسان الثقافية في الإسلام، وذكرت «أوسرفاتوري رومانو» جريدة الفاتيكان، في عددها الصادر في 26 من اكتوبر سنة 1974 هذا الحدث التاريخي، وكرست له في صحيفتها الأولى مكاناً أكبر من ذلك الذي أعطته للتعليق على اليوم الختامي لمجمع الأساقفة المنعقد بروما.

ثم استقبل المجلس المسكوني الأعلى للكنائس بجنيف وغبطة الأسقف إلشنجر. أسقف ستراسبورج كبار علماء المملكة العربة السعودية، ودعا الأسقف العلماء لأداء فريضة الظهر أمامه بكلاتدرائيته. وإذا كانت الصحف قد ذكرت الخبر، فذلك يرجع على ما يبدو، للجانب الاستعراضي أكثر منه للدلالة الدينية الهامة التي تمثلها. واتضح لي ممن سألتهم عن أخبار هذه المحافل أن الذين علموا بها هم قلة قليلة جداً.

ولا شك أن تاريخ العلاقات بين الدينين سيسجل روح الانفتاح نحو الإسلام التي عبر عنها البابا بولس السادس في تصريحه «بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان آلهاً واحداً». ولقد رأيت أنه من الأهمية أن أذكر بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثولوكية إزاء المسلمين. فكثير من المسيحيين الذين تربوا في ظل روح عدائية صريحة ـ الأمر الذي رثت له الوثيقة المذكورة أعلاه ـ هم مبدئياً أعداء لكل تأمل في الإسلام، ولذلك فإنهم يظلون في جهالة لحقيقة الإسلام، وبالتالي فإن مفاهيمهم عن الإسلام مفاهيم مغلوطة تماماً.

وأياً كان الأمر يبدو لنا أنه من الحق علينا، عند دراسة جانب من جوانب التنزيل في دين توحيدي، أن نعالجه بالمقارنة مع ما يقدمه الدينان الآخران من وجهة نظر في الموضوع نفسه.

وإن دراسة شاملة لمشكلة ما هي بالتأكيد أكثر أهمية من دراسة جانب واحد منفصل. إن المواجهة بين حقائق العلم في القرن العشرين وبين بعض الموضوعات التي تعالجها الكتب المقدسة تهم بالتالي الأديان الثلاثة معاً وليس ديناً واحداً على حدة. هذا، ونظراً لما يتهدد الأديان الثالثة من طغيان المادية في هذه الأيام، أفلا تكون هذه الأديان بحكم ذلك جبهة واحدة؟ بل أليس من الواجب أن تتقارب تجاه هذا الطغيان وأن تؤلف كتلة واحدة متماسكة؟ ففي

البلاد الإسلامية كما في البلاد ذات المؤثرات اليهودية المسيحية يقال ـ وخاصة في الأوساط العلمية ـ إن الدين والعلم لا يتفقان. والواقع أن المشكلة، لكي تعالج بصورة شاملة، تتطلب تطويرات هامة، ولكني لن أعالج هنا إلا جانباً واحداً من الموضوع وهو دراسة الكتب المقدسة نفسها في ضوء العلم الحديث.

غير أن قصد هذه الدراسة يفرض سؤالاً أساسياً: ما القيمة الصحيحة لهذه النصوص التي في حوزتنا اليوم؟ وذلك يعني بالضرورة أن ندرس الظروف التي رافقت تحرير تلك النصوص وانتقالها إلينا.

إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا. ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونهما على ما هما عليه طيلة قرون عديدة. ولم تكن قراءة الكتب المقدسة تؤدي إلا إلى اعتبارات مدحية، وكان مجرد التعبير عن أي روح نقدية إزاء الكتاب المقدس خطيئة لا تغتفر. وكان القساوسة هم الصفوة التي تستطيع بغير عناء أن تكون لديها معرفة إجمالية عن التوراة والأناجيل أما عامة العلمانيين فلم تكون تتلقى إلا نصوصاً مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر المواعظ.

وبعد أن أصبح نقد النصوص علماً، فقد كان له الفضل في أن جعلنا نكتشف مشاكل مطروحة وخطيرة في أحيان كثيرة. غير أنه لابد من أن نصاب بخيبة الأمل عندما نقرأ كتباً كثيرة تدعي أنها نقدية ولكنها لا تقدم في مواجهة الكثيرة من مشكلات التأويل الحقيقية إلا تفسيرات مديحية تهدف إلى إخفاء حرج المؤلف وحيرته. في ظل تلك الظروف فإن المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق تظل باقية بلا حل في نظر كل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه الموضوعي. وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً

لكل منطق، إن ذلك موقف يسيء كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة. ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهل تام عن أمر ذلك التناقص مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر من المعارف الأساسية جداً.

أما الإسلام فعنده في الأحاديث النبوية ما يشبه الأناجيل من حيث إنها مجموعة من الأقوال والأخبار لأفعال محمد ﷺ، وليست الأناجيل بأكثر من هذا فيما يتعلق بعيسى. فقد كتبت أولى الأحاديث بعد عشرات من السنوات من موت محمد ﷺ مثلما كتبت الأناجيل بعد عشرات السنوات من انصراف المسيح. إذن فالأحاديث والأناجيل شهادات بأفعال مضت. وسنرى فيما بعد كيف أن مؤلفي الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسياً لم يشهدوا الوقائع التي أخبروا بها، والأمر نفسه ينطبق على المؤلفات في الحديث المشهورة بصحتها.

وهنا يجب أن تتوقف المقارنة. وذلك لأن النقاش إذا كان قد دار وما زال يدور حول صحة هذا الحديث أو ذاك فإن الكنيسة قد حسمت منذ قرونها الأولى بشكل نهائي بين الأناجيل المتعددة وأعلنت رسمية أربعة منها فقط، برغم التناقضات العديدة فما بين هذه الأناجيل في كثير من النقاط، وأصدرت الأمر بإخفاء الأناجيل الأخرى، . ومن هنا جاء اسم «الأناجيل المزورة».

وهناك فرق آخر جوهري بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية، في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معاً.

فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب

فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة في شهر رمضان. وقد رتب في سور بأمر من محمد ﷺ نفسه، وجمعت هذه السور فور موت النبي صلى الله عليه وسلم وفي خلافة عثمان ـ (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ) ـ ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم.

أما الكتاب المسيحي المقدس. فإنه يختلف بشكل جلي عما حدث بالنسبة للإسلام. فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك مثلاً أي شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى، وهذا خلافاً لما يتصوره الكثير من المسيحيين، وهكذا إذن طرحت مشكلة صحة نصوص الكتب المقدسة المسيحية ـ ونصوص الوحي الإسلامي.

ولقد كانت مقارنة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان في كل العصور. ففي البدء قيل إن اتفاق العلم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس. وإن القديس أوغسطين، في خطابه الثاني والثمانين، الذي سنذكره فيما بعد قد حدد هذا المبدأ بشكل حاسم. ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين. وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذي جعل اليوم مفسري التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء. إذ لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة. وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين، وهي عدم قبول صحة المقطع الذي يقول في التوراة بأمر غير مقبول علمياً. ولم يكن هذا الحل طواعية بل بالعكس فقد تعصب بعضهم بشدة للاحتفاظ بتمام النص، وقد كان نتيجة هذا أن اضطر المفسرون إزاء صحة الكتب المقدسة إلى اتخاذ مواقف لا يمكن قبولها من قبل رجل العلم.

وإن الإسلام قد اعتبر دائماً، كما فعل القديس أوغسطين بالنسبة للتوراة، أن هناك اتفاقاً بين معطيات الكتاب المقدس والواقع العلمي. وأن دراسة نص القرآن في العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في هذا. وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهي وقائع كثيرة جداً، خلافاً لقلتها في التوراة، إذ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية، وتلك هي النتيجة الأساسية التي تخرج بها دراستنا. وسنرى في نهاية هذا الكتاب كيف أن الأمر يختلف تماماً فيما يتعلق ببعض الأحاديث النبوية غير القطعية والتي تخرج عن نطاق الوحي القرآني، إذ أن هناك بعض الأحاديث ظنية الثبوت لا يمكن قبولها علمياً، غير أن هذه قد خضعت لدراسات جادة اتباعاً لمبادئ القرآن الصريحة التي تأمر دائماً بالرجوع إلى العلم والعقل اللذين يسمحان للناقد بنفي صحتها على ضوء حقائق القرآن.

هذه التأملات حول الصفة المقبولة أو غير المقبولة علمياً لمقولة في كتاب مقدس تتطلب منا إيضاحاً دقيقاً، إذ علينا أن نؤكد أننا عندما نتحدث هنا عن حقائق العلم فإننا نعني بها كل ما قد ثبت منها بشكل نهائي. وأن هذا الاعتبار يقضي باستبعاد كل نظريات الشرح والتبرير التي قد تفيد في عصر ما لشرح ظاهرة، ولكنها قد تلغى بعد ذلك تاركة المكان لنظريات أخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمي. وإن ما أعنيه هنا هو تلك الأمور التي لا يمكن الرجوع عنها. والتي ثبتت بشكلٍ كافٍ بحيث يمكن استخدامها دون خوف من وجود خطأ فيها، حتى وإن يكن العلم قد أتى فيها بمعطيات غير كاملة تماماً.

وعلى سبيل المثال فإننا نجهل التاريخ التقريبي لظهور الإنسان على

الأرض، غير أنه قد اكتشفت آثاره لأعمال بشرية نستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحي دون أن يكون هناك أي مكان للشك. وعليه فإننا لا نستطيع علمياً قبول صحة نص سفر التكوين الذي يعطي أنساباً وتواريخ تحدد أصل الإنسان (خلق آدم) بحوالي 37 قرناً قبل المسيح. وربما استطاع العلم في المستقبل أن يحدد لذلك تواريخ فوق تقديراتنا الحالية. غير أننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه لن يمكن أبداً إثبات أن الإنسان قد ظهر على الأرض منذ 5736 سنة كما يقول التاريخ العبري في 1975. وبناء على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة.

هذه المواجهة مع العلم لا تتناول أية قضية دينية بالمعنى الحقيقي للكلمة. فليس للعلم مثلاً أن يقدم أي شرح لكيفية ظهور الله لموسى ـ أو أن يحل اللغز الذي يحيط بمجيء المسيح على الأرض دون أن يكون له أب جسدي «بيولوجي». ولذلك فإن الكتب المقدسة لا تقدم أي تفسير مادي لأمور من هذا النوع. وإن الدراسة التي نقدمها الآن تختص بما تُنبئنا به الكتب المقدسة فما يتعلق بالظواهر الطبيعية المتنوعة الكثيرة، والتي تحيطها تلك الكتب بقليل أو بكثير من التعليقات والشروح. ولا بد من الملاحظة أن الوحي القرآني غني جداً في تعدد هذه المواضع وذلك على خلاف ندرتها في العهدين القديم والجديد.

لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن

القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينهما وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا.

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها أنساب المسيح. وذلك أن نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا Luc، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التي لا يحتملها التصديق، وتلك الأخرى التي لا تتفق والعلم، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسؤولية فيها إلا على البشر، ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية، وما نصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها، أو ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص، أو ما نصيب التعديلات غير الواعية التي أدخلت على الكتب المقدسة. وأن ما يصدمنا في أيامنا هذه أن نرى المتخصصين في دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين في ذلك بهلوانيات جدلية. وسنقدم في هذا الكتاب أمثلة لاستخدام بعض كبار المفسرين لصيغ براقة دفاعاً عن إنجيلي متي ويوحنا ومدحاً لها. وإن استخدام هذه الوسائل للتستر على تناقص أو على أمر بعيد التصديق، مما يسمونه «صعوبة» استحياء، قد كان ناجحاً في كثير من الأحيان،

وهذا ما يفسر لنا كيف أن كثيراً من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة في كثير من المقاطع في العهد القديم وفي الأناجيل، وسيجد القارئ في الجزءين الأول والثاني من هذا الكتاب أمثلة صحيحة في ذلك.

أما الجزء الثالث فسيجد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان، كما سيجد القارئ في ذلك بياناً لما قد جاء به العلم الحديث الذي هو في متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مبهمة أو غير مفهومة ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتبس منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوربا، وإن التقدم الذي تم اليوم بفضل المعارف العلمية في شرح بعض ما لم يكن مفهوماً، أو في شرح بعض ما قد أُسيْ تفسيره حتى الآن من آيات القرآن، ليشكل قمة المواجهة بين العلم والكتب المقدسة.

التــوراة
(الكتـاب المقدس)

نبذة توضيحية

من هو مؤلف «العهد القديم»؟

لو سُئل أغلب قُراء «العهد القديم» عن مؤلفهِ فسيكون الجواب: إنه الرب. إنهم لا يتوقعون أنه كُتب بأقلام بشر ملهمين بروح القدس.

أحياناً يكتفي مؤلف مقدمة الكتاب المقدس بأن يجيب بهذا الجواب المقتضب على قارئه حتى يسد الطريق على أي تساؤل. وأحياناً أخرى يضيف إليها تصحيحاً يقول فيه إن هناك تفاصيل قد أضافها بشر إلى النص الأول وأن هذه التفاصيل المشكوك فيها والتي أُضيفت إلى فقرة ما في هذا النص لا تحرف «الحقيقة» العامة التي تنبع منه. هناك إصرار على هذه الحقيقة التي تتكفل الكنيسة دائماً بضمان صحتها، يعينها على ذلك الروح القدس؛ والكنيسة هي وحدها القادرة على إيضاح هذه النقاط للمؤمنين. بل لقد نشرت الكنيسة بعد المجامع المسكونية التي عُقدت في القرن الرابع قائمة بالكتب المقدسة. وأيدت هذه القائمة المجامع المسكونية التي انعقدت بفلورنسا Florence (1441) وترانت Trente (1546) والفاتيكان Vatican II (1870)، بحيث إنها تشكل ما يسمى بالقانون Canon. ومنذ عهد قريب قام آخر مجمع للفاتيكان الثاني Vatican II (1962–1965)، بعد كثير من الرسائل البابوية، بنشر نص عن التنزيل الإلهي، وهو نص ذو أهمية كبيرة، عمل المجمع طيلة

ثلاث سنوات لإعداده، وقد نُشر هذا النص بعد صعوبات جمة. وتجد الغالبية العظمى من قُراء الكتاب المقدس هذه المعلومات المطمئنة على رأس الطبعات الحديثة وتكتفي بالضمانات التي أعطتها الكنيسة عبر القرون ولم يرد بذهن هؤلاء القراء أن مسألة الصحة هذه أمر قابل للنقاش.

ولكن، إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التي كتبها بعض رجال الدين للخاصة وليس لعامة الجمهور، فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما كان يُظن في البداية. وإذا استوضح طبعة الكتاب المقدس الحديثة التي ترجمت إلى الفرنسية تحت إشراف رئاسة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس[1] فإنه سيكتشف أن نبرة الحَدِيثَ مختلفة جداً. وسيدرك أن العهد القديم، كالعهد الجديد، يثير مشاكل لا يخفي المفسرون عناصرها التي تسبب النزاع.

وهناك أيضاً دراسات أكثر إيجازاً وموضوعية فيها معطيات دقيقة كدراسة أدموند جاكوب Edmond Jacob «العهد القديم»[2]. ويعطي هذا الكتاب رؤية شاملة وكاملة عن المشكلة.

يشير أدموند جاكوب إلى أنه في البدء لم يكن هناك نص واحد فقط، بل كان هناك تعدد في النصوص، ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة. كان هناك النص المحقق (الماسوري) Massorethique، والنص الذي استخدم، جزءٌ منه على الأقل، في الترجمة إلى اليونانية. والنص المعروف بالسامري (أو أسفار موسى الخمسة): Pentateuque Samaritain بعد ذلك، في القرن الأول قبل الميلاد،

---

(1) Editions du Cerf, Paris.

(2) Presses Universitaires de France, Collection "Que sais-je?".

ولِدَ اتجاه إلى تدوين نص واحد، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا في القرن الأول بعد الميلاد.

ولو كانت هذه المدونات الثلاث موجودة الآن لأمكن إقامة المقارنات للوصول، ربما إلى فكرة عما كان عليه النص الأصلي، ولكن يشاء سوء الحظ ألا تكون لدينا أدنى فكرة عنه. إن أقدم نص عبري للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد، هذا إذا وضعنا جانباً أسطوانات مغارة قمران التي ترجع إلى ما قبل العصر المسيحي بقليل، وبردية الوصايا العشر التي تختلف طفيفاً عن النص الكلاسيكي، وبعض مخطوطات ناقصة ترجع إلى القرن الخامس بعد الميلاد (كنيسة القاهرة).

وتعد الترجمة السبعينية Septante أول ترجمة، وهي باللغة اليونانية، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد قام بها يهود الإسكندرية، وعلى نصها اعتمد كتاب «العهد الجديد»، وقد ظلت مُعتَمَدة حتى القرن السابع بعد الميلاد. والنصوص اليونانية الأصلية التي يستخدمها عموماً العالم المسيحي هي المخطوطات المحفوظة باسم Codex Vaticanus في الفاتيكان وCodex Sinaiticus المحفوظة بالمتحف البريطاني ويرجع تاريخ هذين المخطوطين إلى القرن الرابع بعد الميلاد.

أما فيما يخص توراة القديس إيرونيمس اللاتينية، فيحتمل أن يكون قد استخدم وثائق عبرية ترجع إلى السنوات الأولى من القرن الخامس بعد الميلاد، وتلك هي الطبعة التي سُميت بـ Vulgate بسبب انتشارها الواسع بعد القرن السابع من العصر المسيحي.

وأخيراً المدونات الآرامية والسريانية (Peschitta). وهي مجزأة غير كاملة. لقد سمحت هذه المخطوطات المختلفة للمتخصصين بأن ينتهوا إلى

إعداد النصوص المسماة بـ«المتوسطة»، وهي شيء أشبه بحلول وسط بين مختلف النسخ. أيضاً هناك مجموعات تحتوي، بين دفتها وجنباً إلى جنب، على النسخ المختلفة، أي العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والآرامية وحتى العربية، ذلك هو الكتاب المقدس الشهير بنسخة والتون Walton (لندن 1657). ولنضف، حتى نكون كاملين، أن الاختلاف بين الكنائس المسيحية حول مفاهيم الكتب المقدسة أدى إلى عدم تقبل الأسفار من قبل كنائس نفس المذهب، كما أن ليس لها حتى الآن رأي واحد في الترجمة، حتى في نفس اللغة. وتطمح الترجمة المسكونية الجارية للعهد القديم، وهي كتاب يهدف إلى توحيد النصوص يقوم به كثير من الخبراء الكاثوليكيين والبروتستانت، إلى الانتهاء لنص شامل مركب.

بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم، وبهذا أيضاً يتبين القارئ التحولات التي أصابت نص العهد القديم الأول من نقل إلى نقل آخر ومن ترجمة إلى أخرى، بكل ما ينجم حتماً عن ذلك من تصحيحات، جاءت على مدى أكثر من ألفي عام.

أصل الكتاب المقدس

كان الكتاب المقدس، قبل أن يكون مجموعة أسفار، تراثاً شعبياً لا سند له إلا الذاكرة، وهي العامل الوحيد الذي اعتمدَ عليه نقلُ الأفكار؛ وكان هذا التراث يُغنّى

ويقول أدموند جاكوب: «إن كل شعب يغني في مراحل تطوره البدائية، وفي إسرائيل، كما حدث في غيرها من البلاد، سبق الشعر النثر. ولقد غنت إسرائيل كثيراً ما كانت تُحسن الغناء، ولأن الظروف التاريخية كانت قد قادت

إسرائيل إلى قمة الحماس كما قادتها إلى مهاوي اليأس، ولأنها ساهمت بكل كيانها في كل ما حدث لها، حيث كان لكل شيء معنى في نظرها، فإنها قد أعطت أغانيها تعبيرات شديدة التنوع». كان الناس يغنون في مختلف المناسبات، ويعدد أ. جاكوب هذه المناسبات التي يحتوي العهد القديم على الأغاني المصاحبة لها ومنها: أغاني الطعام، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد، وأناشيد العمل مثل: «نشيد البئر» المشهور (سفر العدد. الإصحاح 21، 17)، وأناشيد الزواج مثل: «نشيد الإنشاد» وتراتيل الحِداد، وأناشيد الحرب وهي كثيرة في العهد القديم ومن بينها «ترنيمة دبورة» (سفر القضاة. الإصحاح الخامس من 1 إلى 32) وفيما تترنم بنصر إسرائيل الذي أراده «يهوه» في نهاية حرب مقدسة قادها بنفسه (سفر العدد، الإصحاح العاشر ٣٥): «وعند ارتحال التابوت يقول موسى: قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك».

هناك أيضاً الحِكم والأمثال (سفر الأمثال، وأمثال وحكم الكتب التاريخية المقدسة)، وأقوال البركات واللعنات والقوانين التي يستنها الأنبياء للبشر بعد أن وكلّهم الله لذلك.

ويلاحظ أدموند جاكوب أن تناقل هذه الأقوال كان يتم إما عن طريق الأسرة وإما عن طريق المعابد في شكل روايات لتاريخ شعب الله المختار، وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلى حكاية كمثل يوثام (سفر القضاة، الإصحاح التاسع من 7 إلى 21). وفي هذا المثل «ذهبت الأشجار لتمسح عليها ملكاً فتتوجه أولاً إلى الزيتونة ثم إلى شجرة التين ثم إلى الكرمة ثم إلى العوسج»، وهذا ما دعا أدموند جاكوب لأن يقول: «إن الوظيفة الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفاً بشكل سيئ» ويخلص أدموند جاكوب من هذا إلى ما يلي:

«يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث. ولكن الرواة كانوا يعرفون، حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي، كيف يُضفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع، وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في شكل حكاية لما حدث في أصل العالم والإنسان، يستطيع العقل النقدي أن يراها، في نهاية الأمر، معقولة بشكل كاف». هناك أسباب تقود إلى التفكير بأن الكتابة قد استخدمت لنقل التراث والحفاظ عليه وذلك بعد استقرار الشعب اليهودي، بأرض كنعان، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ولكن لم يكن هذا بشكل لازم، حتى بالنسبة لما كان يستحق الدوام في نظر الناس، أي القوانين. ومن بين القوانين هناك القانون الذي تنسب كتابته إلى يد الله نفسه، أي الوصايا العشر، وهي منقولة في العهد القديم في روايتين: الأولى في سفر الخروج (الإصحاح العشرين من 1 إلى 22) وفي سفر التثنية (الإصحاح الخامس من 1 إلى 30)؛ وروح الوصايا في النصين واحدة ولكن الاختلافات النصية واضحة. كان الاهتمام مُنصباً على تدوين الوثائق الهامة من عقود وخطابات وقوائم الشخصيات (القضاة وكبار الموظفين بالمدن وقوائم الأنساب) وقوائم القرابين وقوائم الغنائم؛ بهذا تكونت الأرشيفات التي أتت بالوثائق التي استخدمت بعد ذلك عند تحرير المؤلفات النهائية التي أدت إلى الكتب التي في حوزتنا اليوم؛ وبهذا الشكل أيضاً تختلط في كل كتاب أنواع أدبية متنوعة، وما على المتخصصين إلا أن يبحثوا في دوافع تجميع هذه الوثائق المتنافرة.

ومن المهم أن نُقارب بين عملية تكوين هذا المجموع المتنافر الذي هو العهد القديم والذي اعْتَمَدَ أولاً على النقل الشفهي وبين ما قد يحدث في أماكن وأزمنة أخرى عند ميلاد أدب بدائي.

ولنأخذ على سبيل المثال مولد الأدب الفرنسي في عصر مملكة الفرنجة France. إن نفس هذا التراث الشفهي يسود من البداية وحتى حفظ الأحداث الهامة مثل الحروب وهي حروب دفاع عن المسيحية ومآس مختلفة يبرز فيها الأبطال، وهي التي سَتُلْهِمُ بعد ذلك بقرون الرواة والقصاصين وكُتّاب الحوليات. بهذا نشأ الشِعْر المَلْحَمِيّ Chansons de geste ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي، وهو الشعر الذي يختلط فيه الواقع بالخرافة، وكوّنَ فيما بعد أول نصوص الآداب الملحمية. ومن أشهر هذه الملاحم أنشودة رولان La Chanson de Roland وهي أغنية روائية حربية، يبرز فيها رولان قائد مؤخرة جيش الإمبراطور شرلمان عند عودته من حملة إسبانية. وليست تضحية رولان حدثاً اختُرِع لمقتضى الحكاية التي يُحدد تاريخها بـ 15 أغسطس عام 778م، لأن ما حدث فعلاً هو هجمة قام بها سكان الجبل الباسكيون على رولان، وليس المؤلف الأدبي هنا أسطورياً فقط، حيث له قاعدة تاريخية، ولكن لا يمكن للمؤرخين أن يأخذوا بها حرفياً.

إن الموازنة بين مولد الكتاب المقدس ومثل هذا الأدب الدنيوي شيء يبدو أنه متفق بشكل دقيق مع الواقع. ولا تهدف هذه الموازنة، مثلما يفعل كثير من منكري الله المنهجيين، إلى رفض نص الكتاب المقدس في مجموعه، ذلك النص الذي يحتفظ به الناس في متحف الآثار الأسطورية. يمكننا الاعتقاد في حقيقة الخلق وفي إعطاء الله الوصايا لموسى وفي تدخل الله في شؤون البشر في عصر الملك سليمان على سبيل المثال، كما نستطيع الاعتقاد بأن جوهر هذه الأحداث قد وصل إلينا فعلاً وفي نفس الوقت نستطيع أن نرى وجوب خضوع تفصيل وصف الأحداث لنقل صارم، ذلك أن مساهمات البشر في تدوين التراث الشفهي الأصلي كبيرة وعديدة فعلاً.

أسفار العهد القديم

يتألف العهد القديم من مجموعة أسفار مختلفة لا تتساوى في الطول أو في النوع. كُتبت هذه الأسفار خلال ما يقرب من تسعة قرون وبلغات مختلفة واعتماداً على التراث المنقول شفوياً، وقد صُحح أكثرها وفقاً لأحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً.

ويبدو معقولاً أن ازدهار هذا الأدب الثري يقع تاريخياً في بداية المملكة الإسرائيلية، أي نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ففي هذا العصر ظهرت في البلاط الملكي هيئة الكتبة التي تتكون من مثقفين لا يقتصر دورهم على مجرد الكتابة والتدوين. وإلى هذا التاريخ يمكن إرجاع أولى المدونات، تلك المدونات الجزئية جداً التي تحدثنا عنها في الفصل السابق والتي كان لها أهمية خاصة استدعت تدوينها كتابة، وهي بعض الأناشيد، ونبوءات يعقوب وموسى، والوصايا العشر، والنصوص التشريعية عامة، وقد شكلت بمجموعها تقليداً دينياً قبل سن القوانين؛ وهذه النصوص تكون قطعاً متفرقة في مختلف مجموعات العهد القديم.

وبعد ذلك بقليل، أي ربما في القرن العاشر قبل الميلاد، تم تحرير النص المعروف بـ«الرواية اليهوية[1]» ليشكل فيما بعد بُنية الأسفار التي عُرفت باسم أسفار موسى الخمسة. وقد أضيفت إلى هذا النص بعد ذلك الرواية

---

(1) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله فيها هو: يهوه.

المعروفة بـ«الألهيمية[1]» والرواية الأخرى المعروفة بـ«الكهنوتية[2]». ويعالج النص اليهوي الأول الفترة ما بين بداية العالم وحتى موت يعقوب، وهو صادر عن مملكة الجنوب.

ومن نهاية القرن التاسع وحتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد تَكَوّن وذَاعَ النفوذ النبوي مع إليا واليشع وكتابهما في حوزتنا. وتلك أيضاً فترة النص الألهيمي للتوراة الذي يعالج فترة زمنية محددة بالنسبة إلى النص اليهوي؛ فهذا النص يكتفي برواية الأحداث الخاصة بإبراهيم ويعقوب ويوسف، ويرجع سفرا يشوع والقضاة إلى تلك الفترة.

أما القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الأنبياء عاموس وهوشع في إسرائيل وأشعيا وميخا في مملكة الجنوب.

وبالاستيلاء على سامرة في عام 721 قبل الميلاد انتهت مملكة إسرائيل. واستقبلت مملكة الجنوب ميراثها الديني. ويحتمل أن مجموعة الأمثال تنتمي إلى ذلك العصر، الذي يتسم على وجه خاص بجمع نصيّ التوراة اليهوي والألهيمي في مجلد واحد؛ وبهذا تَشَكَّلَ ما يُعرف بالتوراة، كما يحتمل أن يرجع تاريخ تحرير سفر التثنية إلى هذا العصر أيضاً.

ويلتقي حكم يشوع، في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، مع بدايات النبي أرميا، ولكن المؤلَّف لم يتخذ شكله النهائي إلا بعد ذلك العصر بقرن تقريباً.

---

(1) أطلق عليها هذا الاسم لإن اسم الله فيها هو: أليهم.

(2) صدرت عن كهنة معبد القدس.

أما رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفي الأول إلى بابل عام 598 قبل الميلاد. وكان حزقيال يمارس النبوة في أثناء هذا النفي، ثم سقطت القدس في عام 587 ق.م. هذا الحديث يسبق بداية النفي الثاني الذي امتد حتى عام 538 ق.م.

أما كتاب حزقيال، وهو آخر نبي كبير ونبي المنفى أيضاً، فإنه لم يدون في شكله الحالي إلا بعد موته، وقد دونه الكتبة الذين أصبحوا فيما بعد ورثته الروحيين. وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين واسمها «الرواية الكهنوتية» وهي الرواية التي أوردت الجزء الخاص بالخلق والذي يمتد حتى موت يعقوب.

وهكذا إذن أُدخل نص ثالث على النصين اليهوي والألهيمي في التوراة. وسنرى فيما بعد مظهراً من مظاهر تشابك هذا النص مع الكتب التي دونت تقريباً قبل ذلك بأربعة قرون وبقرنين. وفي هذا العصر أيضاً ظهر سفر المراثي.

وانتهى النفي إلى بابل بأمر سيروس عام 538 ق.م. فعاد اليهود إلى فلسطين وأعيد بناء معبد القدس، واستؤنف النشاط النبوي، ومن هنا جاءت كتب حجاي وزكريا وأشعيا الثالث وملاخي ودانيال وباروك (وقد كُتب هذا الأخير باليونانية).

والفترة التي تلي النفي هي أيضاً فترة كتب الحكمة حيث حُررت الأمثال نهائياً في عام 480ق.م، وحُرر سفر أيوب في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً، كما يرجع تاريخ سفر الجامعة Eoclesiaste ou Qohelet إلى القرن الثالث ق.م وذلك أيضاً هو عصر نشيد الإنشاد وكتاب أخبار الأيام، وكتب عزرا ونحميا. أما كتاب «بن سيراخ» Eoclesiastique ou Siracide فقد ظهر في القرن الثاني

قبل الميلاد، وأما سفر الحكمة لسلمان وسفرا المكابيين فقد كُتبوا قبل المسيح بقرن. وأسفار راعوث وأستيرويونس فيصعب تاريخها مثل سفري طوبيا ويهوديت. وكل هذه المعلومات معطاة تحت تحفظات التعديلات اللاحقة، لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون.

وعلى ذلك يبدو العهد القديم صرحاً أدبياً للشعب اليهودي منذ أصوله وحتى العصر المسيحي، ولقد دونت وأُكملت ورُوجعت الأسفار التي يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد؛ وليس هذا مطلقاً وجهة نظر شخصية نعطيها عن تاريخ تحرير هذه الأسفار، فالمعطيات الجوهرية لهذه اللمحة التاريخية مستقاة من مقال «التوراة» Bible بدائرة معارف أونيفرساليس للكاتب[1] ج.ب. ساندروز J.P.Sandroz الأستاذ بكليات الدومنيكان بسولشوار Saulchoir. ولكي نفهم ما هو العهد القديم يجب أن تكون هذه المعلومات حاضرة في أذهاننا، وهي معلومات أثبتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة.

إن الوحي يختلط بكل هذه الكتابات، ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التي خلفها لنا الكُتّاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم وحسب الظروف التي عاشوها والضرورات التي كان عليهم مواجهتها.

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية بتلك التي تكشف عنها مقدمات الكتب المقدسة المخصصة للعامة، ندرك أن هذه المقدمات تسوق الأمور

---

(1) Encyclopedia Universalis طبعة 1974م، الجزء الثالث، الصفحات من 246 إلى 253.

بشكل مختلف؛ فهي تسكت عن الأمور الأساسية الخاصة بتدوين الكتب، بغموض يضلل القارئ، وتقلل من شأن أمور أخرى إلى درجة أنها تعطي فكرة خاطئة عن الواقع الذي حدث فعلاً. وهكذا تُشوه مقدمات كثير من الكتب المقدسة الحقيقة، بل إذا كانت هناك كتب قد أصابها التعديل برمتها وعدة مرات (مثلما حدث لأسفار موسى الخمسة)، يكتفي كُتاب هذه المقدمات بالإشارة إلى أن تفاصيل أضيفت بعد تحرير النص. بعضهم يزج بمناقشات تخص فقرة عديمة الأهمية في هذا السفر أو ذاك ويسكتون عن أمور حيوية جداً تستحق دراسات طويلة. وإنه لمما يؤسف له حقاً أن يُحتفظ لعامة القراء بمعلومات خاطئة عن التوراة إلى هذا الحد.

التوراة أو أسفار موسى الخمسة PENTATEUQUE

«التوراة» هو الاسم السامي.

أما التعبير اليوناني فقد استخدم كلمة Pentateuque الفرنسية فهي تعني مؤلفاً يتكون من خمسة أجزاء هي: «التكوين، والخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية» وهي الأسفار التي كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم الذي يتألف من تسعة وثلاثين مجلداً.

وتتناول هذه المجموعة من النصوص الفترة منذ بداية الكون وحتى دخول الشعب اليهودي أرض كنعان، الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر، وبالتحديد حتى موت موسى. وتُستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة أي الناموس.

وظلت اليهودية والمسيحية، لقرون طويلة، تعتبران أن موسى نفسه هو

كاتب التوراة. وربما كان من دفع بتلك الدعوى قد اعتمد على واقع أن الرب قد قال لموسى (الخروج ـ الإصحاح 17 الآية 14): «اكتب هذا تذكاراً في الكتاب»، والمقصود بهذا هزيمة عماليق ـ أو ربما قد اعتمد أيضاً على الآية الثانية من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد: «وكتبَ موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب»، أو قد اعتمد على الآية التاسعة من الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية «وكتبَ موسى هذه التوراة».

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأي القائل بأن موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها، تبناها كل من فلافيوس جوزيف Flavius Josephe وفليون الإسكندري Philon.

أما اليوم فقد هُجر هذا الفرض تماماً، والكل يتفق على تلك النقطة، ولكن هذا لا يمنع أن العهد الجديد يَنسِبُ إلى موسى هذه الكتب. الواقع أن بولس يقول في رسالته إلى أهل رومية (الإصحاح العاشر ـ الآية 5): «لأن موسى يكتب في البر[1] الذي يصدر من الناموس...» هو بهذا يذكر عبارة من سفر اللاويين. أما يوحنا فإنه يجعل المسيح يقول تلك العبارة: «لأنكم لو كنتم ترون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني، فإن كنتم لستم تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامي». (إنجيل يوحنا. الإصحاح الخامس: 46 ـ 47). المقصود هنا. كما هو واضح، هو فعل الكتابة والكلمة اليونانية التي نجدها في النص الأصلي (المكتوب باليونانية) هي Episteute وهذا تأكيد مغلوط تماماً يذكره يوحنا على لسان المسيح: وما يلي يبرهن على ذلك.

---

(1) المقصود هنا العدل.

لقد استعرتُ عناصر هذه البرهنة من الأب ديفو R.P.de Vaux مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس. وقد قَدّم الأب ديفو لترجمته لسفر التكوين عام 1962 بمقدمة عامة لأسفار موسى الخمسة. وهي مقدمة تحتوي على حجج معتبرة تناقض الدعاوى الإنجيلية الخاصة بأبوة المؤلف.

يذكر الأب ديفو أن «التراث اليهودي الذي امتثل له عيسى والرسل» كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى. وكان الرافض الوحيد لهذه الدعوى أبين اسرا Aben Esra في القرن الثاني عشر. وفي القرن السادس عشر أشار كارلتشاد Carlatadt إلى استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيفية موته (سفر التثنية الإصحاح 34 الآيات من 5 إلى 12). ويذكر المؤلف بعد ذلك آخرين من النقاد يرفضون أبوة موسى، على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة، ويذكر على وجه الخصوص دراسة ريشارد سيمون Ricard Simon, del Oratoire التاريخ النقدي للعهد القديم Histoire Critique du Vieux Testament عام(1678)، وفيها يؤكد (ر. سيمون) على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب في أسفار موسى الخمسة. لقد أثار الكتاب ضجة وسخطاً، ولم يتابع أحد حجة ر. سيمون باستقراء منصف؛ حيث أن مراجع العصور القديمة في كتب التاريخ في بداية القرن الثامن عشر كثيراً ما تستعين بـ«ما كتب موسى».

يستطيع المرء إذن أن يتصور إلى أي حد كان من الصعب دحض خرافة تمتعت بالتأييد الذي أتى به المسيح نفسه في العهد الجديد، كما رأينا. ونحن ندين لـ«جان أستروك Jean Astruc»، طبيب لويس الخامس عشر، بالبرهان الحاسم الذي قدمه في هذا الموضوع.

فقد نشر جان أستروك في عام 1753 دراسة بعنوان «قرائن عن المذكرات

الأصلية التي يبدو أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين يؤكد فيها على تعدد المصادر؛ ولم يكن أول من أشار إلى هذا. على أية حال كانت لديه شجاعة أن ينشر على الملأ ملاحظة أساسية هي: وجود نصين جنباً إلى جنب في سفر التكوين يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب: إذ يسميه أحدهما بـ(يهوه) ويسميه الثاني بـ(ألوهيم)، ثم قام إيخهورن Eichhorn (1780 ـ 1783) بنفس الاكتشاف بالنسبة للكتب الأربعة الأخرى. ثم جاء إيلجن Ilgen (1798) ولاحظ أن أحد النصين اللذين ميزهما استروك، وهو النص الذي يسمى فيه الرب بـ(ألوهيم)، ينقسم هو أيضاً إلى قسمين؛ وبهذا تفتتت تماماً كتب أسفار موسى الخمسة.

أما باحثو القرن التاسع عشر فقد كرسوا جهدهم في البحث عن مصادر أكثر دقة، وفي عام 1845 كانت هناك أربعة مصادر مقبولة وتسمى بالأسماء التالية: الوثيقة اليهوية، والوثيقة الألوهيمية، وسفر التثنية، والنص الكهنوتي. وقد أفلح الباحثون في تحديد أزمانها كما يلي:

1ـ الوثيقة اليهوية في القرن التاسع قبل الميلاد (وقد حُررت في مملكة الجنوب).

2ـ أما الوثيقة الألوهيمية فهي أقرب تاريخياً بقليل (وقد حُررت بإسرائيل).

3ـ وأما سفر التثنية فينتمي إلى القرن الثامن قبل الميلاد في رأي أدموند جاكوب. وهناك باحثون آخرون، مثل الأب ديفو، يرون أنه ينتمي إلى عصر جوزياس (أي القرن السابع قبل الميلاد).

4ـ وأما النص الكهنوتي فينتمي إلى عصر النفي أو ما بعد عصر النفي، أي القرن السادس قبل الميلاد.

بهذا إذن يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على مدى ثلاثة قرون بأقل تقدير.

ولكن المشكلة أكثر تعقيداً من هذا؛ ففي عام 1941 استطاع «أ. لودز A. Lods» أن يميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر، وفي الوثيقة الإلوهيمية أربعة، وفي سفر التثنية ستة وفي النص الكهونتي تسعة. وهذا «دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين». ويذكر الأب ديفو أنه منذ فترة أكثر قرباً وصل التفكير إلى «أن كثيراً من نواميس أو قوانين أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة وفي فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق» وأن «عدداً من روايات أسفار موسى الخمس يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدماً من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه»، وهذا كله مما يدفع إلى الاهتمام بمشكلة «تشكل التراث». إن المشكلة تبدو عندئذ على درجة من التعقيد بحيث أن الأمر يختلط على الكل.

ويسبب تعدد المصادر تنافرات وتكرارات عديدة في هذه النصوص، ويعطي الأب ديفو أمثلة على تعقد هذه الأقوال الموروثة الخاصة بالخلق، وأنسال قابيل، والطوفان، واختطاف يوسف وما يجري له بمصر، والاختلافات الخاصة بأسماء شخص واحد، والتصويرات المختلفة للأحداث الهامة.

وبهذا يتضح تكوّن كتاب أسفار موسى الخمسة من أقوال موروثة مختلفة جَمَعَها ـ بشكل يقل أو يزيد حذقاً ـ محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنباً إلى جنب وطوراً غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة، تاركين لفكر القارئ أموراً غير معقولة وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر.

ويعطي كتاب أسفار موسى الخمسة ، على مستوى نقد النصوص، أكثر

الأمثلة وضوحاً عن التعديلات التي قام بها البشر في فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودي، كما يعطي أمثلة جلية عن تعديلات التراث الشفهي والنصوص التي تلقتها الأجيال السابقة.

كان كتاب «أسفار موسى الخمسة» قد بدأ، في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، مع التراث اليَهوِيّ الذي يتناول الرواية ابتداءً من أصل الكون، وهو لا يفعل أكثر من وضع الخطوط العريضة لمصير إسرائيل الخاص، كما يقول الأب ديفو، وذلك حتى «يضع هذا المصير في إطار إرادة الله الخاصة بالإنسانية». والكتاب ينتهي في القرن السادس قبل الميلاد بالنص الكهنوتي الذي ينصب اهتمامه على الإشارة إلى التواريخ والأنساب[1].

«يقول الأب ديفو: «إن ما تتميز به هذه الأقوال الموروثة من روايات نادرة يشهد باهتماماتها التشريعية، ومن ذلك: الراحة يوم السبت عند نهاية الخلق والارتباط بنوح والارتباط بإبراهيم والطهور وشراء مغارة مكبلا التي أعطت للآباء الأولين سنداً ملكياً بأرض كنعان». ولنذكر أن النص الكهنوتي يقع تاريخياً عند العودة من النفي ببابل وعند الاستقرار مرة ثانية بفلسطين ابتداء من 538 ق.م. هناك إذن تداخل معقد بين المشاكل الدينية وبين المشاكل السياسية الصرف.

فيما يخص سفر التكوين وحده فإن انقسام الكتاب إلى ثلاثة مصادر ثابت

---

(1) سنرى في الفصل التالي أخطاء الرواية التي ظهرت بعد المقابلة مع المعطيات الحديثة للعلم والتي انقاد لها محرر النص الكهنوتي وذلك بالنسبة لقدم الإنسان على الأرض وبالنسبة لتاريخ أحداث الخلق ومجراها، كما سيتضح أن الأخطاء ناجمة بشكل واضح عن تعديل البشر بالنصوص.

فعلاً، ويحدد الأب ديفو في تعليقات على ترجمته لفقرات نص سفر التكوين الحالي التي تخضع لكل مصدر من هذه المصادر. وإذا اعتمدنا على هذه المعطيات فنستطيع أن نحدد بالنسبة لكل فصل ما يأتي به كل مصدر. على سبيل المثال، فما يخص الخلق والطوفان والفترة التي تمتد من الطوفان وحتى إبراهيم، وهي العصور التي تحتل الأحد عشر فصلاً الأولى من سفر التكوين، نرى في رواية التوراة جزءاً من النص اليهوي يتبعه جزء من النص الكهنوتي، وليس النص الألوهيمي حاضراً في هذه الفصول. ويظهر بجلاء تام تداخل وتعقد الإسهامات اليهوية والكهنوتية. أما فيما يتعلق بالخلق وحتى نوح (أي الفصول الأولى) فانتظامها بسيط: فقرة يهوية تعقب فقرة كهنوتية وهكذا من البداية وحتى نهاية الرواية، أما فيما يتعلق بالطوفان وخاصة الفصلين السابع والثامن فإن تقسيم النص حسب مصادره يعزل فقرات قصيرة جداً قد تصل إلى جملة واحدة، ففي أكثر قليلاً من مائة سطر من النص الفرنسي ننتقل سبع عشرة مرة من مصدر إلى آخر؛ ومن هنا كانت تلك المتناقضات والأمور غير المعقولة التي تدرك عند قراءة هذا النص اليوم.

ويبسط الجدول التالي تقسيم المصادر هذا:

تفصيل توزيع النص اليهوي والنص الكهنوتي في الإصحاحات من 1 إلى 11 من سفر التكوين.

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر
1	(1)	2	(14)	ك
2	(4ب)	4	(26)	ي
5	(1)	5	(32)	ك
6	(1)	6	(8)	ي
6	(9)	6	(22)	ك

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر
7	(1)	7	(5)	ي
7	(6)			ك
7	(7)	7	(10)	ي (معدل)
7	(11)			ك
7	(12)			ي
7	(13)	7	(16أ)	ك
7	(16ب)	7	(17)	ي
7	(18)	7	(21)	ك
7	(22)	7	(23)	ي
7	(24)	8	(2أ)	ك
8	(2ب)			ي
8	(3)	8	(5)	ك
8	(6)	8	(12)	ي
8	(13أ)			ك
8	(13ب)			ي
8	(14)	8	(19)	ك
8	(20)	8	(22)	ي
9	(1)	9	(17)	ك
9	(18)	9	(27)	ي
9	(28)	10	(7)	ك
10	(8)	10	(19)	ي
10	(20)	10	(23)	ك
10	(24)	10	(30)	ي
10	(31)	10	(32)	ك
11	(1)	11	(9)	ي
11	(10)	11	(32)	ك

- يشير الرقم الأول إلى الإصحاح.
- يشير الرقم الثاني الموضوع بين قوسين إلى رقم الآيات، وتنقسم هذه أحياناً إلى جزءين يشار إليهما بالحرفين أ و ب.
- يشير حرف الياء إلى النص اليهوي.
- ويشير حرف الكاف إلى النص الكهنوتي.

مثال: يعني السطر الأول من الجدول ما يلي:

ما يمتد من الإصحاح الأول، الآية الأولى إلى الإصحاح الثاني الآية (14) من النص الحالي المنشور في الكتب المقدسة هو النص الكهنوتي.

أي تصوير أوضح من هذا يمكن أن نعطيه للتدخل البشري في كتب التوراة؟

الكتب التاريخية:

تتناول الكتب التاريخية تاريخ الشعب اليهودي منذ دخوله إلى أرض الميعاد (ويحدد، على أحسن تقدير معقول، بنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد) حتى النفي إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

وتؤكد السياقات في هذه الكتب على ما يمكن تسميته بـ«الواقع القومي»، وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذا لكلام الله. والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية، فسفر يشوع، على سبيل المثال، يخضع قبل كل شيء لدوافع دينية ويشير الاستاذ «أ. جاكوب» بهذه المناسبة إلى التناقص الصريح بين علم الآثار والنصوص فيما يتعلق بما يُدعى بتدمير مدينتي جيريكو Jericho وأي Ay.

إن محور سفر القضاة هو الدفاع عن الشعب المختار ضد الذين كانوا يحيقون به وإغاثة الرب له. ولقد تعدل الكتاب مرات عدة، وذلك ما يشير إليه

بموضوعية كبيرة الأب أ. لوفيفر R.P.A.Lefever في تمهيده لتوراة كرامبون Crampon وتشهد بذلك المقدمات والحواشي المتداخلة. إن حكاية راعوث ترتبط بهذه الروايات في سفر القضاة.

أما كتاب صمويل وكتب الملوك فهي أساساً مجموعات من السِيَر تخص صمويل وطالوت وسليمان، وقيمتها التاريخية مشكوك فيها؛ ومن وجهة النظر هذه يجد أ. جاكوب في هذه الكتب أخطاء متعددة، فالحدث الواحد له روايات مزدوجة وحتى ثلاثية، ويجد الأنبياء إِلْيَا واليَسَع وأشعيا مكانهم في هذه الروايات، وبهذا تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير. ولكن هناك مُعلّقين مثل الأب أ. لوفيفر، يرون «أن القيمة التاريخية لهذه الكتب أساسية».

إن الإصحاحين الأول والثاني من أخبار الأيام، وكتب عزرا ونحميا، تنتمي إلى كاتب واحد اسمه «القَصّاص» عاش في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. ويتناول من جديد التاريخ برمته منذ الخلق وحتى ذلك العصر، رغم أن الأنساب عنده تتوقف عند داود. الواقع أنه يعتمد كتاب صمويل وكتاب الملوك «بل هو ينسخها آلياً دون أن يهتم بالمتناقضات الناجمة عن هذا النسخ» (أ. جاكوب)؛ غير أنه يضيف أيضاً أموراً معينة يؤكد علم الآثار صحتها. في هذه المؤلفات إذن اهتمام بتكييف التاريخ مع الضرورات اللاهوتية، وكما يقول أ. جاكوب فإن الكاتب هنا يكتب التاريخ منطلقاً من اللاهوت. وعلى هذا، ولكي يشرح الكاتب أن مُلْكَ المَلِكَ منسى، الذي اضْطَهَدَ ودنس القدسيات، قد دام طويلاً وازدهر، فإنه يفترض أن هذا الملك آمن في رحلة له بآشور (أخبار الأيام، الإصحاح الثاني، 11/33)، وليس لهذا الأمر أي مصدر في أي كتاب من كتب التوراة أو خارجها». نلاحظ بقوة التناقض الشديد في كتابي عزرا ونحميا لأنها يمتلئان بالإبهام ولأنهما يتعلقان بعصر هو نفسه غير معروف وذلك لعدم وجود وثائق خارج الكتب المقدسة، والمعني به هو عصر القرن الرابع قبل الميلاد.

وتصنف كتب طوبيا وجوديت وإستيربين الكتب التاريخية، وفيها تجاسر وتصرف شديدان إزاء التاريخ؛ ففيها تغيير لأسماء الأعلام واختراع لشخصيات وأحداث وكل هذا بِنِّيةٍ دينية طيبة. الواقع أن هذه الكتب تحتوي على حكايات أخلاقية النزعة محشوة بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخياً.

أما كتابا المكابيين فيختلفنان تماماً، إذ يعطيان أحداث القرن الثاني قبل الميلاد برواية صحيحة بقدر كبير عن تاريخ ذلك العصر وهي بهذا تشكل شهادات قَيّمة.

إذن، فجميع الكتب المسماة بالتاريخية شديدة التباين، والتاريخ فيها معالج بشكل علمي بمثل ما هو معالج بشكل وهمي.

الكتب النبـويـة:

يضم هذا العنوان فيما يضم وصايا مختلف الأنبياء الذين ذُكروا في العهد القديم باستثناء كبار الأنبياء المشار إلى تعاليمهم في كتب أخرى مثل موسى وصمويل وإليا واليشع.

وتغطي الكتب النبوية الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني قبل الميلاد.

أما كتب القرن الثامن قبل الميلاد فهي كتب عاموس وهوشع وأشعيا وميخا. ويشتهر الأول بإدانته للمظالم الاجتماعية، والثاني بإدانته للفساد الديني، ذلك الذي تسبب في تعذيبه جسدياً (بعد أن تزوج من عاهرة مقدسة ضمن عبادة وثنية)، كصورة الله الذي يتألم بسبب انحلال شعبه وإن أعطاه حبه دائماً. أما أشعيا فهو وجه للتاريخ السياسي، فهو يسود الأحداث لأن الملوك يستشيرونه؛ إنه نبي العظمة؛ وإلى مؤلفاته تضاف نبوءاته التي نشرها تلاميذه حتى القرن الثالث قبل الميلاد ومنها: الاحتجاجات ضد الظلم والخوف من

يوم القيامة والتبشير بالتحرر في عصر النفي، والتنبؤ في فترة لاحقة بعودة اليهود إلى فلسطين. ومن المؤكد أن نبوءتي أشعيا الثانية والثالثة تحتويان أيضاً ـ إلى جانب الاهتمام النبوي ـ على اهتمام سياسي يظهر واضحاً. وتنبع رسالة ميخا، وهو معاصر لأشعيا، من روح هذه الأفكار.

وفي القرن السابع قبل الميلاد يبرز صفنيا وأرميا وناحوم وحبقوق في التبشير، وينتهي أرميا بالاستشهاد؛ وتلقي باروك نبوءاته؛ وربما كان أرميا كاتب المراثي.

لقد أعطى النفي إلى بابل في بداية القرن السادس ق.م. نشاطاً نبوياً كبيراً. ويُعدّ النبي حزقيال بارزاً في هذا النشاط باعتباره مواسياً لإخوته الذين أشاع الأمل في نفوسهم. ورؤاه مشهورة، ويرتبط كتاب عوبيديا بكوارث القدس المقهورة.

وبعد النفي الذي انتهى في عام 538 ق.م. استؤنف النشاط النبوي مع حجاي وزكريا للحث على إعادة بناء المعبد. إن ما كُتب باسم ملاخي، بعد الانتهاء من بناء المعبد، عبارة نبوءات متنوعة ذات طبيعة روحانية.

والسؤال هنا هو: ما سبب إدراج كتاب يونس بين كتب الأنبياء، حيث إن العهد القديم لا ينسب إليه نصوصاً بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ إن كتاب يونس حكاية يُستخلص منها أمر رئيس هو الخضوع الضروري للإرادة الإلهية.

وأما رؤيا دانيال فهي «مذهلة» من وجهة النظر التاريخية كما يقول المعلقون المسيحيون، وهي مكتوبة بثلاث لغات (العبرية والآرامية واليونانية)، ويقول البعض إنها مؤلف يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد في عصر المكابيين. ويحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد أراد إقناع مواطنيه في عصر «منتهى الشر» بأن ميعاد الخلاص قريب وذلك حتى يغذي إيمانهم (أ. جاكوب).

كتب الشعر والحكمة:

تُكوّن كتب الشعر والحكمة مجموعات تتمتع بوحدة أدبية لا جدال فيها. وتحتل المزامير المقام الأول بين هذه المجموعات. إنها الصرح الشامخ في الشعر العبري. وقد كتب داود عدداً كبيراً منها وكتب الباقي الكهنة واللاويون، ومواضيعها المدائح والتضرعات والتأملات، وقد كانت وظيفة المزامير طقوسية الطابع.

أما كتاب أيوب، كتاب الحكمة والبر، بكل معنى الكلمة، فيرجع فيما يقال إلى 400 أو 500 ق.م.

وأما المراثي على سقوط القدس، في بداية القرن السادس قبل الميلاد، فربما كان كاتبها هو أرميا.

ولنذكر أيضاً أناشيد الإنشاد، وهي أناشيد رمزية تَنْصبُ على الحب الإلهي وتعتبره فوق كل حب، وسفر الأمثال ويتكون من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء آخرين في بلاطه، وسفر الجامعة ويتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة.

والسؤال الآن هو: كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه، الذي يتكون من أسفار كُتبت على مدى سبعة قرون على الأقل وأتت من مصادر شديدة التنوع ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد، أن يكون كلاً لا ينفصم عبر القرون، وأن يصبح، مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية، كتاب الوحي اليهودي ـ المسيحي؟ كيف أصبح «القانون» وهي كلمة يونانية يرتبط بها معنى عدم المساس؟

إن التجميع لا يرجع إلى عصر المسيحية بل إلى اليهودية نفسها، ولا شك أن مرحلته الأولى تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث إن الكتب اللاحقة قد أتت بعد ذلك لتضاف إلى ما احتُفِظَ به من قبل. ومع ذلك يجب أن نلاحظ المكانة الخاصة التي أعطيت في كل العصور للأسفار الخمسة الأولى

التي تكوّن التوراة أو ما يعرف بأسفار موسى الخمسة. فإن تحقق نذائر الأنبياء (هي وعد بالعقاب يرتبط وظيفياً بالخطايا)، كان من شأنه أن سَهلَ إضافة كتبهم إلى الكتب المقبولة سلفاً، إن «قانون» الأنبياء كان قد تشكل فعلاً قبل القرن الثاني قبل الميلاد.

أما الكتب الأخرى مثل المزامير، وبسبب وظيفتها في الطقوس الدينية، فقد أدمجت مع الكتابات الأخرى، وكتابات سليمان أو أيوب الحكيمة.

إن المسيحية التي كانت أولاً يهودية ـ مسيحية، والتي درسها جيداً (كما سنرى ذلك) كُتاب محدثون، مثل: الكردينال الدانيلوي، قد تلقت بشكل طبيعي جداً ميراث العهد القديم الذي ارتبطت به كتب الأناجيل بصورة وثيقة، وذلك قبل أن يجري عليها التحول الذي حدث بتأثير بولس. ولكن إذا كان «تطهير» الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل المزورة، فإن المسؤولين لم يروا نضرورة القيام بنفس الفرز بالنسبة إلى العهد القديم، وقبلوا كل ما يحتويه تقريباً.

هل هناك من تجرأ واعترض على هذا المجموع المتنافر حتى القرون الوسطى ـ في الغرب على الأقل؟ لا أحد تقريباً. ومن القرون الوسطى وحتى بداية العصور الحديثة ظهرت بعض الانتقادات، كما رأينا أعلاه، ولكن الكنائس نجحت دائماً في فرض سلطتها؛ ولا شك أن عصرنا قد شهد ميلاد نقد علمي للنصوص. ولكن إذا كان المتخصصون في نقد النصوص من الكنسيين قد كرسوا جهودهم على دراسة حشد كبير من النقاط التفصيلية، فإنهم قد حكموا بأفضلية عدم الذهاب إلى أبعد مما يسمونه تلميحاً «صعوبات»، ولا يبدو أن بهم ميلاً لدراسة هذه الصعوبات على ضوء المعارف الحديثة. وإذا كان هناك من لا يعترض على إقامة موازنات تاريخية، وخاصة عندما يكون هناك توافق بين المعارف الحديثة وروايات الكتب المقدسة، فلا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد حَطّ الخُطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات التي ستقود إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات اليهودية ـ المسيحية التي لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا.

العهد القديم والعلم الحديث

ملاحظات

قليل من الموضوعات التي يعالجها العهد القديم ـ كالأناجيل ـ تسمح بالمقابلة مع معطيات العلوم الحديثة، ولكن عندما يحدث تعارض بين نص التوراة والعلم فإنه يحدث في مسائل نستطيع أن نصفها بالمهمة.

إن الموضوعات التي تسمح بالمقارنة مع نتائج العلوم الحديثة والتب تضمنها العهد القديم ليست كثيرة ومنها: الإناجيل، ولكن التعارض بين نصوص التوراة والعلم يحدث في مسائل توصف بالمهمة.

ولقد رأينا في الفصل السابق أن التوراة تحتوي على أخطاء ذات طابع تاريخي وذكرنا بعض هذه الأخطاء مما اكتشفه عدة مسفرين يهود ومسيحيين، ويميل المفسرون المسيحيون بشكل طبيعي إلى التقليل من أهمية هذه الأخطاء؛ فهم يرون أنه من الطبيعي تماماً أن يقدم الكاتب الديني أموراً تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية،لذا فهم يكتبون التاريخ إذن حسب مقتضيات الحال. وسنرى فيما بعد بالنسبة إلى إنجيل متي نفس هذه التصرفات إزاء الواقع ونفس التعليقات التي تهدف إلى فرض ما يناقض الحقيقة كحقيقة. إن الروح المنطق والموظوعية لا يمكن أن يرضى بهذه الطريقة في العمل.

منطقياً يمكن أن نتبين عدداً كبيراً من المتناقضات والأمور غير المعقولة في التوراة.

يمكن أن تكون المصادر المختلفة التي استخدمت في تأليف النص هي السبب في رواية حدث واحد بشكلين مختلفين، ولكن هناك أكثر من ذلك: إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التي أضيفت استدلالياً ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى، كل هذا يعرفه المتخصصون في نقد النصوص، ويشير البعض إليه بمنتهى الأمانة. وعلى سبيل المثال قدم الأب ديفو، بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها، في المقدمة العامة التي تسبق ترجمته لسفر التكوين (ص 13 و14)، تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا ـ مهما أعدتُ ذكرها هنا، حيث سنذكر الكثير منها في هذه الدراسة ـ أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هي أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذاً حرفياً.

وإليكم مثالاً معبراً عن هذا:

في سفر التكوين (الإصحاح 6 الآية 3) يقرر الله، قبل الطوفان بقليل، أن يحدد عمر الإنسان بمائة وعشرين سنة؛ تقول التوراة: «. . .وتكون أيامه مائة وعشرين سنة». ومع ذلك يلاحظ فيما بعد في نفس سفر التكوين (الإصحاح 11 الآيات من 10 إلى 32) أن حياة أنسال نوح العشرة قد دامت من 148 إلى 600 سنة (انظر في هذا الفصل الجدول الذي يمثل أنسال نوح حتى إبراهيم). إن التناقص بين هاتين العبارتين واضح، وتعليله بسيط؛ فالعبارة الأولى (التكوين. إصحاح 6 الآية 3) نص يهوي يعود تاريخه، كما رأينا أعلاه، إلى القرن العاشر قبل الميلاد. أما العبارة الثانية في سفر التكوين (الإصحاح 11، الآيات من 10 إلى 32) فهي من نص قريب تاريخياً (القرن السادس قبل الميلاد) في التراث الكهنوتي الذي هو أصل هذه الأنساب التي تبدو شديدة الدقة في إحصاء الأعمار بنفس القدر الذي تبدو به غير معقولة إذا أخذناها كتلة واحدة.

في سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث. وتخص هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية:

1ـ خلق العالم ومراحله.

٢ـ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣ـ رواية الطوفان.

خلق العالم

يلاحظ الأب ديفو أن سفر التكوين «يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى». وللتحقيق في هذين النصين ومن ثم مقارنتهما مع المعطيات العلمية، فلا بد من دراسة كل منهما مُنْفَصِلاً عن الآخر.

الرواية الأولى عن الخلق:

تحتل هذه الرواية الإصحاح الأول، والآيات الأولى من الإصحاح الثاني، وهي زاخرة بالأخطاء من وجهة النظر العلمية، ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة. والنص الذي سندرسه لهذه الرواية هو نص ترجمة فرنسية لمدرسة الكتاب المقدس بالقدس.

الإصحاح الأول ـ الآيتان 1و2: «في البدء خلق الله السماء والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية والظلمات تغطي اللجة وروح الله يرف على المياه».

نستطيع أن نقبل تماماً أن في مرحلة ما قبل الأرض كان ما سيصبح الكون، كما نعرفه، غارقاً في الظلمات؛ ولكن الإشارة إلى المياه في تلك المرحلة أمر رمزي صرف، وربما كان ترجمة لأسطورة. وسنرى في الجزء

الثالث من هذا الكتاب أن هناك ما يسمح بالاعتقاد بوجود كتلة غازية في المرحلة الأولى لتكوُّن الكون. إن القول بوجود الماء في تلك المرحلة خطأ كبير.

الآيات من 3 إلى 5: «ليكن نور فكان النور، ورأى الله أن النور حسن وفصل بين النور والظلمات، ودعا الله النور نهاراً والظلمات ليلاً، وكان مساء وكان صباح: اليوم الأول».

إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم، والنجوم سندرسها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ولكن النجوم، حسب قول التوراة، لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة، حيث إن «أنوار» السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية 14 باعتبارها ما قد خلقه الله في اليوم الرابع «ليفصل بين النهار والليل» «ولينير الأرض» وذلك صحيح تماماً. ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية (أي النور) في اليوم الأول، على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور. أي «المنيرة» في اليوم الرابع. يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار في اليوم الأول هو أمر مجازي صرف: فالليل والنهار، باعتبارهما عنصرين ليوم، لا يعقل وجودهما إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها أي: الشمس.

«**الآيات من 6 إلى 8**» وقال الله: «ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصل بين مياه ومياه. وكان كذلك. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. ودعا الله الجلد سماء. وكان سماء وكان صباح: اليوم الثاني».

أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين بواسطة الجلد الذي

سيجعل الطبقة العليا، عند الطوفان، تنفذ من خلاله، تمر لتنصيب على الأرض. إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علمياً.

الآيات من 9 إلى 13، وقال الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد في كتلة واحدة ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه (بحاراً) ورأى الله ذلك أنه حسن».

وقال الله: «لتنبت الأرض خضرة عشباً يحمل بذراً كجنسه، وشجراً يعطي ثمراً من جنسه وبذراً، ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح: اليوم الثالث». ومقبول علمياً أن القارات قد ظهرت في مرحلة من تاريخ الأرض كانت خلاله مغطاة بالماء. ولكن أن يكون هناك في تلك الفترة عالم نباتي ينتظم جيداً بالتناسل بالبذرة قبل ظهور الشمس (التي تظهر كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع)، وأن ينتظم تعاقب النهار والليل فذلك ما لا يمكن مطلقاً القول به.

الآيات 14 إلى 19: «وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون علامات للأعياد كما للأيام والسنين، ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض. وكان كذلك، وعمل الله المنيرين العظيمين - المنير الأكبر لحكم النهار والمنير الأصغر لحكم الليل - والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان صباح: اليوم الرابع».

إن وصف كاتب التوراة هنا مقبول، والنقد الوحيد الذي يمكن إقامته على هذه العبارة هو المكان الذي تحتله في مجموع الرواية. إن الأرض والقمر، كما نعرف، قد نبعا من نجمهما الأصلي، أي: الشمس. ووضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسي.

الآيات من 20 إلى 23: «وقال الله: ولتعج المياه بعجيج الكائنات الحية ولتطر طيور فوق الأرض وعلى وجه جلد السماء. «وكان كذلك. وخلق الله كبار ثعابين البحر وكل الكائنات الحية التي تنزلق وتعج في البحار، كل بحسب جنسه، وكل ذي جناح بحسب جنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً: «أثمري وأكثري واملئي البحار وليتكاثر الطير على الأرض. وكان ليل وكان نهار: اليوم الخامس».

وتحتوي هذه الفقرة على مزاعم لا يمكن قبولها.

يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولاً وابتداء من حيوانات البحر والطيور. الواقع أن رواية التوراة تقول إن في اليوم التالي ـ كما سنرى ذلك في الآيات التالية ـ أُسكنت الأرض بالحيوانات.

ولا شك أن أصل الحياة مائي: وسننظر في هذه المسألة في الجزء الثالث من هذا الكتاب. وابتداء من هنا، إن جاز القول، احتل عالم الحيوان الأرض. ومن الحيوانات التي تعيش على سطح الأرض، وهي فئة خاصة من الزواحف تسمى Pseudo-suchiens كانت تعيش في العصر الثاني: جاءت الطيور، فيما يعتقد، وهناك كثير من السمات البيولوجية المشتركة بين هاتين الفئتين تسمح بهذا الاستنتاج. ولكن سفر التكوين لا يشير إلى الحيوانات الأرضية إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور.

إذن فنظام ظهور الحيوانات الأرضية والطيور هذا غير مقبول.

الآيات من 24 إلى 31: «وقال الله: لتخرج الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها». وكان كذلك. عمل الله الوحوش كجنسها والدبابات كجنسها وكل دبابات الأرض كجنسها. ورأي الله ذلك أنه حسن».

«وقال الله: «لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. ويتسلطوا (كذا) على سمك البحر وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التي تزحف على الأرض». فخلق الله الإنسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهما.

«وباركهما الله وقال لهما: أثمرا وأكثرا واملأ الأرض وأخضعاها، وتسلطا على سمك البحار وطيور السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. «وقال الله: إني قد أعطيتكما كل بقل يحمل بذراً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر ويحمل بذراً، لكما يكون طعاماً. ولكل الوحوش ولكل طيور السماء ولكل دبابة على الأرض وكائن حي أعطيت كل خضرة النباتات طعاماً وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله؛ فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح: اليوم السادس».

في وصف تمام الخلق يعدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير المذكورة سابقاً ويشير إلى الأقوات المختلفة الموضوعة تحت تصرف الناس والحيوانات.

وكما نرى فإن الخطأ يكمن في وضع ظهور الحيوانات الأرضية بعد ظهور الطيور، ولكن ظهور الإنسان على الأرض محدد بشكل صحيح بعد ظهور الفئات الأخرى من الكائنات الحية.

وتنتهي رواية الخلق بالآيات الثلاث الأولى من الإصحاح الثاني: «فأكملت السماوات والأرض بكل جندها (كذا). وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدّسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق. هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت».

تتطلب رواية اليوم السابع هذه التعليقات:

أولاً: معنى الكلمات، والنص هو نص ترجمة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس. «جند» تعني هنا على الأرجح حشد الكائنات المخلوقة. أما فيما يخص التعبير (استراح) II choma فتلك طريقة مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس في ترجمة الكلمة العبرية «شباط» والتي تعني ذلك على وجه الدقة، ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود (يوم السبت).

وواضح أن هذه «الراحة» التي يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام، هي أسطورة، ولكن لها تعليل، إذ لا يجب نسيان أن رواية الخلق المدروسة هنا تأتي من النص الذي يسمى بالكهنوتي كتبه الكهنة أو الكتبة وهم الوريثون الروحيون لحزقيال نبي النفي ببابل في القرن السادس قبل الميلاد. ومعروف أن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتي الخلق اليهوية والأولوهيمية وأعادوا صياغتهما على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التي كتب الأب ديفو عنها قائلاً: إن طابعها «التشريعي» كان جوهرياً. وقد أعطينا لمحة عن ذلك.

على حين لا يشير النص اليهوي، الذي يسبق النص الكهنوتي بعدة قرون، إلى راحة الله الذي تعب من عمله طيلة الأسبوع، كما يدخلها الكاتب الكهنوتي في روايته. إنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع، وهو يضع محور الرواية على راحة السبت التي يعللها أمام المؤمنين مؤكداً على هذا بقوله إن الله هو أول من احترمها. وابتدأ من هذه الضرورة العملية بانتقاد رواية الخلق بمنطق ديني ظاهر وإن كان هذا بشكل يجعل ضوابط العلم تصفه بالوهم.

إن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة في إطار أسبوع، هذا الإدراج الذي أراده الكاتب الكهنوتي بهدف الحث على الطاعة الدينية، لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية؛ فمعروف تماماً في أيامنا أنْ تَشّكل الكون والأرضْ ـ

وسنعالج هذا في الجزء الثالث من هذا الكتاب بالنسبة للمعطيات القرآنية الخاصة بالخلق ـ قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول لا تستطيع المعطيات الحديثة أن تحدد مدتها حتى تقريبياً؛ وحتى إذا كانت الرواية تنتهي مساء اليوم السادس ولا تحتوي على إشارة إلى اليوم السابع، يوم الراحة الذي استراح فيه الله، وحتى إذا كان مسموحاً لنا، كما هو الأمر بالنسبة للرواية القرآنية، أن نعتبر أن المقصود فعلاً هو فترات غير محددة وليس أياماً بالمعنى الحقيقي، فإن النص الكهنوتي يظل غير مقبول، حيث إن تعاقب الأحداث فيه يناقض المعلومات العلمية الأصلية.

هكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالي مبتكر كان يهدف إلى شيء آخر غير التعريف بالحقيقة.

الرواية الثانية:

لا تسمح بنفس الانتقادات رواية الخلق الثانية التي يحتوي عليها سفر التكوين والتي تلي دون انتقال ودون تعليقات الرواية السالفة.

هذه الرواية ترجع إلى تاريخ أكثر قدماً من الرواية الأولى بحوالي ثلاثة قرون. هي رواية قصيرة جداً، ولكنها أكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض مما يخص خلق الأرض والسماء الذي تذكره بإيجاز شديد. تقول هذه الرواية. «عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليفلح الأرض، لكن، كان سيل يطلع منها ويسقي كل وجهها. وعندئذ جَبَل يهوه الإنسان من طين الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية» (الإصحاح 2 الآيات 4 ب إلى 7).

تلك هي الرواية اليهوية الموجودة في نصوص كتب العهد القديم التي نملكها حالياً. هذه الرواية التي أضيفت إليها فيما بعد الرواية الكهنوتية هل كانت على هذا القدر من القِصَر...؟ لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان النص اليهوي قد تعرض للقطع عبر الأزمنة، ولا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كانت السطور القليلة التي في حوزتنا تمثل فعلاً كل ما كان يمكن أن يحتوي عليه أقدم نص للتوراة عن الخلق.

إن هذه الرواية اليهوية لا تشير إلى تَشَكّل الأرض بشكل واضح وخاص ولا إلى تشكل السماء. إنه يشير ضمنياً إلى أن عند خلق الله للإنسان لم تكن هناك نباتات أرضية (فلم يكن المطر قد نزل بعد)، هذا برغم أن المياه الآتية من العمق كانت تغطي سطح الأرض. وتؤكد هذا البقية التالية للنص: «زرع الله بستاناً في نفس الوقت الذي خلق فيه الإنسان»، وهكذا يظهر عالم النبات في نفس وقت ظهور الإنسان على الأرض. وهذا علمياً خطأ؛ فقد ظهر الإنسان على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن بعيد حاملة للنباتات، وإن كنا لا نستطيع أن نقول كم من مئات ملايين السنوات قد مرت بين الحدثين.

ذلك هو التناقض الوحيد الذي يمكن توجيهه إلى النص اليهوي للخلق. فبما أنه لا يحدد لحظة خلق الإنسان ـ زمنياً ـ بالنسبة إلى تشكل العالم وتشكل الأرض، ذلك الزمن الذي يحدده النص الكهنوتي بأنه حدث في نفس أسبوع الخلق، فإنه يفلت من انتقاد خطير كان يوجه لهذا الأخير.

تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض

لمّا كان التقويم اليهودي مؤسساً بالتوافق مع معطيات العهد القديم، فإنه يحدد هذين التاريخين بدقة: إن الجزء الثاني من عام 1975 المسيحي يتفق مع

بداية العام 5736 منذ خلق العالم، إذن فالإنسان الذي يجيء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم الذي يحصيه التقويم اليهودي لخلق العالم.

وهناك ولا شك تصحيح يجب إجراؤه بسبب إحصاءات الزمن التي كانت تحسب أولاً بالسنوات القمرية، على حين يتأسس التقويم الغربي على السنوات الشمسية، ولكن هذا التصحيح الذي يبلغ 3٪ والذي يمكن عمله إذا أردنا أن نكون في منتهى الدقة، قليل الأهمية، وحتى لا نُعَقِّد الحسابات يَحسن أن نعتمد الرقم التقريبي، ولا يهم إذا كان رقم السنوات بالألف بهامش خطأ يبلغ ٣٠سنة. ولكي نكون أكثر قرباً من الحقيقة لنقل إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد.

بالنسبة إلى العلم الحديث فهو لم يستطع أن يعطي إجابة دقيقة ومحددة عن زمن تكوّن الكون. وكل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكون النظام الشمسي الذي يمكن تحديده زمنياً بتقريب مرضٍ. ويقدر الزمن الذي يفصلنا عن تكوّن النظام الشمسي بأربع مليارات ونصف من السنوات؛ وبهذا نقيس الهامش الذي يفصل الواقع الثابت اليوم (والذي سنعود إليه في الفصل الثالث من هذا الكتاب) عن المعطيات المستخرجة من العهد القديم النابعة من دراسة دقيقة لنص التوراة، حيث يعطي سفر التكوين إشارات دقيقة جداً عن الزمن الذي جرى بين آدم وإبراهيم. أما بالنسبة للفترة الممتدة من إبراهيم وحتى العصر المسيحي فإن المعلومات المعطاة غير كافية ولابد من إكمالها بالاستعانة بمصادر أخرى.

١ـ من آدم إلى إبراهيم

يقدم سفر التكوين، في أنسابه بالإصحاحات 4و5و11و21و25،

معطيات غاية في الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم، حيث يحدد مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن، وهو بذلك يمكننا بسهولةمن تحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مشار إليه في الجدول التالي:

شُكِّلَ هذا الجدول حسب المعطيات المستحصلة من النص الكهنوتي لسفر التكوين، وهو النص الوحيد في التوراة الذي يعطي تحديدات من هذا النوع. وعن طريقه نستنتج أن إبراهيم، كما تقول التوراة، قد رأى النور في عام 1948 بعد آدم.

(أنساب إبراهيم)

	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
1- آدم	00	930	930
شيت	130	912	1042
أنوش	235	905	1140
قينان	325	910	1235
مهللئيل	395	895	1290
يارد	460	962	1422
أخنوخ	622	365	987
متوشالح	687	969	1656
لامك	874	777	1651
10- نوح	1056	950	2006
سام	1556	600	2156
أرفكشاد	1658	438	2096

	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
شالح	1693	433	2122
عابر	1723	464	2187
فالج	1757	239	1996
داعو	1787	239	2026
سروج	1819	230	2049
ناحور	1849	148	1997
تارح	1878	205	2083
20- إبراهيم	1948	175	2123

2ـ من إبراهيم إلى العصر المسيحي

لا تعطي التوراة عن هذه الفترة أية معلومات حسابية من شأنها أن تقود إلى تقويمات دقيقة كتلك التي يعطيها سفر التكوين عن أسلاف إبراهيم. ولكي نُقّدر الزمن الذي يفصل بين إبراهيم والمسيح علينا أن نستعين بمصادر أخرى. ويُحدد حالياً عصر إبراهيم بحوالي ثمانية عشر قرناً قبل الميلاد بصورة تقريبية وبهامش خطأ صغير. وهذه المعلومة المؤلفة من إشارات سفر التكوين عن الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وآدم تقود إلى تحديد تاريخ هذا الأخير بحوالي ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح، وهذا التقدير خاطئ بلا أي جدل؛ وخطؤه يأتي من الغلط الذي تحتويه التوراة عن المدة بين آدم وإبراهيم التي يعتمد عليها التراث اليهودي دائماً لتحديد تقويمه. ونستطيع في عصرنا أن نعارض الحماة التقليديين لحقيقة التوراة باستحالة اتفاق المعطيات الحديثة مع هذه التقديرات الوهمية التي عملها الكهنة اليهود في القرن السادس قبل

الميلاد. استخدمت هذه التقديرات لقرون طويلة كقاعدة لتحديد أحداث العصر القديم بالنسبة للمسيح.

كانت كتب التوراة المنشورة قبل العصر الحديث تقدم للقراء في مقدمة توضيحية قائمة بتواريخ الأحداث التي وقعت منذ خلق العالم وحتى عصر نشر تلك الكتب، وكانت الأرقام تتنوع قليلاً بحسب العصور، على سبيل المثال تعطي نسخة Vulgate Cle'mentine (1621) مثل هذه الإشارات، واضعة مع ذلك تاريخ إبراهيم بشكل مبكر قليلاً ومحددة الخلق بالقرن الأربعين قبل الميلاد تقريباً. أما توراة والتون Walton متعددة اللغات، المنشورة في القرن السابع عشر، فهي تُطلع القارئ، خارج نصوص التوراة في لغات عدة، على جداول مماثلة لذلك الذي اطلعنا عليه بالنسبة لأسلاف إبراهيم؛ إن كل التقديرات متفقة، فيما عدا اختلافات طفيفة، مع الأرقام المقدمة هنا. وعندما جاء العصر الحديث لم يعد في استطاعة الناشر الاحتفاظ بهذه القوائم الوهمية دون التعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير، فلجأ إلى حذف هذه الجداول والمقدمات، وبدل أن يُعلم الناشرون القارئ بخطأ نصوص التوراة هذه التي أُعتمد عليها من قبل لتحرير هذه القوائم التاريخية والتي لم يعد في الإمكان اعتبار أنها تعبر عن الحقيقة، فضّلوا أن يلقوا عليها غلالة من الحياء وأن يجدوا صيغاً ديالكتيكية عالمة حتى يقبل النص كما كان من قبل دون أي حذف. وهكذا تجد قوائم الأنساب للنص الكهنوتي للتوراة في مكان الصدارة دائماً، على حين أنه لم يعد معقولاً في القرن العشرين حساب الزمن بالاعتماد على مثل هذا الوهم.

أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض فالمعطيات العلمية الحديثة لم تستطع تحديده بدقة كبيرة لا تحتمل التقريب. نستطيع أن نقتنع بأن

الإنسان كان يوجد على الأرض، بطاقة ذكائه وعمله الذي تجعله يختلف عن كائنات حية تبدو مقاربة له تشريحياً، في فترة لاحقة على تاريخ يمكن تقديره، ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره. ومع ذلك فيمكن اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ويُحسب قِدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

يعتمد هذا التاريخ التقريبي على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذي أُعتُبِرَ أكثر النماذج قرباً للنموذج Neo-anthropiens (إنسان كرومانيون Cro-Magnon). ولا شك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد وجدت في أماكن عديدة على الأرض، وهي تخص أنماطاً أقل تطوراً Paleo-anthropiens. وتُقدّر أعمارها بمئات ألوف السنين؛ ولكن هل تعود حقاً لبشر حقيقيين. . . ؟

على أي حال فالمعطيات دقيقة بشكل كاف فيما يخص النموذج Neo-anthropiens وذلك يسمح بوضعهم أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر، هناك إذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف رسوخاً في عصرنا.

الطـوفـان

الإصحاحات 6و7و8 من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان. وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنباً إلى جنب، إنما تنفصلان في مقاطع متداخلة كل في الآخر وبمنطق واضح في تعاقب مختلف الأحداث. الحقيقة أن في هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة، وهنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلي: أي المصدر اليهوي والمصدر الكهنوتي.

وقد رأينا أعلاه أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً، فقد قُطِّع كل نص أصلي إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر، بحيث إننا ننتقل من مصدر لآخر في الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص.

والرواية في عمومها هي ما يلي:

لما عَمَّ فساد البشر قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الأخرى. فحذَّر نوحاً وأمره ببناء السفينة التي سيُدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث، كائنات حية أخرى، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية؛ فهناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتي الأصل) يشير إلى أن نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي (وهو من الأصل اليهوي) أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة. ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحاً لن يدخل إلى السفينة فعلاً إلا زوجاً من كل نوع من الحيوانات. ويؤكد المتخصصون، مثل الأب ديفو، أن المعني به هنا هو مقطع مُعدّل من الرواية اليهوية.

وهناك فقرة (وهي من الأصل اليهوي) تشير أن سبب الطوفان هو ماء المطر ولكن هناك فقرة أخرى (وهي كهنوتية الأصل) تقدم سبب الطوفان على أنه مزدوج، أي ماء المطر والينابيع الأرضية.

تغطت الأرض حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء، وتدمرت فيها كل الحياة. وبعد سنة خرج نوح من السفينة التي رست على جبل أراراط بعد الانحسار.

ولنضف أيضاً أن للطوفان، حسب هذه النصوص، مدتين مختلفتين: إذ

تقول الرواية اليهوية أربعون يوماً فيضاناً، على حين يقول النص الكهنوتي مائة وخمسون يوماً. ولا تحدد الرواية اليهوية تاريخ وقوع هذا الحدث من حياة نوح. ولكن الرواية الكهنوتية تحدده بحين كان عمر نوح 600 سنة، وتعطي نفس هذه الرواية إشارات عن موقعه الزمني بالنسب لآدم وبالنسبة لإبراهيم، وذلك من خلال قائمة الأنساب. وحسب الحسابات المعمولة بعد الرجوع إلى إشارات سفر التكوين، والتي تقول إن نوحاً قد ولد بعد 1056 عاماً من آدم (انظر جدول أسلاف إبراهيم)، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد 1656 عاماً من خلق آدم، وبالنسبة إلى إبراهيم فيحدد سفر التكوين الطوفان بـ292 سنة قبل الميلاد هذا الأب الأول.

ولكن، كما يقول سفر التكوين، يخص الطوفان كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله قد أعدمت على الأرض حسب هذه الرواية. إن البشرية، والأمر هكذا، تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم، بحيث إنه، عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات. والسؤال المنطقي هنا هو: كيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل إلى هذا الحد. . .؟ هذا التساؤل يجعل النص بكل بساطة يبدو غير معقول.

أكثر من ذلك فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة. فالواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات 1800ـ 1850ق.م تقريباً، فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم، كما يوحي بذلك سفر التكوين في الأنساب، فإن الطوفان يقع في القرن 21 أو 22 ق.م وذلك هو العصر الذي كانت قد ظهرت من قبله في مواقع مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التي تلتها؛ وهذا ما أكدته المعارف التاريخية الحديثة.

على سبيل المثال فهذه الفترة، بالنسبة لمصر، هي التي تسبق الدولة الوسطى (2100 ق.م)، وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة، وفي بابل أسرة أور الثالثة، ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، وبالتالي لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة.

عليه فلا يمكن اعتبار أن روايات التوراة الثلاث تصف للإنسان أموراً تتفق مع الحقيقة، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فلا بد أن نقبل أن هذه النصوص التي وصلت إلينا لا تمثل الحقيقة؛ إذن هل أنزل الله شيئاً غير الحقيقة...؟ الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلِّم الناس بالاستعانة بأوهام بل بأوهام متناقضة، وطبيعي أن يثير ذلك افتراض وجود تحريف بواسطة البشر ـ إما في الأقوال المتوارثة التي انتقلت شفهياً من جيل لآخر أو في النصوص بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة. وعندما نعرف أن مُؤَلَّفاً مثل سفر التكوين قد عُدِّل على الأقل مرتين، وهذا على مدى ثلاثة قرون، فكيف نُدْهش حين نجد فيه :موراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بالحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة مع هذه المعرفة. أي شيء أكثر منطقية إذن من الاكتفاء بهذا التفسير لأخطاء نصوص التوراة، تلك التي لا تضع إلا الإنسان موضع النقاش...؟ وإنه لَمِن المؤسف ألا يأخذ بهذا التفسير عامة المعلقين مسيحيين كانوا أو يهوداً؛ ومع ذلك فالحجج التي يدفعون بها تستحق الالتفات.

مواقف الكتاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية في نصوص العهد القديم ودراستها النقدية

مما يثير الدهشة حقاً تنوع ردود الأفعال لدى المعلقين المسيحيين إزاء هذا الكم المتراكم من الأخطاء والمتناقضات والأمور غير المعقولة. بعضهم يقبل بعض الأخطاء ولا يتردد في مواجهة المسائل الشائكة فيما يكتب، والبعض الآخر يصرف النظر برشاقة عن دعواى غير مقبولة ويتقيد بالدفاع كلمة فكلمة عن النص ويحاول الإقناع عن طريق تصريحات مديحية مستعيناً في ذلك بحجج كثير. غير متوقعة في غالب الأحيان. متأملاً بذلك أن يضفي حجاباً من النسيان على ما يرفضه المنطق.

إن الأب ديفو، في مقدمة ترجمته لسفر التكوين، يقبل وجود هذه الانتقادات، بل يفيض حتى في البحث عن وجاهتها، ولكن إعادة بناء أحداث الماضي يعتبرها عديمة الأهمية في رأيه. ويقول في ملاحظاته إنه إذا كانت التوراة قد ذكرت «ذكريات سيل واحد مخرب ـ أو أكثر من واحد ـ وقع بوادي دجلة والفرات، وإنه إذا كان التراث قد ضخَّم أبعاد كارثة عالمية» فإن ذلك لا يهم. «إنما جوهر المسألة هو أن الكاتب الديني قد حمل هذه الذكرى بتعاليم أزلية عن عدل ورحمة الله وعن خبث الإنسان والخلاص الممنوح للعادل».

بهذا يبرر لتحول أسطورة شعبية إلى حدث إلهي المستوى ـ ليعرض بعد ذلك على إيمان البشر ـ ويتم هذا ابتداء من اللحظة التي يستخدم فيها كاتب ما الأسطورة باعتبارها تصويراً لدرس ديني. إن هذا الموقف المديحي يبرر كل تعسفات البشر فيما يختص بالأمور الإلهية، ويغطي تعديلات البشر لتأليف

نصوص التوراة. إن كل تعديل يصبح مشروعاً مبرراً طالما كان هناك هدف ديني. بهذا الشكل تُبرر تعديلات كُتّاب القرن السادس «الكهنوتيين» ذوي الاهتمامات التشريعية التي أدت إلى تلك الروايات الوهمية التي نعرفها.

لقد رأى عدد كبير من المعلقين المسيحيين أنه من اللباقة أن يشرحوا الأخطاء والأمور غير المعقولة وتناقضات روايات التوراة بتقديم الاعتذار الذي يقول إن كُتّاب التوراة كانوا معذورين في تقديم تصريحات ترتبط بعوامل اجتماعية لثقافة أو لعقلية مختلفتين، وذلك ما أدى إلى تعبير «الأنواع الأدبية» الخاصة. إن إدخال هذا التعبير في جدلية المعلقين الدقيقة يساعدهم على تغطية كل المصاعب. إن شرح أي تناقض بين نصين يكمن عندئذ في الفرق بين طريقة كل كاتب في التعبير وفي «طريقته الأدبية الخاصة» ولاشك أن الحجة ليست مقبولة لدى الكل، فهي تفتقد فعلاً الجدية، بالإضافة إلى أنها لم تقع بعد تماماً في غياهب النسيان في عصرنا. وسنرى بالنسبة للعهد الجديد كيف يحاول البعض بصورة تعسفية شرح متناقضات صارخة في الأناجيل.

وهناك طريقة أخرى في إقناع الناس بما يرفضه المنطق إذا ما طُبق على النص موضوع النزاع، وهي إحاطة النص المقصود باعتبارات مديحية؛ وبذلك ينحرف انتباه القارئ عن المشكلة الأساسية الخاصة بحقيقة الرواية ليتجه باتجاه أمور فرعية ليست بمهمة.

إن تأملات الكاردينال دانيلو Danielou عن الطوفان التي ظهرت بمجلة «الله الحي Dieu Vivant » تحت عنوان «الطوفان والتعميد، والحكم» تنتمي إلى هذه الطريقة في التعبير، يقول دانيلو: «رأي التقليد الكنسي الأقدم في لاهوتيه الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة». إنه «حدث ذو دلالة عظيمة» و«حكم يقع على الأمة البشرية برمتها». ويستشهد الكاردينال اورجين Origene الذي يذكر

في مواعظه عن حزقيال؛ غرق العالم برمته وإنقاذ السفينة له «وهو يذكر بعد ذلك قيمة الرقم 8» الذي يعبر عن عدد الأشخاص الذين أنقذتهم السفينة: (نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث)، وهو يأخذ على عاتقه ما كتب جوستين في كتابه «الحوار Dialogue»: «لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذي فيه ظهر مسيحنا مبعوثاً من بين الموتى». وكتب أيضاً: «أن نوحاً هو الوليد الأول لخلق جديد، إنه صورة للمسيح الذي حقق ما يمثله نوح» (كذا)، ويتابع المقارنة بين نوح من جانب، الذي أنقذه خشب السفينة، والماء الذي يجعلها تطفو، ومن جانب آخر ماء التعميد («ماء الطوفان الذي منه تولد بشرية جديدة») وخشب الصليب، وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على «الثراء الروحي لسر الطوفان» (كذا. . .؟).

هذه التقريبات المديحية تدعو إلى كلام كثير، وعلينا أن نذكر مرة أخرى أنها تعلق على حدث يستحيل الدفاع عن صحته على المستوى العالمي في العصر الذي تقع فيه التوراة؛ فمع تعليق كتعليق الكردينال دانيلو نعود وراءً إلى القرون الوسطى حيث كان النص يُقبل كما هو، وحيث لم يكن هناك مكان لأي بحث غير تقليدي.

ومع ذلك فإن ما يبعث على التشجيع أن نلاحظ أن الفترة السابقة على عصر الظلام المفروض شهدت مفكرين اتخذوا مواقف منطقية مثل القديس أوغسطين الذي ينحو في التفكير بطريقة تسبق عصره بشكل فريد.

ولا شك أن عصر آباء الكنيسة قد عرف مشاكل خاصة بنقد النصوص، حيث أن القديس أوغسطين يتحدث عن واحدة منها في خطابه رقم 82؛ والفقرة التالية هي أكثر فقرات هذا الخطاب تميزاً:

«إن مؤلفات الكتب المقدسة، هذه التي تعرف بالقانونية هي فقط التي تعلمتُ أن أُعطيها انتباهاً واحتراماً كاعتقادي الحازم بأنه ليس هناك أحد من كُتّابها قد أخطأ. فعندما ألتقي في هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة، فإنني عندئذ لا أشك في أن نص (نسختي) لا يحتوي على خطأ، أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلي بشكل صحيح، أو أن مقدرتي على الفهم تتسم بالضعف».

لم يكن معقولاً إذن بالنسبة للقديس أوغسطين أن نصاً مقدساً قد يحتوي على خطأ. كان القديس أوغسطين يعرف بمنتهى الوضوح عقيدة «العصمة من الخطأ Inerrance» فأمام فقرة تبدو مناقضة للحقيقة كان يواجه البحث عن علة ولا يستبعد فرض رجوع هذا الخطأ إلى سبب إنساني؛ وهذا موقف مؤمن يتمتع بحاسة نقدية، مع ملاحظة انه عصر القديس أوغسطين لم تكن هناك إمكانيات لمقابلة نص التوراة بالعلم. إن رؤية رحبة مماثلة لرؤيته تسمح ـ ولا شك ـ بتذليل كثير من المصاعب التي تُثار اليوم عند مقابلة بعض نصوص التوراة بالمعارف العلمية.

وعلى العكس من ذلك يجتهد المتخصصون في عصرنا في الدفاع عن نص التوراة أمام أي اتهام بالخطأ. ويعطينا الأب ديفو في مقدمته لسفر التكوين الأسباب التي تدعو إلى هذا الدفاع عن النص بأي ثمن حتى وإن كان واضحاً أنه غير مقبول تاريخياً أو علمياً؛ إنه يطلب إلينا ألا ننظر إلى التاريخ في التوراة «حسب قواعد النوع التاريخي الذي يمارسه المحدثون». وكأن هناك أكثر من طريقة في كتابة «التاريخ». إن التاريخ عندما يحكى بشكل غير صحيح يصبح رواية تاريخية وهذا ما يقبله الكل، لكن التاريخ هنا لا يخضع للقواعد المتعارف عليها والتي تنبع من مفاهيمنا. إن المعلق على التوراة يرفض أي فحص قد تقوم به علوم الجيولوجيا والإحاثة والمعطيات الخاصة بما قبل

التاريخ على روايات التوراة. «إن التوراة»، كما يقول الأب ديفو: «لا تنتمي إلى أي من هذه الدراسات العلمية، وإذا أردنا أن نقابلها بمعطيات هذه العلوم، فإننا لن ننتهي إلا إلى تعارض غير حقيقي أو إلى توافق مصطنع»[1]. ويجب أن نلاحظ أن هذه التأملات قد دفع بها المؤلف إزاء ما لا يتفق مطلقاً مع المعطيات العلمية في سفر التكوين وخاصة الأحد عشر إصحاحاً الأولى منه، ولكن، إذا كانت هناك بعض الروايات قد أمكن التحقق منها اليوم، وعلى وجه خاص بعض الأحداث التي وقعت في عصر الآباء الأولين، فإن الكاتب لا يفتقد إلى الاستشهاد بالمعارف الحديثة لمساندة الحقيقة في التوراة. يقول الأب ديفو[2]. إن الشكوك التي غيّمت على هذه الروايات يجب أن تُخلي المكان أمام الشهادة المؤيدة التي يأتي بها التاريخ أو علم الآثار الشرقيين». ولو دققنا في قول الإب ديفو لتبين لنا ما يقصده: إذا كان العلم مفيداً في توكيد رواية التوراة فلا بأس، أما إذا دحضها فإن الرجوع إليه غير مقبول.

وللتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق، أي للتوفيق بين نظرية الحقيقة في التوراة والطابع غير الصحيح لبعض الوقائع الواردة في روايات العهد القديم، اجتهد علماء اللاهوت المعاصرون في مراجعة المفاهيم الكلاسيكية للحقيقة. ولكننا في هذا الكتاب نقدم عرضاً تفصيلياً للاعتبارات الدقيقة التي تفيض في دراستها مؤلفات تعالج الحقيقة في التوراة، كدراسة أ.لورتنز O.Loretz (1972) وعنوانها «ما هي حقيقة التوراة»[3]، وعلينا أن نكتفي بالإشارة إلى هذا الحكم الخاص بالعلم:

---

(1) مدخل إلى سفر التكوين ص٣٥.

(2) نفس المصدر ص٣٤.

(3) Editions du Centurion.

ويُلاحظ المؤلف أن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني «قد حذر من إعطاء قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة في التوراة. وهناك اعتبارات أساسية تشير إلى الاستحالة هذه، حيث إن الكنيسة لا تستطيع أن تتخذ قراراً بصحة أو زيف المناهج العلمية بحيث تستطيع أن تحل مبدئياً وبشكل عام مشكلة حقيقة الكتاب المقدس».

وواضح أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر حكماً عن قيمة «منهج» علمي ما كأداة للوصول إلى المعرفة. والمقصود هنا الجدال في النظريات وإنما مناقشة أمور ثابتة فعلاً. أيحتاج المرء في عصرنا لأن يكون حِبْراً عظيماً ليعرف أن العالم لم يُخلق، وأن الإنسان لم يظهر على الأرض منذ 37 أو 38 قرناً، وأن هذا التقرير المستنبط من الأنساب في التوراة يمكن التأكيد بخطأه من دون تردد. . . ؟ إن الكاتب المذكور هنا لا يستطيع تجاهل هذا. إن دعاواه عن العلم لا تهدف إلا إلى تحريف المشكلة حتى لا يعالجها كما كان يجب عليه أن يفعل.

إن التذكير بكل هذه المواقف التي اتخذها الكُتاب المسيحيون أمام الأخطاء العلمية في نصوص التوراة توضح جيداً النظرة الضيقة التي تقف وراءه وتوضح استحالة تعريف موقف منطقي آخر غير ذلك الذي يعترف بالأصل الإنساني لهذه الأخطاء وباستحالة قبولها كجزء من تنزيل إلهي.

إن هذا الضيق الذي يسود الأوساط المسيحية والذي يمس التنزيل قد ظهر جلياً في ترجمة له في المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (1962–1965)، حيث لم يلزم أقل من خمس صيغ حتى يتفق الجميع على النص النهائي بعد ثلاث سنوات من المناقشات وحتى «ينتهي هذا الوضع الأليم الذي هدد بتوريط المجمع» على حد تعبير الأسقف فيبر Weber في مقدمته للوثيقة المسكونية الرابعة عن التنزيل.

وهناك جملتان من هذه الوثيقة الخاصة بالعهد القديم (الفصل الرابع، ص53) تشيران إلى شوائب وبطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة، حيث تقول: «بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي».

ليس هناك إذن أحسن من كلمتي «الشوائب» «والبطلان» اللتين تنطبقان على بعض النصوص لكي تُهجر؛ ومبدأ كهذا مقبول بشكل واضح.

إن هذا النص جزء من تصريح شامل صُوِّتَ عليه نهائياً بأغلبية ٢٣٤٤ صوتاً ضد ٦ أصوات، ولا يبدو أن هذا التصريح قد اكتسب هذه الأغلبية الساحقة الصورية؛ فالواقع أننا نجد في تعليقات الوثيقة الرسمية التي وقعها الأسقف فيبر جملة تصحح بشكل واضح الدعوى ببطلان بعض النصوص التي يحتوي عليها الإعلان الرسمي للمجمع، تقول: «لاشك أن بعض أسفار التوراة اليهودية تحتوي على مرمى وقتي وبها شيء غير كامل».

إن «البطلان»، وذلك هو تعبير الإعلان الرسمي، لا يرادف «المرمى الوقتي» وهو تعبير المعلق؛ وعندما يضيف المعلق بشكل غريب صفة «اليهودية» فإنه يوحي بأن النص المسكوني قد استطاع أن ينتقد فقط النسخة العبرية، على حين أن الأمر ليس هكذا مطلقاً وأن العهد القديم هو الذي كان ـ في هذا المجمع ـ موضوع الحكم الخاص بشوائب وببطلان بعض أجزاء منه.

خاتمة

يجب النظر إلى كتب التوراة نظرة فاحصة، بأن ندرس موضوعياً ما هي عليه، وذلك لا يتضمن فقط معرفة بالنصوص بل يتضمن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص. إن معرفة تاريخ النصوص تسمح، في الواقع، بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون وإلى التكوّن البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء محذوفة وأخرى مضافة.

إن هذه المعلومات تجعل من، وجود روايات مختلفة عن موضوع واحد وأخطاء تاريخية وأموراً متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة في العهد القديم أمراً معقولاً. إن استحالة الاتفاق مع المعطيات العلمية أمر طبيعي تماماً في كل المؤلفات الإنسانية القديمة، وكيف لا نجد مثل هذه التعارضات في كتب كتبت في ظروف كتلك التي تكوّن فيها نص التوراة. . . ؟

إن رجلاً يتمتع بإدراك سليم مثل القديس أوغسطين قد استطاع ـ حتى قبل أن تثير مسائل المشكلات العلمية نفسها في عصر لم يكن ممكناً الحكم فيه على أمور غير معقولة أو متناقضة ـ استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوى المناقضة للحقيقة إلهياً؛ فالقديس أوغسطين كان يعتبر أن الله لا يمكن أن يعلّم البشر بما لا يتفق والحقيقة.

وكان، استناداً إلى هذه الدوافع، على استعداد لأن يستبعد من أي نص مقدس ما كان يمكن أن يبدو له واجب الحذف.

وفيما بعد ـ وبالتحديد في عصر أدرك فيه المفكرون استحالة اتفاق بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة ـ فإنهم يرفضون اتباع موقف القديس أوغسطين؛ عندئذ شهدنا مولد الأدب الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ، برغم أنف كل شيء، بنصوص لم يعد لها مكان في التوراة.

إن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (1962ـ 1965) قد خفف بشدة من هذا التصلب وذلك بإدخال تحفظ على «أسفار العهد القديم» التي «تحتوي على الشوائب وشيء من البطلان». تُرى هل يبقى هذا التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة أم سيتبعه تغير في الموقف إزاء ما لم يعد القرن العشرون يقبله في نصوص كانت تهدف أن تكون «شهادات عن تعليم إلهي حقيقي» وذلك خارج أي تعديل بشري.

الأناجيـــل

مدخل

كثيرون ممن يقرأ الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة عندما يتأملون في معنى بعض الروايات، أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروي في كثير من الأناجيل. تلك هي الملاحظة التي يقدمها الأب روجي R.P.Roguet في كتابة. «مقدمة إلى الإنجيل»[1] Initiation al'Evangile. إن التجربة الثرية التي اكتسبها هذا الكاتب، حيث إنه كان لسنوات طويلة مُكلفاً بالرد في جريدة أسبوعية كاثوليكية على قُراء الأناجيل الذين تُحيرّهم النصوص، مكّنته أن يدرك عن قرب مدى الاضطراب الذي يشعر به قراء الأناجيل. ويُلاحظ أن طلبات الشرح التي يبعث بها محدثوه، الذين ينتمون إلى أوساط إجتماعية وثقافية شديدة التنوع، تَـنْصَبّ على نصوص يراها القراء «مبهمة غير مفهومة بل حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة». إذن ليس هناك شك في أن قراءة النصوص الكاملة للأناجيل قادرة على إثارة اضطراب عميق لدى المسيحيين.

وهذه ملاحظة قريبة العهد، فقد نُشر كتاب الأب روجي عام 1973م. وفي عصور ليست بعيدة تماماً كانت أغلبية المسيحيين لا تعرف من الأناجيل إلا مقاطع مختارة تُقرأ عند القُداس أو المواعظ. وإذا وضعنا حالة البروتستانت جانباً فإنه لم تكن قراءة الأناجيل بصورة عامة أمراً سائداً فيما عدا بعض المناسبات. حيث أن كُتب التعليم الديني لم تكن تحتوي إلا على مقاطع

---

(1) Editions du Seuil 1973.

مختارة من الأناجيل، ولم يكن هناك تداول للنص بأكمله. وفي أثناء دراستي الثانوية بإحدى المدارس الكاثوليكية وقعت يدي على مؤلفات لفرجيل وأفلاطون، ولكن لم يحدث أبداً أن وقعت يدي على العهد الجديد؛ ومع ذلك فالنص اليوناني للعهد الجديد كان يمكن أن يكون مفيداً. وبعد ذلك بفترة طويلة أدركت لِمَ لم يعطنا مدرسونا واجبات ترجمة من الكتب المقدسة المسيحية؛ فقد كان يمكن أن تقودنا هذه الكتب إلى أن نطرح على أساتذتنا أسئلة يتحرجون من الرد عليها.

هذه الاكتشافات التي ينتهي إليها امرؤ يقرأ الأناجيل بأكملها قراءة نقدية قد قادت الكنيسة إلى التدخل لمساعدة القُراء للتغلب على حيرتهم؛ وعلى حد قول الإب روجي فإن «كثير من المسيحيين يحتاجون إلى تعلُّم قراءة الأناجيل». وسواء اختلف المرء أو اتفق مع التفاسير التي تُعطى فإن جدارة الكاتب كبيرة حقاً في مواجهة المشاكل الحرجة. ولكن مما يؤسف له أن الأمر ليس كذلك دائماً فيما يختص بكثير من الكتابات الخاصة بالتنزيل المسيحي.

ففي منشورات التوراة المخصصة للتداول الواسع نجد أن الملاحظات الأولية تعرض في غالب الأحيان مجموعة من الاعتبارات لإقناع القارئ بأن الأناجيل لا تطرح بتاتاً مشاكل تتعلق بشخصية كُتّاب مختلف الأسفار وبصحة النصوص وبالطابع الحقيقي لهذه الروايات. وعلى حين يوجد كثير من الكتّاب المجاهيل لم نتأكد من هويتهم؛ فإننا نجد كثيراً من التحديدات في هذا النوع من الملاحظات كثيراً ما تقدم ما ليس إلا مجرد فرض على أنه أمر يقيني، مؤكدة أن هذا المُبشر أو ذاك كان شاهداً عياناً لأحداث محددة، على حين تَدّعي دراسات متخصصة عكس ذلك. إن المسؤولين يقللون بشكل مبالغ فيه الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية رسالة المسيح وبين ظهور النصوص، وهم

بذلك يريدون إيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمدت على تراث شفهي على حين أثبت المتخصصون أن هذه النصوص قد جرت عليها تعديلات كثيرة، ويتحدثون هنا وهناك عن بعض مصاعب التفسير ولكنهم يغضون النظر عن المتناقضات البينة التي تبرز بوضوح أمام كلٍ من يتأمل. يلاحظ القارئ في المعاجم الصغيرة الملحقة بالمقدمات المطمئنة أن الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخة كثيراً ما تُبرر بحجج مديحية بارعة. وإنه لمما يروع القارئ هو اكتشافه الطابع الخداع لهذه التعليقات.

إن الاعتبارات المدروسة هنا ستُدهش ـ ولا شك ـ القُراء الذين لم يحيطوا علماً بعد بهذه المشكلات؛ ولذا وقبل أن ندخل في صميم الموضوع، آمل أن أوضح غرضي من الآن وذلك بمثال يبدو لي أنه يبرهن تماماً على ما نقول.

لا متي ولا يوحنا يتحدثان عن صعود المسيح، أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة في إنجيله وبعد أربعين يوماً في «أعمال الرسل» التي يقال إنه كاتبها. أما فيما يخص مرقس فإنه يشير إليه (دون تحديد تاريخه)، وذلك في خاتمة تعتبر حالياً غير صحيحة؛ وعلى ذلك فإن تحديد تاريخ صعود المسيح غير موثق بصورة أكيدة كتابية متينة، برغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة الهامة باستخفاف لا يصدق.

إن أ. تريكو A.Tricot لا يكرس أي مقال عن الصعود في «المعاجم الصغيرة للعهد الجديد» من الكتاب المقدس طبعة كرامبون Crampon، بالرغم من كونه كتاباً الانتشار[1] أما طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopse des Quatres Evanglies التي قام بها الأبوان بينوا وبوامار الأستاذان بمدرسة

---

(1) Descle'e et Cie 1960.

الكتاب المقدس بالقدس[1]، فإنها تُعْلِمُنا في الجزء الثاني منها (ص 451 و452) أن التناقص، عند لوقا، بين إنجيله و«أعمال الرسل» يرجع إلى حيلة «أدبية». وليفهم من يفهم. . !

أما الأب روجي فإنه، على ما يبدو، لم يخضع لإغراء مثل هذه الحجة؛ ومع ذلك فأقل ما يمكن أن يقال عن التعليل الذي يعطينا إياه هو أنه فريد: يقول الأب روجي في كتابه «مقدمة إلى الإنجيل»، طبعة 1973م (ص 187): «إن المشكلة هنا، كما في كثير من المشاكل المشابهة، لا تبدو غير قابلة للحل إلا إذا أخذ المرء بحرفية دعاوى الكتاب المقدس ونسى دلالتها الدينية. ليس المقصود هو حل واقع الأمور برمزية مائعة، وإنما المقصود هو البحث عن النية الدينية لدى هؤلاء الذين يكشفون لنا الأسرار بتقديم أمور محسوسة وعلامات خاصة بالجذور المادية لعقلنا».

كيف نكتفي بمثل هذا التفسير. . .؟ إن الصيغ المديحية من هذا النوع لا يمكن أن تصلح إلا للمؤمنين بلا قيد ولا شرط.

إن أهمية عبارة الأب روجي تكمن أيضاً في اعترافه بوجود «حالات كثيرة مشابهة» لمسألة الصعود في الأناجيل؛ وعليه يجب التعرض للمشكلة بشكل شامل ومن جذورها وبمنتهى الموضوعية.

يبدو أن من الحكمة إذن البحث عن توضيحات في دراسة الظروف التي كُتبت الأناجيل في ظلها، وفي دراسة المناخ الديني الذي كان سائداً في ذلك العصر. إن توضيح التعديلات التي وقعت على الصيغ الأولى التي تمت

---

(1) Editions du Cerf, 1972.

بالاعتماد على التراث الشفهي، وتوضيح التحريفات التي حدثت للنصوص إلى أن وصلت إلينا، كل ذلك من شأنه أن يخفف من الشعور بالدهشة أمام عبارات مبهمة غير مفهومة ومتناقضة لا يدركها العقل، بل قد تذهب في بعض الأحيان إلى حد العبث واستحالة أن تتفق مع الوقائع التي أثبتها اليوم التقدم العليمي. مثل هذه الملاحظات تدل على مساهمة الإنسان في عملية تحرير النصوص وعلى التعديل الذي أصابها بعد ذلك.

والأمر الواقع الآن هو أنه منذ عشرات من السنوات حدث اهتمام بدراسة الكتب المقدسة بروح البحث الموضوعي. وفي كتاب ظهر منذ عهد قريب، بعنوان «الإيمان بالقيامة وبعث الإيمان[1] Foi en la Resurrection, Resurrection de la Foi يعطي الأب كانيجسر R.P. Kannengiesser الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس، لمحة عن هذا التغير العميق. يقول: «يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التي حدثت في مناهج تفسير التوراة منذ عصر بي الثاني عشر Pie XII 1939ـ 1958». إن «الثورة» التي يتحدث عنها المؤلف قريبة من عهدنا إذن، وقد بدأت امتداداتها تصل إلى تعليم المؤمنين، ويقوم بهذا على الأقل بعض المتخصصين الذين يحركهم روح التجديد. ويقول المؤلف أيضاً: «إن هذه الثورة في مناهج التفسير تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لانقلاب في أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسيين».

ويحذر الأب كانينجسر من أنه «لم يعد واجباً الأخذ بحرفية» الأحداث الواردة عن المسيح في الأناجيل فهي «كتابات ظرفية أو خصامية»... «يذكر» كُتّابُها «أقوال جماعة كل منهم عن المسيح». وفيما يختص بقيامة المسيح،

---

(1) Beauchesne, Collection "Le Point Theologique", 1974.

وذلك هو موضوع كتابه، يشير الأب كانينجسر إلى استحالة أن يعطي أي كاتب من كُتاب الأناجيل لنفس صفة الشاهد العيان. وهو بذلك يدع حياة المسيح العامة لفهم القارئ الضمني، حيث ليس هناك أي حَواري - باستثناء يهوذا الأسخريوطي - قد انفصل عن السيد منذ اللحظة التي تبعه فيها حتى آخر أعماله على هذه الأرض.

ها نحن أولاء إذن بعيدون تماماً عن المواقف التقليدية التي كان يؤكدها بالتبجيل مجمع الفاتيكان الثاني منذ عشر سنوات بالكاد والتي تستأنفها الكتب الحديثة الموجهة لعامة المؤمنين. ولكن الحقيقة تخرج إلى النور شيئاً فشيئاً.

ليس من السهل إدراك هذه الحقية تحت ثقل وزن التقاليد الموروثة التي دوفع عنها بشراسة، وإذا أردنا أن نتحرر من هذا الثقل فيجب الأخذ بالمشكلة من القاعدة أي أن تدرس أولاً الظروف التي سادت ظهور الديانة المسيحية.

تذكرة تاريخية
اليهودية ـ المسيحية وبولس

تعتقد فئة كبيرة من المسيحيين أن كُتّاب الأناجيل شهود عيان على حياة المسيح وأنهم بهذا قد أقاموا شهادات لا تقبل الجدال عن الأحداث التي وقعت في حياته وتبشيره. فكيف يمكن للمؤمن، عندما يواجه مثل ضمانات الصحة هذه، أن يناقش المعلومات التي يقرأها في الإناجيل؟ كيف يمكن للمؤمن أن يشك في قيمة المؤسسة الكنسية التي نشأت بفضل تطبيق التوجيهات العامة التي أعطاها المسيح. إن طبعات الأناجيل الحالية الموجهة للعامة تحتوي على تعليقات تهدف إلى نشر وترسيخ هذه المعلومات بين عامة المسيحيين.

فالمسؤولون عن هذه الطبعات يعتبرون حقيقة أن كُتّاب الأناجيل هم شهود عيان أمراً بديهياً. ألم يكن القديس جوستين، في منتصف القرن الثاني، يطلق على الأناجيل اسم «مذكرات الرسل»..؟ ثم إن التحديدات التي تعلن على الملأ والتي تخص المحررين هي من الكثرة بحيث إن المسيحي يتساءل كيف يمكن الشك في صحتها؟ على سبيل المثال يقال إن متي كان شخصية معروفة، «كان موظفاً بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم»، بل يقال أيضاً إنه كان يعرف الآرامية واليونانية، وأما مرقس فهو يتهم عروفة تماماً باعتباره مساعد بطرس: فلاشك إذن أنه كان شاهد العيان، وأما لوقا فهو هذا «الطبيب العزيز» الذي يتحدث بولس عنه، والمعلومات عنه دقيقة جداً. وأما يوحنا فهو الرسول القريب دائماً من المسيح وهو ابن زبيد، الصياد ببحيرة كثروت.

إن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية تُظهر أن هذه الطريقة في تقديم الأمور لا تتفق مطلقاً مع الواقع، وسنرى فيما بعد كيف ينطبق ذلك على كتّاب الأناجيل. أما فيما يتعلق بعشرات السنوات التي تلت رسالة المسيح فيجب على القارئ معرفة أن الأحداث لم تقع مطلقاً كما قيلت وأن وصول بطرس إلى روما لم يؤسس مطلقاً الكنيسة، بل على العكس فبين اللحظة التي غادر فيها المسيح هذه الأرض وحتى منتصف القرن الثاني، أي طيلة أكثر من قرن، كانت هناك معركة بين اتجاهين: بين ما يمكن تسميته بالمسيحية البولسية وبين اليهودية ـ المسيحية. ولم يحل الاتجاه الأول محل الثاني ولم تنتصر البولسية على اليهودية ـ المسيحية إلا بصورة تدريجية بطيئة على مر السنين.

وهناك عدد كبير من الدراسات التي تعود إلى العقود الأخيرة، قد تأسست على مكتشفات عصرنا وهي التي سمحت بالوصول إلى هذه المعلومات الحديثة بها اسم الكاردينال دانيلوي. إن المقال الذي نشره في ديسمبر 1967 بمجلة «دراسات Etudes» هو «رؤية جديدة للأصول المسيحية واليهودية ـ المسيحية» تستأنف الأبحاث السابقة؛ إنه يضع خطوط تاريخ المسيحية ويسمح لنا بتحديد ظهور الأناجيل وذلك في سياق يختلف تماماً عن ذلك الذي تقول به المعلومات الموجهة لعامة الجمهور. وسيجد القارئ فيما يلي تلخيصاً للنقاط الجوهرية لهذا المقال مع فقرات كبيرة منه.

كوّنت «مجموعة الحواريين الصغيرة بعد المسيح» طائفة يهودية تمارس ديانة المعبد وتحفظ تعاليمها. ومع ذلك فعندما تنضم إليها طائفة الذين آمنوا من الوثنيين فإنها تقترح عليهم، إن جاز القول، نظام خاص؛ إذ يحلهم مجمع القدس المسكوني (49م) من الطهارة ومن تطبيق الأركان اليهودية، ورفض كثير من اليهود ـ المسيحيين هذا التنازل. وانفصلت هذه المجموعة تماماً عن

بولس. بل أكثر من ذلك فقد اصطدم بولس واليهود ـ المسيحيون بسبب الذين أتوا إلى المسيحية (أحدث أنطاكية عام 49م) «فالطهارة ومراعاة الراحة يوم السبت وديانة المعبد كانت أموراً بالية، في نظر بولس، حتى بالنسبة لليهود أنفسهم. فيجب على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسي والديني إلى اليهودية حتى تفتح ذراعيها لغير اليهود».

أما اليهود ـ المسيحيون الذين ظلوا «يهوداً مخلصين» فإنهم يعتبرون بولس كخائن: وتصفه وثائق يهودية ـ مسيحية «بالعدو» وتتهمه بتواطؤ تكتيكي». ولكن «اليهودية ـ المسيحية كانت تمثل حتى عام 70م غالبية الكنيسة» و«كان بولس منعزلاً» في ذلك الوقت. وكان رئيس الجماعة جاك Jacques قريب المسيح، وكان معه (في البداية) بطرس ثم يوحنا. «ويمكن اعتبار جاك Jacques كعمود اليهودية المسيحية الذي ظل، عن إرادة، ملتزماً بخط اليهودية أمام المسيحية البولسية». إن أسرة المسيح تحتل مكانة كبيرة في هذه الكنيسة اليهودية المسيحية بالقدس. «وقد خلف سيميون Simeon جاكاً Jacques وهو ابن كاليوبا ابن عم (؟) للمسيح».

ويذكر الكاردينال دانيلو في مقاله الكتابات اليهودية ـ المسيحية التي تقدم نظرات هذه الجماعة عن المسيح، تلك الجماعة التي تكونت أولاً حول الحواريين. وهذه الكتابات هي إنجيل العبريين (الذي يعود إلى جماعة يهودية مسيحية مصرية) «ومأثورات كليمنت "Clement de Hypotyposes"» و«الفضائل الكليمنتية "Clementines Reconnaissances"» و«نهاية العالم الثانية لجاك "Secinda Apocalypse de Jacques" وإنجيل توما[1] "Evangile de Thomas"،

---

(1) مما يجدر ملاحظته أن هذه الكتابات سيُحكم عليها بأنها مزورة، أي مستوجبة =

وكما يبدو فإنه من الواجب أن نعزو إلى هؤلاء اليهود ـ المسيحيين أقدم مخطوطات الأدب المسيحي» التي يشير إليها الكاردينال دانيلو بالتفصيل. يقول:

«لم تكن اليهودية ـ المسيحية سائدة فقط بالقدس وفلسطين طيلة القرن الأول للكنيسة. فقد تطورت البعثة اليهودية ـ المسيحية، فيما يبدو، في كل مكان قبل البعثة البولسية. وذلك هو ما يوضح الإشارة الدائمة في رسائل بولس إلى صراع ما». إنهم نفس الأعداء الذين قابلهم حيثما ذهب، بغلاطية، وكورنثة وكولوس وروما وأنطاكية.

كان الساحل السوري ـ الفلسطيني، من غزة إلى أنطاكية، يهودياً مسيحياً «كما تشهد بذلك أعمال الرسل والكتابات الكليمنتية». وفي آسيا الصغرى فوجود اليهود ـ المسيحيين، تشهد به رسائل بولس إلى الغلاطيين والكولوسيين. أما كتابات بانياس فهي تعطي معلومات عن اليهودية المسيحية بفريجي. وفيما يخص اليونان فتذكر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس اليهود المسيحيين وبابوللوس على وجه خاص. وتعد روما «مركزاً هاماً» حسب رسالة كليمنت وراعي هرمياس. ويرى سويتون Sue`tone وتاسيت Tacite أن المسيحيين يشكلون طائفة يهودية. ويعتقد الكاردينال دانيلو أن أول تبشير بالأناجيل في أفريقيا كان يهودياً ـ مسيحياً. وإلى اليهودية المسيحية يعزى أيضاً إنجيل العبريين وكتابات كليمنت الإسكندري.

إن معرفة هذه الوقائع أمر مهم لكي نفهم في أي جو من الصراع بين

= apocryphes للإخفاء، وقد فعلت هذا الكنيسة المنتصرة التي ولدت بانتصار بولس. وقد قامت بعمليات قطع في الأدب الإنجيلي ولم تحتفظ إلا بالأناجيل الأربعة القانونية.

الجماعات حُررت الأناجيل. إن خروج النصوص التي نملكها اليوم إلى النور قد بدأ في عام 70م، بعد تعديلات في المصادر، وهي الفترة التي كانت الجماعتان المتنافستان في أوج صراعهما، وكانت السيادة في ذلك الوضع لليهود المسيحيين، ولكن الموقف انقلب تماماً بسبب حرب السبعين وسقوط القدس. ويشرح الكاردينال دانيلو أساب الانهيار كما يلي:

«لما كان اليهود منبوذين في الإمبراطورية فقد نحا المسيحيون إلى الانفصال عنهم عندئذ ساد المسيحيون الهللينستكيون؛ لقد حاز بولس على النصر بعد وفاته. بهذا انفصلت المسيحية اجتماعياً وسياسياً عن اليهودية لتكوّن ما يعرف بالشعب الثالث، وبرغم ذلك، وحتى آخر التمرد اليهودي عام 140م كانت اليهودية المسيحية سائدة ثقافياً».

ومنذ عام 70م وحتى فترة تحدد بما قبل عام 110م نتجت أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا. ولا تشكل هذه الأناجيل أولى الوثائق الثابتة في المسيحية؛ فرسائل بولس كانت قد سبقتها. وفي رأي أ. كولمان O.Culmann أن بولس قد كتب عام 50م رسالته إلى أهل تسالونيكي، ولكن لا شك أنه كان قد مات منذ عدة سنوات عندما انتهى إنجيل مرقس.

وإذا كان بولس أكثر الشخصيات المسيحية المعروفة موضعاً للنقاش؛ وإذا كان قد اعتُبِر خائناً لفكر المسيح، كما وصفته بذلك أسرة المسيح والحواريون الذين بقوا بالقدس حول جاك Jacques؛ فذلك لأنه قد كوّن المسيحية على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح من حوله لنشر تعاليمه. ولما لم يكن قد عرف المسيح في حياته فقد بَـرَّرَ لشرعية رسالته بأن أكد أن المسيح بعد قيامته قد ظهر له على طريق دمشق. ومن المسموح به أن نتساءل: ما كان يمكن للمسيحية أن تكون عليه دون بولس، ونستطيع في هذا المقام أن

نقيم افتراضات كبيرة. ولكن، فيما يخص الأناجيل، فليس هناك مجازفة كبيرة في القول بأنه لولا جو الصراع بين الطوائف التي ولدت بسبب انشقاق بولس، لما حصلنا على الكتابات التي في حوزتنا اليوم. إن هذه «الكتابات الخصامية»، كما يصفها الأب كانينجسر، قد ظهرت في فترة صراع حاد بين الطائفتين، وانبعث من حشدٍ من الكتابات عن المسيح. ففي هذا العصر شكلت المسيحية البولسية بعد نصرها النهائي مجموعة نصوصها الرسمية، أي: «القانون» الذي يستبعد كل الوثائق الأخرى التي لم تكن توافق الخط الذي اختارته الكنيسة ويعدها معاكسة للأورثوذكسية.

وبرغم أن اليهود ـ المسيحيين «قد اختفوا كطائفة ذات نفوذ فقد ظل الحديث عنهم جارياً ولكن تحت اسم «المستهودين» Judaisants. ويتحدث الكاردينال دانيلو عن نهايتهم كما يلي:

«بانقطاع اليهود ـ المسيحيين عن الكنيسة الكبرى التي تحررت تدريجياً من روابطها اليهودية سرعان ما فنوا في الغرب، ولكن يمكن اقتفاء آثارهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع بالشرق وخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وما وراء الأردن وسوريا وما بين النهرين. وقد امتص الإسلام بعضهم، وهو جزئياً وريث لهم، وتحالف البعض الآخر مع أورثوذكسية الكنيسة الكبرى مع الاحتفاظ بخلفية ثقافية سامية، وهناك القليل منهم ما زال متشبثاً بالكنيستين الأثيوبية والكلدانية».

الأناجيل الأربعة
أصـولها التـاريخيـة

لم تُشِرْ أولى كتابات العصر المسيحي القديمة إلى الأناجيل إلا بعد نشر مؤلفات بولس بفترة طويلة جداً. فالشهادات المتعلقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية تظهر فقط في منتصف القرن الثاني وبالتحديد بعد عام 140م، على حين أن هناك «كثيراً من الكُتاب المسيحيين يبينون بوضوح منذ بداية القرن الثاني بأنهم يعرفون عدداً كبيراً من رسائل بولس». وهذه الملاحظات التي تعرضها «المقدمة إلى الترجمة المسكونية للعهد الجديد»، المنشورة عام 1972[1] تستحق أن تذكر على الفور، كما يفيد التنوية إلى أن هذه الترجمة هي نتيجة عمل جماعي تضافر له أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت.

إن الأناجيل التي أصبحت رسمية فيما بعد، أي كنسية، لم تُعرف إلا في عصر متأخر برغم أن تحريرها كان قد تم في بداية القرن الثاني. وحسب الترجمة المسكونية، فقد بدأ ذكر الروايات التي تنتمي إلى هذه الأناجيل في نحو منتصف القرن الثاني، ولكن «يكاد يكون عسيراً التقرير بما إذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت بعد الرجوع إلى النصوص المكتوبة التي كانت تحت يد الكّتاب أو أنهم قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهي اعتماداً على الذاكرة».

---

(1) Editions du Cerf et les Bergers et les Mages,Editeur, Paris.

وفي التعليقات لهذه الترجمة المسكونية للعهد الجديد يقرأ القارئ «أنه لا توجد، على أي حال، أي شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية قبل عام 140م». وهذه الدعوى تناقض تماماً ما كتبه أ. تريكو A.Tricot في التعليقات على ترجمته للعهد الجديد يقول: ومنذ وقت مبكر جداً، منذ بداية القرن الثاني، استقر العرف على استخدام الكلمة «إنجيل» للإشارة إلى الكتب التي كان القديس وجوستين، في نحو عام 150، يسميها أيضاً «مذكرات الرسل Memoires des Apotres»، ومما يؤسف له أن مثل هذه المزاعم تكرر كثيراً بحيث إن عامة الجمهور لا تعرف إلا معلومات خاطئة عن التاريخ الذي تم فيه جمع الأناجيل.

إن الأناجيل لم تصبح كُلاً واحداً إلا بعد أكثر من قرن من انتهاء بعثة المسيح ولم يتم هذا وفي وقت مبكر جداً كما يقال، والترجمة المسكونية تُرجع التاريخ الذي اكتسبت فيه الأناجيل الأربعة صفة الأدب الكنسي إلى عام 170م تقريباً.

وكذلك فإن دعوى جوستين التي تصف كُتاب الأناجيل بالرسل لم تعد مقبولة اليوم، كما سنرى ذلك.

أما فيما يتعلق بتاريخ تحرير الأناجيل فيؤكد أ. تريكو أن أناجيل متي ومرقس ولوقا قد حُرّرت قبل عام 70م، وليس هذا مقبولاً، ربما باستثناء إنجيل مرقس. إذن فهذا المعلق يحاول، بعد معلقين آخرين، أن يقدم مُحرري الأناجيل على أنهم رُسل أو رفاق للمسيح، وهو بهذا يقدم تواريخ التحرير إلى فترة تقارب كثيراً فترة حياة المسيح. أما فيما يتعلق بيوحنا، الذي جعله أ. تريكو يعيش إلى ما يقرب عام 100م، فقد اعتاد المسيحيون صورته التي تصوره دائماً على أنه قريب جداً من المسيح في ظروف رسمية، ولكن من

العسير حقاً التأكيد بأنه كاتب الإنجيل الذي يحمل اسمه. إن الرسول يوحنا (مثل متي)، في نظر أ. تريكو ومعلقين آخرين، هو الشاهد الكفوء المعترف به على الأمور التي سردها، في حين لا تتمسك غالبية المعلقين بالفرض القائل بأنه هو الذي حرر الإنجيل الرابع.

وإذا كان من العسير اعتبار هذه الأناجيل الأربعة «كمذكرات» لرسل أو رفاق المسيح، فما هو أصلها إذن؟

يقول أ. كولمان O.Culmann في كتابه «العهد الجديد»[1]: «إن المبشرين لم يكونوا إلا متحدثين باسم الجماعة المسيحية الأولى التي تثبت التراث الشفهي، فقد بقي الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة في شكله الشفهي فقط أو بالكاد، ولكن التراث الشفهي قد نقل أساساً أقوالاً وروايات منعزلة. وقد نسج المبشرون ـ كل على طريقته وبحسب شخصيته الخاصة واهتماماته اللاهوتية الخاصة ـ الروابط بين هذه الروايات والأقوال التي تلقوها من التراث السائد. إن تجميع أقوال المسيح وربط الروايات بصيغ أسلوبية غامضة مثل «وبعد هذا» «وما إن...» إلخ، وبالاختصار، إطار الأناجيل المتوافقة[2] Evangiles Synoptiques كل هذا أدبي الطابع وليس له أساس تاريخي».

ويستأنف الكاتب قائلاً: «ويجب ملاحظة أن احتياجات التبشير والتعليم والممارسة الدينية هي التي دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن حياة المسيح، بأكثر من اهتمامها بتسجيل حياة المسيح. كان الحواريون يوضحون حقائق الإيمان الذي يحضون عليه بسرد أحداث حياة المسيح، وإن

---

(1) Les Presses Universitaires de France, 1967.

(2) أي: أناجيل مرقس ومتي ولوقا.

مواعظهم هي التي خلّفت ظروف تثبيت هذه الروايات، أما أقوال المسيح فقد انتقلت بشكل خاص عبر تعليم الكنيسة الأولى الديني».

ولا يذكر المعلقون على الترجمة المسكونية مراحل تكوّن الأناجيل بشكل آخر وهو ما يلي: تشكل تراث شفهي بتأثير تبشير تلامذة المسيح ومبشرين اخرين، وبقاء هذه العناصر التي نجدها أخيراً في الأناجيل بفضل التبشير والطقوس وتعاليم المؤمنين، ثم إمكانية التجسيد المبكر في شكل مكتوب لبعض تحديدات الإيمان ولبعض أقوال المسيح وروايات آلامه على سبيل المثال، ثم استعانة المبشرين بهذه الأشكال المكتوبة المتنوعة كاستعانتهم بمعطيات التراث الشفهي حتى يكتبوا نصوصاً «تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتعبر عن تأمل في الكتاب المقدس وتصحح الأخطاء وترد بهذه المناسبة على حجج الخصوم؛ بهذا الشكل جمع ودوّن المبشرون، كُلٌّ بحسب وجهة نظره، ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة شفهياً».

إن هذا الموقف الجماعي المتخذ الذي صدر عن أكثر من مائة مفسر للعهد الجديد من كاثوليك وبروتستانت، يختلف بشكل متميز عن الخط الذي عرفه المَجمع المسكوني للفاتيكان الثاني في دستوره العقائدي عن التنزيل، هذا الدستور الذي أعد فيما بين عامي 1962 و1965، ووجد القارئ أعلاه إشارة أولى إلى وثيقة المجمع هذه التي تتعلق بالعهد القديم. لقد استطاع المجمع المسكوني أن يعلن بشأن العهد القديم أن الأسفار التي تكونه «تحتوي أخطاء وأقاويل باطلة» ولكنه لم يصغ إلى أي تحفظات مثل هذه بالنسبة للأناجيل. بل بالعكس قالت الوثيقة ما يلي:

«لا يغفل على أي إنسان أن من بين كل الكتب المقدسة، بل حتى كتب العهد الجديد، كان هناك ما يُعتبر مميزاً بأحقية مثل الأناجيل باعتبار أنها تكون

شهادة حقيقية عن حياة ودرس الكلمة المجسدة أي منقذنا، فدائماً وفي كل مكان حفظت الكنيسة وما زالت الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة. والواقع أن ذلك هو الذي دعا إليه الرسل بأمر المسيح، فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم وبتأثير من الوحي الإلهي للروح، كتابات هي أساس الإيمان ونعني الإنجيل المربع حسب متي ومرقس ولوقا ويوحنا».

«إن كنيستنا الأم المقدسة قالت وتقول بحزم وثبات دائمين إن هذه الأناجيل الأربعة، التي تؤكد تاريخيتها دون أي تردد، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي وإلى أن رُفع إلى السماء.. إن الكتاب الدينيين إذن يؤلفون الأناجيل الأربعة بشكل يسمح بإعطائنا دائماً عن المسيح أموراً حقيقة ومخلصة».

هذا إذن تأكيد بلا أدنى شك أو لبس بأمانة نقل الأناجيل لأفعال وأقوال المسيح.

وهنا لا يرى القارئ أي اتفاق بين دعوى المجمع المسكوني هذه ودعاوى الكُتّاب المذكورين أعلاه، وعلى وجه خاص تلك التي تقول إنه: «لايجب الأخذ بحرفية الأناجيل فهي كتابات ظرفية وخصامية حدد محرروها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح» (الأب كانينجسر ـ R.P. Kannengiessers).

الأناجيل إذن نصوص «تتكيف مع الأوساط المختلفة وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتُعبر عن فكر ما عن الكتاب المقدس وتعدل من الأخطاء بل ترد بهذا على حجج الخصوم. وبهذا جمع المبشرون وحرروا، كل حسب وجهة نظره الخاصة، ما أعطاهم إياه التراث الشفهي» (الترجمة المسكونية للعهد الجديد).

وواضح تماماً أن التصريح المسكوني وهذه المواقف التي اتخذت منذ عهد قريب يضعاننا بين دعاوى متناقضة؛ إذ لا يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثاني الذي يقول: إننا نجد في الأناجيل نقلاً أميناً لأفعال وأقوال المسيح وبين وجود متناقضات في هذه النصوص وأمور غير معقولة واستحالات مادية ودعاوى معاكسة لأمور تم التحقق من صحتها.

وعلى العكس من ذلك فإذا نظر القارئ إلى الأناجيل على أنها تعبير عن وجهات النظر الخاصة بجامعي التراث الشفهي المنتمي إلى مختلف الجماعات، وإذا نظر إليها القارئ على أنها «كتابات ظرفية أو خصامية»، فإنه لن يدهش عندما يجد في الأناجيل كل هذه العيوب التي هي دلالة على صنع الإنسان في مثل هذه الظروف. قد يكون جامعو النصوص هؤلاء مخلصين تماماً بالرغم من أنهم يسردن أموراً لا يشكون في عدم صحتها، عندما يقدمون لنا روايات تتناقض مع روايات كُتّاب آخرين أو عندما يقدمون روايات عن حياة المسيح بحسب نظرة مختلفة تماماً عن نظرة الخصم وذلك لأسباب تتعلق بالتنافس الديني بين جماعة وأخرى.

وقد رأينا أن السياق التاريخي يتفق مع هذه الطريق الأخيرة في تصور الأناجيل فالمعطيات التي نملك عن النصوص نفسها تدعم هذا تماماً.

أولاً: إنجيل متي:

يحتل إنجيل متي بين الأناجيل الأربعة المكانة الأولى في نظام ترتيب أسفار العهد الجديد. وهي مكانة لها ما يبررها فهذا الإنجيل امتداد للعهد القديم بشكل ما؛ فقد كتب ليثبت أن المسيح «يكمل تاريخ إسرائيل» يقول هذا المعلقون على الترجمة المسكونية وهي الترجمة التي سنقتبس منها فقرات

كبيرة. ولكي يحقق متي هذا الغرض فإنه يستشهد دائماً بفقرات من العهد القديم تشير إلى أن المسيح يتصرف كالمسيح الذي ينتظره اليهود.

ويبدأ هذا الإنجيل بشجرة نسب المسيح[1]. ومتي يجعل المسيح ينتسب إلى إبراهيم عن طريق داود. وسنرى فيما بعد خطأ النص الذي يسكت عليه المعلقون عامة. وأياً كان الأمر فقد كانت نية متي واضحة في أن يعطي بنسب المسيح المعنى العام لكتابه. إن متي يتابع نفس هذه الفكرة وذلك بتوضيحه الدائم لموقف المسيح إزاء القانون اليهودي ومبادئه العريضة من صلاة وصوم وزكاة.

فالمسيح يريد أن يوجه تعاليمه بصورة مبدئية إلى شعبه، وهو يحدد رسالته بهذه الكيفية. يحدث الحواريين: «إلى طريق الوثنيين، لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين[2] لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائل الضالة». (إنجيل متي، الإصحاح 10 الآيتان 5و6). «ولم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» (متي، الإصحاح 15 الآية 24). وبشكل ثانوي فإن متي يمد في خاتمة إنجيله إلى كل الأمم تبشير تلاميذ المسيح الأوليين الأثني عشر، ويجعل المسيح يُعطي الأمر التالي: «فاذهبوا وتلمذوا جمع الأمم»، (متي، الإصحاح 28 ـ الآية 19). ولكن الارتحال يجب أن يتم بأفضلية الذهاب نحو «بيت إسرائيل»، ويقول تريكو عن هذا الإنجيل ما يلي: «تحت يونانية

---

(1) سنناقش التناقض مع شجرة أنساب المسيح بإنجيل لوقا في فصل مخصص لذلك.

(2) كان كتاب السامريين الديني التوراة أو أسفار موسى الخمسة، وكانوا ينتظرون مجيء المسيح ويخلصون لمعظم تعاليم اليهودية وإن كانوا قد بنوا معبداً منافساً لمعبد القدس.

الثوب يكمن الكتاب يهودياً لحماً وعظماً وروحاً، هو يحمل آثار اليهودية ويتسم بسماتها المميزة».

وهذه الاعتبارات وحدها تضع أصل إنجيل متي داخل الجماعة اليهودية المسيحية «التي تحاول»، على حد قول أ. كولمان، «أن تقطع العلاقات التي كانت تربطها باليهودية مع الاحتفاظ في نفس الوقت بخط مستمر في العهد القديم. إن نقاط الأهمية والنبرة العامة لهذا الإنجيل توحي بوجود وضع متوتر».

وربما كان هذا النص متصلاً بعوامل ذات صفة سياسية. فالاحتلال الروماني لفلسطين يحمي بالطبع رغبة البلد المحتل في وقوع الاستقلال، ولذا فهو يدعو الله إلى التدخل في صالح الشعب الذي اختاره من بين كل الشعوب والذي هو ملكه الأكبر الذي يستطيع أن يأتي بعونه المباشر في شؤون البشر مثلما فعل ذلك مرات كثيرة عبر التاريخ.

ما هي شخصية متي...؟ لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول إنه أحد حواريي المسيح، وبرغم ذلك يقدمه أ. تريكو على أنه كذلك في تعليقه على ترجمة العهد الجديد (المنشورة عام 1960) يقول: «اسمه متي، واسمه قبل ذلك ليفي، وكان محصلاً أو جابياً بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم عندما دعاه المسيح ليجعل منه أحد تلامذته». وذلك ما كان يعتقده آباء الكنيسة مثل أوريجين وجيروم وإبيغان. ولكن لم يعد أحد يعتقد هذا في عصرنا. وهناك نقطة واضحة جداً وهي أن هذا الكاتب يهودي، فمفردات كتابه فلسطينية، أما التحرير فيوناني. ويقول أ. كولمان: «إن الكاتب، أي متي، يخاطب أناساً، وإن كانوا يتحدثون اليونانية، فإنهم يعرفون العادات اليهودية واللغة الآرامية».

أما بالنسبة للمعلقين على الترجمة المسكونية فإن أصل هذا الإنجيل يبدو كما يلي:

«يقدر غالباً أن إنجيل متي قد كُتب بسوريا وربما بأنطاكية (. . .) أو بفينيقيا، ففي هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود[1] (. . .) وقد يمكن أن نستشف معركة فكرية ضد اليهودية المعبدية الأورثوذكسية الفريزية Pharisiens التي ظهرت بالمجمع الكنسي اليهودي بجامينا في نحو عام 80م. في ظل هذه الظروف يكثر عدد الكتاب الذي يؤرخون للإنجيل الأول بما بين عام 80 و 90م أو بما قبل ذلك بقليل ولا يمكن الوصول إلى يقين كامل في هذا الموضوع. ولما كان اسم المؤلف غير معروف بالتحديد، فالأنسب هو الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في إنجيل متي نفسه، ومنها: أن الكاتب معروف مهنياً وأنه متبحر في الكتب المقدسة والتراث اليهودي وأنه يعرف ويحترم رؤساء شعبه اليهود، وإنْ أغلظ في خطابه لهم، كما أنه أستاذ في فن التدريس وفي إفهام قول المسيح لمستمعيه مع تأكيده الدائم على النتائج العملية لتعاليمه، وإنه يتفق جيداً مع ملامح يهودي متأدب اعتنق المسيحية، وهو معلم ماهر «يخرج من كنزه جديداً وقديماً» كما يشير إلى هذا إنجيله نفسه (الإصحاح 13، الآية 52). تلك صورة بعيدة كل البعد عن صورة الموظف البيروقراطي بكفر ناحوم الذي يطُلق عليه مرقس ولوقا اسم ليفي والذي أصبح واحداً من حواريي المسيح الاثني عشر.

ويتفق الجميع على الاعتقاد بأن متي قد كَتب إنجيله معتمداً على مصادر

---

(1) تساءل البعض عما إذا كانت طائفة متي اليهودية ـ المسيحية تعيش بالإسكندرية. إن أ. كولمان يذكر هذا الفرض من بين فروض أخرى.

مشتركة بينه وبين مرقس ولوقا. ولكن روايته تختلف، وفي نقاط جوهرية كما سنرى فيما يلي؛ ومع ذلك فقد استخدم متي بشكل واسع إنجيل مرقس الذي لم يكن أحد حواريي المسيح (أ. كولمان).

يتصرف متي بحرية خطيرة مع النصوص؛ ويلاحظ ذلك بالنسبة للعهد القديم فما يتعلق بنسب المسيح التي يضعها في بداية إنجيله، وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل تصديقها تماماً. واستحالة التصديق تلك هي الصفة التي يستخدمها الأب كانينجسر في كتابه المُشار إليه عندما يتحدث عن رواية قيامة المسيح، والمقصود بالتحديد هو الجزء الخاص بالحراس. فالكاتب يبرز عدم معقولية حكاية حراس القبر العسكريين «هؤلاء الجنود الوثنيين الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين وإنما يذهبون إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليقولوا أكاذيب». ومع ذلك فهو يضيف: «علينا أن نحذر من السخرية، ذلك أن نية متي نية جدية بالإجلال حيث يدخل بطريقته الخاصة إلى مؤلفه المكتوب مُعطية قديمة من التراث الشفهي. هذا إخراج تمثيلي جدير بفيلم كفيلم «المسيح نجماً سينمائياً ـ Jesus-Christ Superstat»[1].

ولنذكر بأن هذا الحكم على متي صادر عن عالم لاهوتي مبرز، وهو أستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس.

ويُعطي متي مثالاً آخر على خياله الواسع في سرده للأحداث التي تواكب موت المسيح. يقول:

«وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض

---

(1) فيلم أمريكي يشوه صورة المسيح وتاريخه.

تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته[1] ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين».

ليس لهذا الفقرة من إنجيل متي (الإصحاح 27 الآيات من 51 إلى 53) مثيل في الأناجيل الأخرى. ولا نرى كيف استطاعت أجساد القديسين المعنيين أن تقوم عند موت المسيح، (أي قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل) وألا تخرج من قبورها إلا بعد قيامة عيسى (أي غداة السبت حسب نفس المصادر).

وربما كان إنجيل متي هو الذي يحتوي على هذا القول الذي يتميز بعدم معقولية لا جدال فيها من بين كل الأقوال التي وضعها كُتابها على لسان المسيح نفسه. يسرد متي حادثة آية يونس كما يلي: (الإصحاح 12 ـ من 38 إلى 40).

المسيح بين قوم من الكتبة والفريسيين يخاطبونه بهذه الألفاظ: «يا معلم نريد أن نرى منك آية». فأجابهم المسيح: «جيل شرير وفاسق يطلب آية! ولا يعطى له أية أخرى إلا آية يونس النبي؛ لأنه كما كان يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال».

المسيح يعلن أنه سيبقى في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. ولكن متي، ومعه لوقا ومرقس، يحددون موت ودفن المسيح بما قبل السبت بيوم وهذا بالتأكيد يجعل المكوث بالأرض ثلاثة أيام (يقول النص اليوناني Treis emeras)، لكن هذه الفترة الزمنية لا يمكن أن تحتوي إلا على ليلتين وليس

---

(1) قيامة المسيح.

ثلاث ليال (يقول النص اليوناني Treis nuktas)[1].

المعلقون على الأناجيل يسكتون في غالب الأحيان أمام هذا الحدث. ومع ذلك فالأب روجي يبرز هذا الأمر غير المعقول ويلاحظ أن المسيح «لم يبق بالقبر» إلا ثلاثة أيام (منها يوم كامل فقط) وليلتين. غير أنه يضيف قائلاً: «التعبير جامد ولا يدل على شيء آخر إلا ثلاثة أيام»، وأنه لمما يُحزن حقاً أن نلاحظ أن المعلقين ينزلون إلى استخدام مثل هذه الحجج التي لا تقول شيئاً إيجابياً، على حين يشفي العقل الإيحاء بأن مثل هذه الكبيرة ربما تكون قد صدرت عن أخطاء أحد نساخ النص.

وبالإضافة إلى هذه الأمور غير المعقولة فإن ما يتميز به إنجيل متي أولاً وقبل كل شيء هو أنه إنجيل طائفة يهودية ـ مسيحية بغرض مخالفة اليهودية مع الاحتفاظ بخط العهد القديم. ومن وجهة نظر تاريخ اليهودية المسيحية فلإنجيل متي أهمية كبرى.

ثانياً: إنجيل مرقس:

وهو أقصر الأناجيل الأربعة وأقدمها. ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين: فهو على أكثر تقدير كتاب حرره تلميذ لأحد الحواريين.

وقد كتب أ. كولمان أنه لا يعتبر مرقس تلميذاً للمسيح. ومع ذلك فهو

---

(1) يشير متي مرة ثانية في إنجيله إلى هذا الحدث ولكن دون تحديد زمني (16:1-4) ونفس الشيء بالنسبة للوقا (11:29-32)، أما بالنسبة لمرقس، كما سنرى هذا فيما بعد، فإنه يدعي بأن المسيح قد أعلن أنه لن يعطي لهذا الجيل أية آية. (مرقس 8:11-12).

يشير إلى هؤلاء الذين قد يشكون في انتساب هذا الإنجيل إلى مرقس «إن متي ولوقا لم يكونا يستخدما هذا الإنجيل مثلما فعلا لو كانا لا يعرفان أنه مؤسس فعلاً علىتعاليم أحد الحواريين». لكن هذه حجة غير حاسمة. ويذكر أ. كولمان، لتأكيد التحفظ الذي يدفع به، الإشارات الكثيرة في العهد الجديد التي تتحدث عن رجل اسمه «يوحنا ويلقب بمرقس». ولكن هذه الفقرات لا تذكر مؤلف إنجيل وحتى نص مرقس نفسه لا يشير إلى أي مؤلف.

إن قلة المعلومات الخاصة بهذه النقطة قد قادت المعلقين إلى أن يعتمدوا على تفاصيل تبدو وهمية على أنها عناصر ذات قيمة ومنها ما يلي: «فبحجة أن مرقس هو المبشر الوحيد الذي ذكر في روايته عن آلام المسيح حادثة شاب كان يلبس إزاراً على عريه وترك الإزار وهرب عريان عندما شرع في الإمساك به، (مرقس الإصحاح 14 ـ الآيتان 51و52)، استنتج البعض أن هذا الشاب قد يكون مرقس «التلميذ الأمين الذي يحاول أن يتبع السيد» (من الترجمة المسكونية). وفي رأي آخرين يستطيع القارئ أن يرى هنا «بسبب الذكرى الشخصية علامة على الصحة وإمضاء مجهول». «يثبت أن صاحبه كان شاهداً معايناً» (أ. كولمان).

ويرى هذا الكاتب «أن هناك كثيراً من تراكيب الجمل تدعم الفرض القائل أن مؤلف هذا الإنجيل يهودي الأصل»، ولكن وجود المناحي اللغوية اللاتينية قد يوحي بأنه قد كتب إنجيله من روما. «فهو بالإضافة إلى هذا يتوجه بالخطاب إلى مسيحيين لا يعيشون بفلسطين ويعتني بشرح التعبيرات الآرامية التي يستخدمها في حديثه إليهم...».

الواقع، أن التراث قد أراد أن يرى في مرقس رفيقاً لبطرس في روما وذلك اعتماداً على نهاية رسالة بطرس الأولى (إذا ما كان هذا الأخير هو فعلاً

كاتب هذه الرسالة). ويقال أن بطرس قد كتب لمن وجه رسالته إليهم: «جماعة المختارين ببابل: نحييكم وكذلك مرقس أخي». «بابل أو ربما روما». ذلك ما نقرأ في التعليقات على الترجمة المسكونية، ومن هنا يعتقد البعض أن من حقه أن يستنتج أن مرقس الذي كان مع بطرس بروما هو المبشر. تُرى أسبب من هذا النوع هو الذي دفع ببابياس Papias، أسقف هيرا بولس في نحو عام 150م، إلى أن ينسب الإنجيل المقصود إلى مرقس الذي يقول عنه إنه كان «مترجماً لبطرس» وإنه كان أيضاً مساعد بولس. . . ؟

إن إنجيل مرقس، من هذه الزاوية، يكون قد تحرر بعد موت بطرس أي على أكثر تقدير بين 65 و70م حسب الترجمة المسكونية، وفي حوالي عام 70 حسب أ. كولمان.

ويُظهر النص نفسه عيباً رئيسياً أولياً لا جدال فيه: لقد حرر دون أي اهتمام بالتعاقب الزمني للأحداث. فهذا الإنجيل يضع في بداية روايته (الإصحاح 1 ـ الآيات من 16 إلى 20) حكاية الصيادين الأربعة الذين يدعوهم المسيح لأن يتبعوه قائلاً لهم ببساطة: «ستصيرون صيادي الناس» على حين أنهم لا يعرفونه. ويضاف إلى ذلك أن هذا المبشر يبرز افتقاداً كاملاً للمعقولية.

وكما يقول الأب روجي فإن مرقس كان كاتباً غير حاذق وأكثر المبشرين ابتذالاً. فهو لا يعرف أبداً كيف يحرر حكاية، ويدعم المعلق ملاحظته بذكر فقرة تسرد تكّون الاثني عشر حوارياً. تقول هذه الفقرة حرفياً:

«ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه. وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ويكون لهم سلطان إخراج الشياطين. وجعل الاثني عشر وفَرضَ على سمعان اسم بطرس» (مرقس الإصحاح 3 ـ الآيات من 13 إلى 16).

إن إنجيل مرقس يتناقض مع إنجيل متي ولوقا فيما يخص بعض الأحداث كما أشرنا أعلاه بمناسبة حكاية آية يونس. وأكثر من ذلك فبمناسبة الآيات التي يعطيها المسيح للبشر في أثناء بعثته، يسرد مرقس حكاية لم تعد قابلة للتصديق. يقول (الإصحاح 8 ـ الآيتان 11 و12):

«فجاء الفريسيون وجعلوا يحاورون المسيح، ولسوقوه إلى فخ طلبوا منه آية من السماء ـ تنهد المسيح بعمق وقال: «لماذا يطلب هذا الجيل آية. . .؟ الحق أقول لكم، لن يُعطى هذا الجيل آية «ثم تركهم وصعد إلى السفينة ليمضي إلى الضفة الأخرى».

ولا شك في أن هذا تأكيد، من المسيح نفسه، بأنه ليس في نيته القيام بأي فعل قد يبدو غير طبيعي. وعليه فالمعلقون على الترجمة المسكونية، عندما يتعجبون من إعلان لوقا بأن المسيح لن يعطي إلا آية واحدة، آية يونس (انظر إنجيل متي) يحكمون في الوقت نفسه بوجود «مفارقة» بين قول مرقس بأنه «لن يكون لهذا الجيل آية» وبين المعجزات التي يقدمها المسيح نفسه كآيات «إنجيل لوقا الإصحاح 7 ـ الآية 22، الإصحاح 11ـ الآية 20)».

وإذا كان إنجيل مرقس معترفاً به كلية كإنجيل كنسي؛ فإن هذا لا يقلل من أن الكُتّاب المحدثين يعدون خاتمته (الاصحاح 16 ـ الآيات من 9 إلى 20) كمُؤلف أضيف إليه فيما بعد وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح.

وهذه الخاتمة غير موجودة في أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل المعروفتين باسمي Codex Sinaitious, Codex Vaticanus اللذين يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع. ويقول أ.كولمان في هذا الشأن: «أضاف مخطوطات يونانية أقرب عهداً وبعض نصوص أخرى إلى هذا الموضع خاتمة

عن ظهور المسيح لا تنتسب إلى مرقس وإنما هي مستخرجة من أناجيل أخرى». والواقع أن روايات هذه الخاتمة المضافة كثيرة. ففي النصوص نجد تارة رواية طويلة، وتارة رواية قصيرة (وتحتوي الترجمة المسكونية على الروايتين)، وتارة الرواية الطويلة مع حاشية، وتارة أخرى الروايتين معاً.

ويعلق الأب كانينجسر على هذه الخاتمة بما يلي: «لابد أنه قد حدث حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمي (أو عند النشر على العامة) لكتاب مرقس في الجماعة التي ضمنته. ولا متي ولا لوقا، ولا يوحنا بالأحرى، قد عرفوا هذا الجزء المفقود. مع ذلك فقد كانت الفجوة كبيرة. وبعد ذلك بكثير وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات المتشابهة لمتي ولوقا تم تولي خاتمة محترفة لمرقس وذلك بالاستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين. ومن السهل الاستدلال على قطع هذه الفزورة بالتفصيل خاتمة مرقس (16 ـ من 9 إلى 20). ذلك يسمح بتكوين فكرة مادية عن الحياة التي كانوا يعالجون بها النوع الأدبي الخاص بالحديث الإنجيلي حتى أعتاب القرن الثاني».

ياله من اعتراف صريح بوجود التعديلات التي قام بها البشر على النصوص المقدسة! يا له من اعتراف ذلك الذي تقدمه لنا تأملات هذا العالم اللاهوتي الكبير. . . !

ثالثاً: إنجيل لوقا:

هو «كاتب حوليات» في رأي أ.كولمان و«روائي حقيقي» في نظر الأب كانينجسر. ينبهنا لوقا نفسه في ديباجته الموجهة لثاوفيلس إلى أنه، بعد الآخرين الذين ألّفوا قصصاً عن المسيح، سيؤلف بدوره حكاية عن نفس الأحداث مستخدماً هذه القصص ومعلومات الشهود المعاينين ـ وذلك يعني أنه

ليس واحداً منهم ـ وبالإضافة إلى المعلومات المستحصلة من مواعظ الحواريين. المقصود إذن كتاب منهجي ويقدم لوقا له بما يلي: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأحداث التي وقعت. كما نقلها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهوداً معاينين وخدماً للكلمة، رأيت أنا أيضاً. إذا تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك، أيها العزيز ثاوفيلس. لتعرف صحة الكلام الذي علمت به».

من السطور الأولى يستطيع القارئ أن يميز ما يفصل لوقا عن مرقس. «هذا الكاتب الغث» الذي تحدثنا عن إنجيله. إن إنجيل لوقا عمل أدبي. لا يجادل. كتب بلغة يونانية كلاسيكية راقية. تخلو من الأخطاء الكلامية.

لوقا أديب وثني آمن بالمسيحية، واتجاهه بالنسبة إلى اليهود يتضح مباشرة. وكما يشير أ.كولمان فإن لوقا يحذف من روايته أكثر الآيات اليهودية عند مرقس ويبرز كلمات المسيح في مواجهة كفر اليهود وعلاقاته الطيبة مع السامريين الذين يمقتهم اليهود. هذا على حين يقول متي في إنجيله إن المسيح طلب إلى حوارييه أن يتجنبوا السامريين. وذلك مثال جلي بين أمثلة كثيرة، على أن المبشرين يضعون على لسان المسيح ما يتناسب مع وجهات نظرهم الشخصية، وهم يفعلون ذلك ولاشك عن قناعة أكيدة، فإنهم يعطوننا عن أقوال المسيح الرواية التي تتكيف مع وجهات نظر الطوائف التي ينتمون إليها. كيف يمكن إذن، أما أمور جلية كهذه، إنكار أن الأناجيل ليست «كتابات خصامية» أو «ظرفية» كما قيل أعلاه؟ إن المقارنة بين المنحى العام لإنجيل متي وإنجيل لوقا يأتي ببرهان قاطع في هذا الشأن.

من هو لوقا؟ لقد أراد بعضهم التعرف على هويته في شخصية الطبيب الذي يحمل اسم لوقا والذي يذكره بولس في بعض رسائله. وتلاحظ الترجمة

المسكونية أن «بعضهم قد رأى تأكيداً لمهنة الطب التي كان المؤلف يمارسها وذلك بسبب دقة وصف المرض». وهذا تقدير مبالغ فيه تماماً فلوقا لايعطي «أوصافاً» من هذا النوع إذا شئنا الدقة، «والمفردات التي يستخدمها هي مفردات أي إنسان مثقف في هذا العصر». لقد كان هناك لوقا ما قد رافق بولس في رحلاته. فهل هو نفس الشخص؟ إن أ. كولمان يعتقد ذلك.

ويمكن تقدير تاريخ إنجيل لوقا بالنظر إلى عوامل عدة. فقد استعان لواقا بإنجيلي مرقس ومتي، وكما تقول الترجمة المسكونية فيبدو أنه قد عايش حصار القدس وتدميرها تحت جيوش تيتوس عام 70م. وعلى ذلك يكون هذا الإنجيل لاحقاً على ذلك التاريخ. ويحدد النقاد الحاليون غالباً تاريخ تحريره بما بين 80 ـ 90م. ولكن هناك معلقين آخرين يحددونه بتاريخ أكثر قدماً.

وتحتوي شتى الروايات في إنجيل لوقا على اختلافات هامة مع روايات سابقيه. ولقد أعطينا أعلاه لمحة. وتشير إليها الترجمة المسكونية في صفحة 181 وما يليها.

يذكر أ. كولمان، في كتابه «العهد الجديد» صفحة 18، روايات من إنجيل لوقا لا توجد في الأناجيل الأخرى، وليس المقصود نقاطاً تفصيلية.

إن الروايات عن طفولة المسيح في إنجيل لوقا خاصة بهذا الإنجيل، فمتي يقص بشكل يختلف عن لوقا طفولة المسيح. أما مرقس فإنه لا يقول كلمة عنها.

ويعطي كل من متي ولوقا للمسيح أنساباً مختلفة، والتناقض بينهما هام، وعدم المعقولية كبيرة من وجهة النظر العلمية؛ بحيث يجدر تخصيص فصل خاص هنا لهذا الموضوع. وقد يمكن فهم أن متي لأنه يتوجه بخطابه لليهود،

يُبدي شجرة نسب المسيح بإبراهيم ويجعلها تمر بدواد، وإن لوقا، وهو الوثني الذي آمن بالمسيحية، يهتم بأن يمد جذور هذه الشجرة إلى أبعد من ذلك. ولكن القارئ سيرى أن الاثنين يتناقضان ابتداء من داود.

ومن ناحية أخرى، فإن رسالة المسيح مسرودة بشكل مختلف وفي نقاط كثيرة لدى كل من لوقا ومتي ومرقس.

إن تأسيس سر القربان المقدس، وهو حدث على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمسيحيين، يخضع لتنوعات كثيرة من لوقا إلى المبشرين الآخرين. ويلاحظ الأب روجي في كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» (ص 75) أن الكلمات التي يسوق بها إنجيل لوقا (الإصحاح 22 ـ الآيات من 19 إلى 24) سر القربان المقدس تختلف عن تلك التي نجدها في إنجيل متي (الإصحاح 26 ـ الآيات من 26 إلى 29) وفي إنجيل مرقس (الإصحاح 14 ـ الآيات من 22 إلى 24)، وهي متطابقة تقريباً في هذين الأخيرين. «وعلى العكس، فالصيغة التي ينقلها لوقا تقارب كثيراً تلك التي يذكرها بولس» (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة. الإصحاح 11 ـ الآيات من 23 إلى 25).

إن لوقا، كما رأينا، في إنجيله، يصدر عن صعود المسيح قولاً يناقض ما يقول في «أعمال الرسل» التي سلَّم المتخصصون بأنه كاتبها وهي جزء متمم للعهد الجديد. إنه يحدد في إنجيله تاريخ صعود المسيح بيوم الفصح ويحدده في «الأعمال» ببعد ذلك بأربعين يوماً. وإننا لنعرف إلى أي تعليقات غريبة قاد هذا التناقض المفسرين المسيحيين.

غير أن المعلقين الذين تهمهم الموضوعية مضطرون للاعتراف، مثلما فعل المعلقون على الترجمة المسكونية عموماً، بأن «الاهتمام الأول (لدى

لوقا) ليس هو وصف الأمور في دقتها المادية. . .». إن الأب كانينجسر يقارن روايات «أعمال الرسل»، وهي من تأليف هذا اللوقا نفسه، مع روايات أمور مماثلة عند بولس عن المسيح بعد قيامته، ويقدم الرأي التالي عن لوقا: «لوقا هو أكثر الأناجيل الأربعة إرهافاً في الحس وأكثرهم ميلاً للأدب، إنه يتمتع بكل صفات الكاتب الروائي الحقيقي».

رابعاً: إنجيل يوحنا:

يختلف إنجيل يوحنا بصورة كبيرة عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، إلى درجة أن الأب روجي في كتابه «مقدمة إلى الإنجيل»، وبعد أن علّق على الأناجيل الأخرى، يُعطي صورة معبرة عن هذا الإنجيل الرابع: «إنه عالم آخر». والواقع أنه كتاب مختلف تماماً: فهو يختلف في ترتيب واختيار الموضوعات والروايات والخطب، وبه اختلافات أسلوبية وجغرافية وأخرى خاصة بالتعاقب الزمني للأحداث، بل إنه يحتوي على اختلاف في الآفاق اللاهوتية (أ. كولمان). إن أقوال المسيح تطرح بشكل مختلف لدى كل من يوحنا والمبشرين الآخرين: وينوه الأب روجي، في هذا الشأن، إلى أنه على حين تسوق الأناجيل الثلاثة المتوافقة أقوال المسيح في أسلوب «قارع، يقارب كثيراً الأسلوب الشفهي» فإن كل شيء يخضع عند يوحنا إلى التأمل، إلى درجة «أننا نستطيع أن نتساءل أحياناً ما إذا كان المسيح هو الذي ما زال يتحدث أم أن أقواله تتمدد بشكل غير محسوس بتأثير تأملات هذا المبشر».

من هو المؤلف؟ المسألة موضع نقاش كثير، وقد طرحت آراء شديدة التنوع في هذا الشأن.

وينتمي أ. تريكو والأب روجي إلى هؤلاء الذين لا يغشاهم أي شك

فإنجيل يوحنا في نظرهم هو كتاب لشاهد معاين، والمؤلف هو يوحنا بن زبيدي وأخو جاك Jacques، هو المبشر الذي تُعرف عنه تفاصيل كثيرة وتُعرض في الكتب المبسطة المعممة. وتصوره الإيقونات الشعبية واقفاً بجوار المسيح مثلما كان عند العشاء الأخير قبل الآلام. فمن ذا الذي يتخيل أن إنجيل يوحنا ليس من مؤلف يوحنا الحواريي ذي الصورة المنتشرة إلى هذا الحد لدى العامة؟

إن التحرير المتأخر جداً لهذا الإنجيل الرابع لا يشكل حجة قاطعة ضد هذا الموقف الذي يتخذه البعض، المعتقد أن الصيغة النهائية له قد حررت في نحو نهاية القرن الأول.

إن تحديد تاريخها بستين عاماً بعد المسيح قد يكون أمراً يتفق مع وجود حواري كان صغير السن في عصر المسيح وعاش ما يقارب قرناً من الزمان.

إن الأب كانينجسر، في دراسته عن القيامة، يصل إلى هذه النتيجة وهي أنه ليس هناك أي كاتب للعهد الجديد، سوى بولس، يستطيع أن ينسب لنفسه صفة كونه شاهداً معايناً لقيامة المسيح. وبرغم ذلك فيوحنا يروي ظهور المسيح بعد قيامته للحواريين وكان هو واحداً منهم وكانوا مجتمعين باستثناء توما (الإصحاح 20 ـ الآيات من 19 إلى 24) ثم ظهوره مرة أخرى بعد ثمانية أيام للحواريين بكاملهم.

إن أ. كولمان لا يتخذ موقفاً خاصاً بهذا الموضوع في كتابه «العهد الجديد».

كما أن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس. تحدد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحرير قام به يوحنا الحواري وإن كان ذلك احتمالاً وارداً برغم كل شيء. ولكن كل شيء يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد: «فيحتمل أن الإنجيل، بشكله الذي نملكه اليوم، قد

نشر بواسطة تلامذة المؤلف الذين أضافوا الإصحاح 21 كما أضافوا ولا شك بعض الحواشي (مثل 2،4 وربما أيضاً 1،4، 4، 44، 7، 37ب، 11، 2، 19، 35). أما فيما يختص بالمرأة الزانية (الإصحاح 7، 53 إلى 8، 11) فالكل يتفق على الاعتراف بأن هذا نص مجهول الأصل، أُلحق فيما بعد (وإن انتمى برغم ذلك إلى الكتاب المقدس المعترف به كنسياً)». إن الفقرة من 19، 35 تبدو وكأنها «إمضاء لشاهد معاين» (أ.كولمان) وهو الإمضاء الوحيد الصريح في كل إنجيل يوحنا، ولكن المعلقين يعتقدون أنها فقرة مضافة ولا شك.

ويعتقد أ.كولمان أن الإضافات اللاحقة واضحة في هذا الإنجيل مثل: الإصحاح 21، ويعتقد أنه من عمل «أحد التلاميذ وقد أضاف أيضاً بعض اللمسات إلى متن الإنجيل».

ودون ذكر الافتراضات الأخرى التي قدمها المفسرون، فالملاحظات الصادرة عن أبرز الكُتاب المسيحيين والتي أوردناها هنا عن مشكلة مؤلف الإنجيل الرابع، تشير، هي وحدها، إلى أننا نواجه بالغموض والخلط فيما يتعلق بأبوة هذا الكتاب.

لقد كانت القيمة التاريخية لروايات يوحنا موضع نزاع كثير. فالأمور التي تتنافر مع الأناجيل الثلاثة الأخرى صارخة. ولكن أ.كولمان يعللها: فهو يعترف بأن ليوحنا مرامي لاهوتية تختلف عن مرامي المبشرين الآخرين. وهذه الأغراض هي التي «تقود اختيارات روايات أقوال المسيح Logia، كما تقود الطريقة التي نقلت بها هذه الأقوال. وهكذا كثيراً ما يمط الكاتب السطور ويضع على لسان المسيح ما أنزله عليه الروح القدس نفسه».

ذلك هو سبب عدم الاتفاق مع الأناجيل الأخرى في رأي هذا المفسر.

ولا شك أنه من المعقول أن يوحنا، وقد شرع في الكتابة بعد المبشرين الآخرين، كان يستطيع أن يختار بعض الروايات التي تصور دعاواه بشكل أوضح، وإننا لا يجب أن ندهش عندما لا نجد في إنجيل يوحنا كل ما تحتوي عليه الروايات الأخرى. والترجمة المسكونية تذكر عدداً معيناً من حالات من هذا النوع (ص 282). ولكن أكثر ما يُثير الدهشة هو بعض الثغرات، فبعضها يعقل بصعوبة، كتلك التي تخص رواية تأسيس القربان المقدس، إذ كيف يمكن تصور أن يوحنا، وهو المبشر المفكر المتأمل بكل معنى الكلمة، لا يتحدث عن الحدث الرئيسي في المسيحية والذي سيصبح ركناً من أهم أركان الطقوس الكنيسة، أي: القُداس؟ الحادث فعلاً أن يوحنا يكتفي فقط، في سرده لهذا العشاء الذي يسبق الآلام، بوصف غسل أقدام الحواريين والتنبؤ بخيانة يهوذا الأسخريوطي، وبإنكار بطرس.

وعلى العكس من هذا أيضاً ففي إنجيل يوحنا روايات غير واردة في الأناجيل الأخرى، والترجمة المسكونية تشير إليها ص283. ورُبّ قائل لأن الثلاثة الآخرين لم يروا في بعض الأحداث الأهمية التي ميزها يوحنا. ولكن كيف لا نُدهش عندما نجد في إنجيل يوحنا رواية عن ظهور المسيح لتلامذته على بحيرة طبرية بعد أن قام من الأموات (يوحنا الإصحاح 21: الآيات من 1إلى 14). وليست هذه الرواية إلا نقلاً مع كثير من التفاصيل الإضافية لمعجزة الصيد التي حكاها لوقا (الإصحاح 5: الآيات من 1 إلى 11) كحادثة وقعت في حياة المسيح. ويشير لوقا في روايته إلى وجود يوحنا الرسول والذي هو المبشر كما يقول التراث. إن انتماء هذه الرواية من إنجيل يوحنا إلى الإصحاح 21 ـ الذي يتفق الجميع على أنه أضيف لاحقاً ـ يسهل علينا تصور أن ذكر اسم يوحنا في رواية لوقا دفع المؤلف إلى ضم اسم يوحنا بشكل

مصطنع إلى الإنجيل الرابع؛ ولهذا الغرض لم يتردد معدل النص الإنجيل في تحويل حدث وقع في حياة المسيح إلى رواية حدثت بعد حياته!

هناك أيضاً اختلافات على جانب كبير من الأهمية بين إنجيل يوحنا والأناجيل والأخرى، وهو اختلاف خاص بالفترة الزمنية لبعثة المسيح. إذا يحددها مرقس ومتي ولوقا بعام واحد. أما بالنسبة ليوحنا فهي تمتد على أكثر من عامين. ويشير أ.كولمان إلى هذا الأمر. وأما الترجمة المسكونية فهي تصرح عن هذا الموضع بما يلي:

«على حين تُحدثنا الأناجيل الثلاثة المتوافقة عن فترة طويلة بالجليل تتبعها مسيرة نحو الناصرة Judee تمتد قليلاً أو قد تقصر ثم يليها أخيراً المكوث فترة قصيرة بالقدس فإن يوحنا، على العكس؛ يسرد انتقالات عدة للمسيح من منطقة إلى أخرى ويتحدث عن مكوثة فترة طويلة بأرض الناصرة Judee وبالقدس على وجه خاص (1 ـ 19: 51؛ 2 ـ 13 إلى 3ـ36؛ 5ـ1: 47؛ 14 ـ 20: 31). ويشير إلى احتفالات فصحية متعددة (2ـ13؛ 5ـ1؛ 6ـ4؛ 11ـ 55) وهو بهذا يوحي بأن بعثة المسيح قد دامت أكثر من عامين».

إذن فمن يجب أن يُصدق؟ أنُصدق متي أم مرقس أم لوقا أم يوحنا؟

مصـادر الأنـاجيـل

إن اللمحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل والتي اقتبسناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى اكتساب مفهوم أدب «مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار» و«تبدو تناقضاته غير قابلة للحل»، كما تقول ألفاظ الحكم الذي أصدره المعلقون على الترجمة المسكونية للكتاب المقدس الذين يهمنا الرجوع إلى سلطتهم، حيث إن التقديرات في هذا الموضوع تؤدي إلى نتائج باللغة

الخطورة. ولقد رأينا بعض سمات هذا الأدب الذي يدركه القارئ المتأمل. ولكن يجب الذهاب إلى أبعد من هذا، كما يجب البحث عما يمكن أن تعلمنا به الدراسات المنشورة في العصر الحديث عن المصادر التي نَهَلَ منها المبشرون لتحرير نصوصهم، كما يهم أيضاً دراسة ما إذا كان تاريخ النصوص بعد استقرارها قادراً على شرح بعض الصفات التي تقدمها في عصرنا.

لقد تصدى آباء الكنيسة في عصرهم لمشكلة المصادر بطريقة ساذجة. ففي القرون الأولى من العصر المسيحي لم يكن المصدر إلا إنجيل متي فقط وهو الذي تضعه المخطوطات الكاملة على رأسها. وكانت مشكلة المصادر تطرح إزاء إنجيلي مرقس ولوقا؛ حيث كان إنجيل يوحنا يشكل حالة منفصلة. كان القديس أوغسطين يعد إنجيل مرقس، وهو الإنجيل الثاني في الترتيب التلقيدي لتقديم الأناجيل، مستلهماً من إنجيل متي وإنه قد لخصه. وإن إنجيل لوقا، وهو الثالث في ترتيب المخطوطات المؤلفة، قد استعان بمعطيات كل من الأول والثاني: وتوحي بذلك فاتحته التي تحدثنا عنها أعلاه.

كان مفسرو هذا العصر يستطيعون مثلنا أن يلحظوا درجة اتفاق النصوص وأن يجدوا عدداً كبيراً من الآيات المشتركة بين اثنين أو ثلاثة من مخطوطات الأناجيل المتوافقة. وفي عصرنا يحسب المعلقون على الترجمة المسكونية عدد هذه الآيات تقريباً كما يلي:

آيات مشتركة بين ثلاثة أناجيل: متي ومرقس ولوقا 330

آيات مشتركة بين إنجيلي مرقس ومتي 178

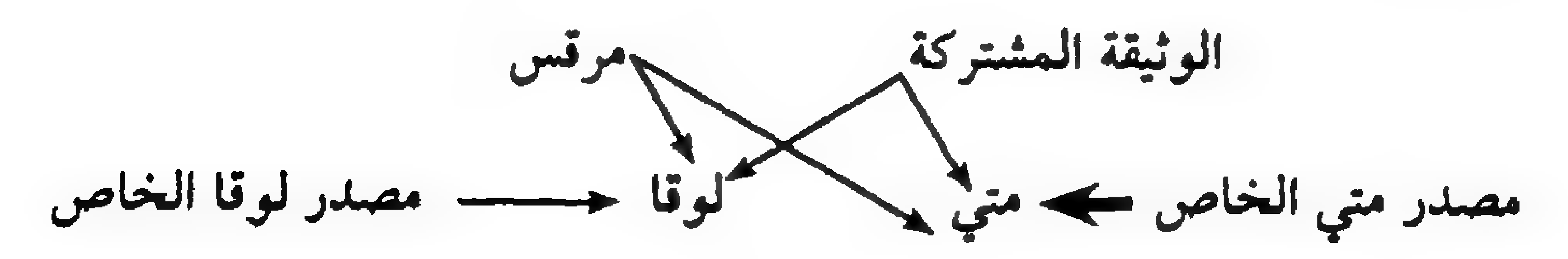
آيات مشتركة بين إنجيلي مرقس ولوقا 100

آيات مشتركة بين إنجيلي متي ولوقا 230

هذا على حين أن الآيات الخاصة بكل من المبشرين الثلاثة الأولين هي: 330 آية بالنسبة لمتي، و53 آية بالنسبة لمرقس، و500 آية بالنسبة للوقا.

ومن عصر آباء الكنيسة وحتى نهاية القرن الثامن عشر، مر ألف وخمسمائة عام دون إثارة أي مشكلة جديدة. مهما كانت، عن مصادر المبشرين: كان هناك امتثال للتراث. وفي العصر الحديث فقط وأمام هذه المعطيات أدراك البعض أن كل مبشر قد أنشأ رواية على طريقته الخاصة وحسب وجهات نظره الشخصية مع الاعتماد على المعلومات التي وجدها عند الآخرين عندئذ علق الباحثون أهمية كبيرة على جمع مواد الرواية في التراث الشفهي للطوائف الأصلية من ناحية، وفي مصدر مكتوب أرامي مشترك لم يعثر عليه من ناحية أخرى. وقد كان يمكن لهذا المصدر المكتوب أن يشكل كتلة جامدة أو أن يتكون من مقتطفات كثيرة لروايات شيء ربما تكون قد خدمت كل مبشر في تشييد نصه الأصلي.

ومنذ قرن تقريباً، قادت أبحاث أكثر تعمقاً إلى نظريات أكثر دقة ازدادت تعقداً بمرور الزمن. وأول هذه النظريات الحديثة هي النظرية المسماة «مصدري هولتزمان» Holtzmann (1863) وحسب هذه النظرية. كما يحدد أ. كولمان والترجمة المسكونية. فإن متي ولوقا قد استلهما مرقس من ناحية. ووثيقة مشتركة مفقودة اليوم من ناحية أخرى. يضاف إلى هذا أن كُلاً من المبشرين الأولين كان يملك تحت حوزته مصدراً خاصاً وقد أدى هذا إلى الرسم البياني التالي:



وينتقد أ. كولمان هذا البيان فيما يتعلق بالنقاط التالية:

1ـ ليس مؤلف مرقس الذي استخدمه لوقا ومتي هو إنجيل مرقس. إنما هو مؤلف سابق على مرقس.

2ـ لا يعطي هذا أهمية كافية للتراث الشفهي، ويبدو أنه رئيسي لأنه، وهو وحده قد حفظ طيلة ثلاثين أو أربعين سنة أقوال المسيح والروايات الخاصة ببعثته؛ وحيث إن كل مبشر لم يكن لا المتحدث باسم الطائفة المسيحية التي ثبتت التراث الشفهي.

بهذا نصل إلى فكرة أن الأناجيل التي في حوزتنا اليوم، قد أعطت صدى لما كانت الطوائف المسيحية البدائية تعرف عن حياة ورسالة المسيح ومعتقداتهم ومفاهيمهم اللاهوتية التي تحدث المبشرون باسمها.

أما أحدث أبحاث نقد النصوص الخاصة بمصادر الأناجيل فقد أوضحت وجود عملية أكثر تعقيداً من تشكل النصوص؛ إذ تنوه طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopse des quatre Evangiles، وهي للأبوين بينوا وبومار R.R.P.P. Benoit et Boismard الأستاذين بمعهد الكتاب المقدس بالقدس (1972ـ1973)، تشير بشكل خاص إلى تطور النصوص على مراحل متعددة بالتوازي مع تطور للتراث، ويقود هذا إلى نتائج يعرضها الأب بينوا بهذه الألفاظ في تقديمه للجزء الذي قام به الأب بومار من الكتاب المشار إليه. يقول: «(. . . .) إن أشكال الأقوال أو الروايات الناتجة عن تطور طويل للتراث لا تتمتع بنفس صحة الأقوال أو الروايات الموجودة أصلاً، وقد يُدهش بعض قراء هذا الكتاب أو قد يشعر بالحرج عندما يعلم أن هذا القول للمسيح أو هذا المثل أو ذاك التصريح بمصيره لم تنقل مثلما نقرأ اليوم وأن هؤلاء الذين نقلوا هذا إلينا قد أجروا عليه لمسات وتعديلات. إن هؤلاء الذين لم يعتادوا

هذا النوع من البحث التاريخي يجدون هنا مصدراً ممكناً للاندهاش بل حتى للاستنكار...».

إن هذه اللمسات وتلك التعديلات، التي مارسها هؤلاء الذين نقلوا إلينا النصوص قد أنجزت بطريقة يوضحها الأب بومار برسم بياني شديد التعقيد هو بسط للنظرية المسماة بنظرية المصدرين. وقد وضع هذا الرسم بعد عمل من الفحص ومن مقارنة النصوص يستحيل تلخيصه. وإذا أراد القارئ المهتم الحصول على تفاصيل أكثر فعليه أن يرجع إلى الكتاب الأصلي وقد نُشر بباريس بدار نشر Editions du Cerf.

هناك أربع وثائق أساسية هي أ، ب، ج، د، تمثل المصادر الأصلية للأناجيل (انظر الرسم البياني العام).

- الوثيقة (أ): وثيقة نبعت من أوساط يهودية ـ مسيحية وقد ألهمت متي ومرقس.
- الوثيقة (ب): هي إعادة تفسير للوثيقة أ، استخدمتها الكنائس الوثينة ـ المسيحية، وقد ألهمت كل المبشرين ما عدا متي.
- الوثيقة (ج): ألهمت مرقساً ولوقا ويوحنا.
- الوثيقة (د): تكون معظم المصادر الشائعة بين متي ولوقا، إنها «الوثيقة المشتركة» في نظرية المصدرين المشار إليها أعلاه.

لم تؤد أية وثيقة من هذه الوثائق الأساسية إلى تحرير النصوص النهائية التي في حوزتنا. فبينهما وبين التحرير النهائي توجد تآليف وسيطة خاصة بكل إنجيل[1] وتلك الوثائق الأربع الوسيطة هي التي أدت إلى الصيغ النهائية

---

(1) تختلف أسماء هذه الصيغ في اللغة الفرنسية، وحتى تكون أكثر وضوحاً فإننا نعطيها اسماً مماثلاً هو: «وسيط».

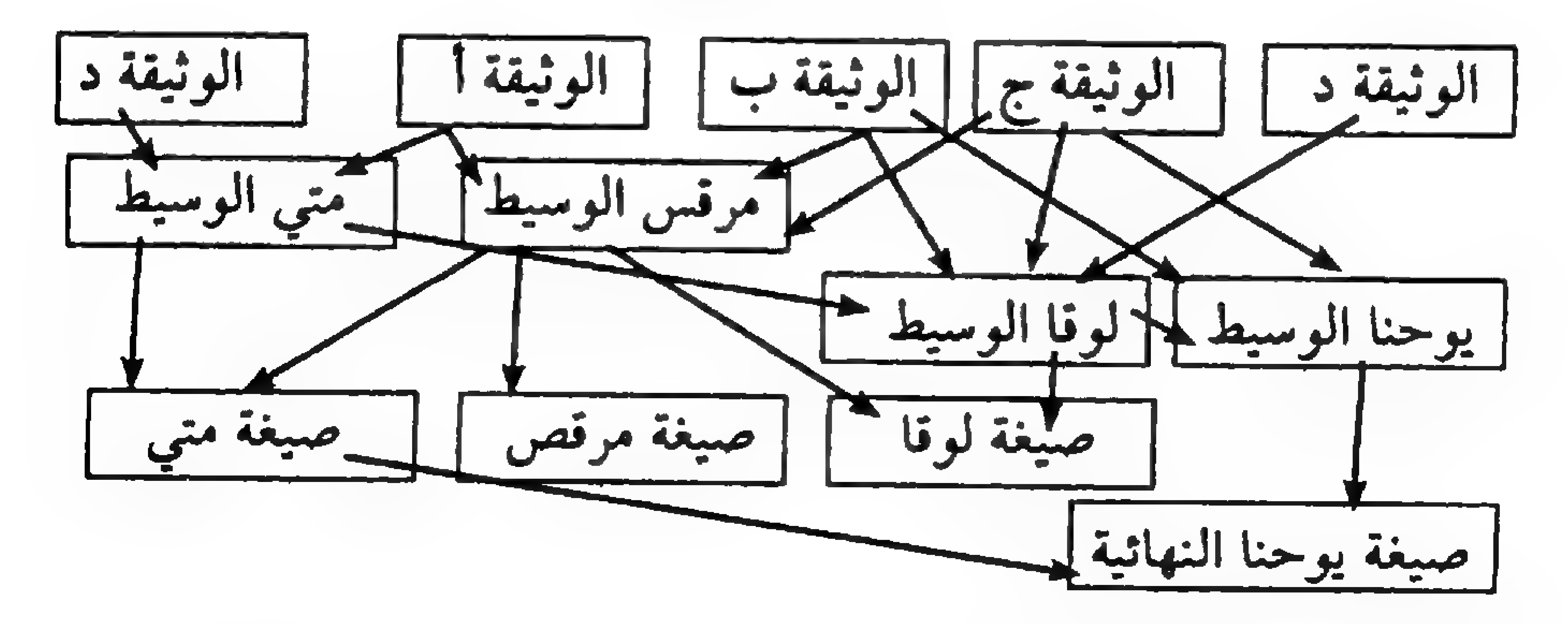
للأناجيل الأربعة وفي نفس الوقت ألهمت الصيغ النهائية المناظرة والمطابقة لصيغ أناجيل أخرى. ولابد من الرجوع إلى الرسم البياني العام حتى يمكن إدراك الشبكات المعقدة التي يضعها المؤلف.

إن نتائج هذا البحث الخاص بالكتاب المقدس بالغة الأهمية؛ فهي تثبت أن نصوص الأناجيل، التي لها تاريخ (وسيُعالج هذا في فصل لاحق)، تتمتع أيضاً، حسب تعبير الأب بومار، «بتاريخ ما قبل التاريخ Pre-Hist»، أي أنها قد خضعت قبل ظهور الصيغ النهائية لتعديلات وذلك في مرحلة الوثائق الوسيطة. بهذا يتضح، على سبيل المثال، أن حكاية معروفة جيداً وقعت في حياة المسيح، حكاية معجزة الصيد، تُقدم، كما رأينا في إنجيل لوقا، باعتبارها حدثاً وقع في حياة المسيح، على حين يقدمها يوحنا كحادثة من حوادث ظهوره بعد قيامته.

م.أ. بومار

الأناجيل الأربعة المتوافقة

الرسم البياني



ـ الوثيقة أ. ب. ج. ق: الوثيقة الأساسية التي استخدمت في الصياغة النهائية.

ـ الوسيط: الصياغة الوسيطة.

ونتيجة كل هذا هو أننا لم نعد متأكدين مطلقاً من أننا نتلقى كلمة المسيح عند قراءتنا للإنجيل. والأب بينوا يتوجه لقارئ الإنجيل ويحذره من هذا، ويقدم تعويضاً قائلاً: «إذا كان عليه أن يتخلى في أكثر من حالة عن سماع صوت المسيح المباشر فإنه يسمع صوت الكنيسة ويركن إليها ركونه لمفسر خوّل إليه أن يفسر السيد الذي يحدثنا اليوم في مجده بعد أن تحدث على أرضنا».

كيف يمكن التوفيق بين هذه الملاحظة الصريحة عن عدم صحة بعض النصوص وبين عبارة الدستور العقائدي عن التنزيل الإلهي التي صوت عليها مجمع الفاتيكان الثاني. وهذا يؤكد لنا، على العكس، بأمانة نقل أقوال المسيح. تقول هذه العبارة: «هذه الأناجيل الأربعة التي تؤكد (الكنيسة) تاريخيتها دون تردد، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح، ابن الله، طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي وإلى أن رفع إلى السماء».

ويظهر بوضوح تام أن عمل مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يأتي إلى دعاوى المجمع بتكذيب قاطع.

تاريخ تلك النصوص

إن الاعتقاد بأن الأناجيل شكّلت، بمجرد تحريرها، الكتب المقدسة الأساسية للمسيحية الوليدة وأنه قد اعتمد عليها مثلما كان يُعتمد على العهد القديم هو اعتقاد خاطئ. لقد كانت السلطة السائدة في ذلك الوقت للتراث الشفهي الذي كان ينقل أقوال المسيح وتعاليم الحواريين. إن أول الكتابات المتداولة وأول ما ساد منها قبل الأناجيل هو رسائل بولس؛ ألم تكن قد كتبت قبل ذلك بعشرات من السنوات؟

ولقد رأينا أنه قبل عام 140م لم يكن هناك ما يشهد بأن هناك من يعرف

وجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية، على عكس مما يكتب بعض المعلقين حتى اليوم. بل يجب انتظار عام 170م حتى تكتسب الأناجيل صفة الأدب المعترف به كنسياً.

في العصور المسيحية الأولى، كان هنا تداول كثير من الكتابات عن المسيح، غير أنه لم يُعْتد بها ككتابات جديرة بصفة الصحة، كما أوصت الكنيسة بإخفائها ومن هنا جاء اسم الأناجيل المزورة .Apocryphes ولقد بقي من هذه النصوص مؤلفات يحتفظ بها جيداً لأنها «كانت تتمتع بالتقدير العام»، على ما تقول لنا الترجمة المسكونية، ومن هذه رسالة برنابا Didache de Barnabe ولكن هناك نصوص أخرى قد «استبعدت بشكل أكثر عنفاً»، ولم يتبق منها إلا بعض أجزاء. ولأنها كانت تعتبر ناقلة للخطأ العام فقد أخفيت عن أنظار المؤمنين. برغم ذلك فهناك من المؤلفات، مثل أناجيل الناصريين وأناجيل العبرانيين وأناجيل المصريين التي عُرفت بفضل تنويهات آباء الكنيسة ما كان يشبه عن قرب الأناجيل المعترف بها كنسياً. ونفس الأمر ينطبق على إنجيل توما وإنجيل برنابا.

وبعض هذه الكتابات «المزورة» يحتوي على أوهام وخرافات أنتجها الخيال الشعبي؛ وعلى ذلك فبعض مؤلفي دراسات عن الأناجيل المزورة يذكرون برضى شديد الوضوح مقاطع من هذه التفاصيل تدعو حقاً للسخرية، لكن من الممكن أن نجد مثل هذه الفقرات في كل الأناجيل، ولنذكر فقط الوصف الوهمي للأحداث التي يَدعي متي أنها قد وقعت عند موت المسيح. يمكن إذن أن نجد فقرات تفتقر إلى الجدية في كل كتابات العصور الأولى للمسيحية؛ وعلى المعلقين أن يعترفوا بها بشرف.

لقد قادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة في مرحلة انتظامها إلى

إجراء استبعاد لكثير من المؤلفات، وربما كان ما حُذف مائة إنجيل! لقد احتفظ فقط بأربعة من الأناجيل لتدخل في قائمة رسمية من كتابات العهد الجديد والتي تشكل ما يُسمى بالكُتب المعترف بها كنسياً.

وفي منتصف القرن الثاني، دفع مارسيون Marcion بصرامة السلطات الكنيسة إلى اتخاذ موقف. وكان عدواً لدوداً لليهود وكان يرفض كل العهد القديم ويرفض من الكتابات اللاحقة على المسيح ما كان يبدو منها على ارتباط وثيق بالعهد القديم أو التراث اليهودي ـ المسيحي. ولم يعترف مارسيون إلا بإنجيل لوقا؛ لأنه في رأيه، التحدث باسم بولس، وبكتابات بولس.

وحَكمت الكنيسة على مارسيون بالهرطقة ووضعت في القائمة الرسمية كل رسائل بولس ولكن مع الأناجيل الأخرى لمتي ومرقس ولوقا ويوحنا وألحقت به أيضاً بعض الكتب الأخرى مثل «أعمال الرسل». ومع ذلك فالقائمة الرسمية تنوعت مع الزمن في هذه القرون الأولى من العصر المسيحي. وهناك مؤلفات اعتبرت فيما بعد معدومة القيمة «المزورة» كانت تحتل مكاناً مؤقتاً في هذه القائمة على حين كانت هناك كتابات أخرى، محتواة في القائمة الحالية للعهد الجديد، مستبعدة في ذلك العصر. لقد دام التردد حتى مجمعين: هيبون في 393م، وقرطاجنة في 397م. ولكن الأناجيل الأربعة كانت دائماً موجودة بهذه القائمة.

ولا نستطيع إلا أن نأسف، مع الأب بومار، على اختفاء (كم) ضخم من الكتب التي اعتبرتها الكنيسة مزورة، فقد كان لها أهمية تاريخية. الواقع أن الأب بومار يعطيها مكاناً في كتابه «الأناجيل الأربعة المتوافقة» إلى جانب الأناجيل الرسمية، ويُلاحظ أن هذه الكتب كانت متوفرة في المكتبات حتى نهاية القرن الرابع.

لقد شهد هذا القرن عصراً من التنظيم الجاد. وإلى هذا العصر ترجع أقدم المخطوطات الكاملة للأناجيل. فمن الوثائق السابقة على هذا العصر، برديات يرجع تاريخها إلى القرن الثالث، وبردية أخرى قد ترجع إلى القرن الثاني، ولكنها لا تنقل لنا إلا أجزاء منفصلة. أما أقدم مخطوطتين من الرق فهما مخطوطتان يونانيتان من القرن الرابع، وهما ما يعرفان بالـ Codex Vaticanus وموقع اكتشافهما مجهول وهما محفوظتان في مكتبة الفاتيكان وبالـ Codex Sinaiticus وقد اكتشفت بجبل سيناء وهي محفوظة بالمتحف البريطاني. وتحتوي الوثيقة الثانية على مؤلفين مزورين.

في العالم مائتان وخمسون مخطوطة أخرى معروفة، كما تقول الترجمة المسكونية، وآخرها يرجع إلى القرن الحادي عشر. ولكن «كل نسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست متطابقة. بل على العكس فيمكن للقارئ أن يميز فيما بينهما فروقاً قد تختلف في الأهمية ولكن عددها على أي حال كبير، وبعض هذه الاختلافات لا تخص إلا تفاصيل في النحو أو المفردات أو ترتيب الكلمات. ولكن في مؤلفات أخرى يُلاحظ بين المخطوطات اختلافات تمس معاني فقرات بأكملها...». وإذا أردنا أن ندرك هذه الاختلافات النصية فيكفي الرجوع إلى العهد الجديد اليوناني Novum Testamentum Graece1 .[1] فهذا الكتاب يحتوي على نص يوناني يقال له «متوسط» وهو نص مركب يشتمل في حواشيه على كل النقاط المختلفة التي يجدها القارئ في مختلف النسخ.

إن صحة أي نص، حتى أكثر النصوص احتراماً، قابلة دائماً للنقاش. إن المخطوطة المعروفة باسم Codex Vaticanus تُعطي مثالاً على ذلك. فطبعتها

---

(1) Nestle et Aland edition 1971.

المطابقة للأصل التي أعادتها الفاتيكان عام 1965م تحتوي على تنبيه من نفس المصدر يخبرنا «بأنه بعد مرور قرون عدة على النسخة» (القرن العاشر أو الحادي عشر كما يُعتقد) حبر أحد النساخ كل الحروف ما عدا التي رأى أنها خطأ». وهناك عبارات من النص ما زالت فيه الحروف الأولى، وهي بُنية اللون، تُرى بشكل واضح، وتصر على البقاء وتتباين مع بقية النص الذي كُتب بحبر بني غامق. ولا شيء يسمح بتأكيد أن ترميم النص كان أميناً، وبالإضافة إلى ذلك فالتنبيه يحدد ما يلي: «لم نتمكن حتى الآن من أن نميز بشكل حاسم مختلف الأيدي التي صححت المخطوطة ووضعت الحواشي عبر القرون، ولا شك أن عدداً من التصحيحات قد عمل ساعة تحبير النص». ومع ذلك فكل كتب التعليم الديني تقدم هذه المخطوطة على أنها نسخة من القرن الرابع. ولا بد من الذهاب إلى مصادر الفاتيكان حتى ندرك أن بعض الأيدي قد حرَّفت النص بعد ذلك بقرون كثيرة.

وقد يجيب أحد عن هذا بأن هناك نصوصاً أخرى تنفع في المقارنة. ولكن كيف يختار القارئ بين نقاط مختلفة تُحرِّف المعنى؟ المعلوم يقيناً أن تصحيحاً قديماً جداً لأحد النُساخ يؤدي إلى إعادة نهائية لنص جرى عليه التصحيح بهذا الشكل، وسنُدرك تماماً فيما بعد أن كلمة واحدة في إنجيل يوحنا خاصة بالـ Paraclet تغير تماماً معنى الفقرة وتقلب دلالتها رأساً على عقب من وجهة النظر اللاهوتية.

وهذا ما كتب أ. كولمان بالنسبة للتفاصيل المختلفة في كتابه «العهد الجديد»، يقول: «إنها قد تنتج عن أخطاء غير إرادية؛ إما أن يكون الناسخ قد أسقط كلمة وإما أن يكون قد كتبها مرتين متتاليتين وإما أن يكون قد حذف سهواً جزءاً من الجملة كان موضوعاً في النص المطلوب نسخة من بين كلمتين

متماثلتين، وقد يكون المعنى به أيضاً تصحيحات إرادية. أما الناسخ قد سمح لنفسه بتصحيح النص حسب أفكاره الشخصية وإما أنه يبحث عن التوفيق بين النص ونص آخر مواز حتى يقلل الاختلافات بينهما بشكل قد يقل أو يزيد مهارة، وبتدرج انفصال كتابات العهد الجديد عن بقية الأدب المسيحي البدائي لينظر إليها ككتاب مقدس إزداد تردد النساخ في إجراء مثل هذه التصحيحات التي كان يقوم بها مَن سلفهم؛ وبها اعتقدوا أنهم ينقلون النص الصحيح وبهذا ثبتوا النقاط التفصيلية المختلفة. أحياناً أخرى يكتب الناسخ تعليقاً على هامش النص ليشرح عبارة مبهمة. ويأتي الناسخ التالي ويظن أن العبارة المكتوبة على هامش النص قد سقطت عند ناسخ آخر ويرى ضرورياً إدخال التعليق الهامشي على النص. وبهذا، أحياناً، يصبح النص الجديد المنقول أكثر غموضاً».

إن نساخ بعض المخطوطات يسمحون لأنفسهم بالتصرف بحرية كبيرة مع النص، فهكذا الأمر بالنسبة لناسخ أحد أكثر النصوص إجلالاً بعد النصين المذكورين أعلاه وهو الـ Codex Bezae Cantabrigiensis الذي يرجع إلى القرن السادس. فقد لاحظ الناسخ، ولاشك، الفرق بين سلسلة نسب المسيح في كل من إنجيلي لوقا ومتي ولذلك وضع في نسخته لإنجيل لوقا نسب المسيح عند متي. ولما كانت هذه الأخيرة تحتوي على كم من الأسماء أقل من الأولى فإنه قام بتضخيمها بأسماء إضافية (دون أن يقيم توازناً مع ذلك).

والسؤال هو: هل الترجمات اللاتينية، مثل Vulgate للقديس برونيمس (القرن الرابع) والترجمة القديمة Vetus Itala والترجمات السيرانية والقبطية هل هي أكثر أمانة من المخطوطات اليونانية الأساسية؟ فربما تكون قد كُتبت اعتماداً على مخطوطات أكثر قدماً من تلك التي ذكرنا وغير موجودة في عصرنا، لا أحد يعلم شيئاً عن هذا.

لقد نجح المتخصصون في تصنيف هذه النصوص في عائلات تجمع عدداً من الصفات المشتركة. وهكذا يمكن، حسب كولمان، تعريف ما يلي:

ـ نص يوصف بأنه سوري، ربما انتهت إلى تشكيله أقدم وأغلب النصوص اليونانية، وقد انتشر هذا النص انتشاراً واسعاً في أوربا ابتداء من القرن السادس عشر بفضل آلة الطباعة وهو أسوأ النصوص في رأي المتخصصين.

ـ نص يوصف بأنه غربي بنسخه اللاتينية القديمة وما يعرف بالـ Codex Bezae Cantabrigiensis وهو نص يوناني ولاتيني في آن واحد (ويتسم هذا النص في رأي الترجمة المسكونية، باتجاه صريح نحو التعليل وعدم الدقة والإطناب والتوفيق).

ـ نص يوصف بأنه محايد ينتمي إليه الـ Vaticanus Codex والـ CodexSinaiticus وهو أكثر نقاء، وهذا النص هو الذي تعتمد عليه اليوم طبعات العهد الجديد برغم أنه هو أيضاً يحتوي على بعض العيوب (الترجمة المسكونية).

إن كل ما يستطيع نقد النصوص الحديث أن يقدمه لنا من وجهة النظر هذه هو محاولته لإعادة بناء «نص يتمتع بأكبر الفرص الممكنة في أن يقترب من النص الأصلي. وعلى أي حال فلا مجال بتاتاً للأمل للوصول إلى النص الأصلي نفسه» (الترجمة المسكونية).

الأناجيل والعلوم الحديثة

مشجري نسب المسيح

تحتوي الأناجيل على فقرات قليلة جداً تستطيع أن تقود إلى مقارنة مع المعطيات العلمية الحديثة.

وقبل كل شيء فكثير من روايات الأناجيل التي لها صلة بمعجزات ما لا تسمح مطلقاً بأي تعليق علمي، وهذه المعجزات تتعلق بأشخاص، مثل: شفاء المرضى (المصابون بمس أو برض، والعميان والمشلولون) كما تتعلق بظواهر مادية صرفة تقع على هامش القوانين الطبيعية (كمشي المسيح على صفحة المياه التي تحمله، وتغير الماء إلى نبيذ). وقد تكون المعجزة أحياناً ظاهرة طبيعية غير عادية بسبب تحققها في زمن قصير جداً كسكون العاصفة الفجائي، أو تجفيف التين في لحظة، أو ذلك الصيد المعجز وكأن كل أسماك البحيرة قد تجمع في نقطة محددة كانت الشباك قد ألقيت بها.

وفي هذه الأحداث يتدخل الله بقدرته، ولا يدهش المرء مما يقدر الله على فعله ويبدو للإنسان كمعجزات وإن لم تكن كذلك بالنسبة له. إن هذه الاعتبارات لا تعني بأي حال أن على المؤمن ألا يتدخل في شؤون العلم. فالإيمان بمعجزة إلهية والإيمان بالعلم أمران يتفقان تماماً. فالأولى إلهية المستوى والثانية إنسانية المستوى.

شخصياً أعتقد وأنا مطمئن أن المسيح قد استطاع أن يشفي الأبرص

ولكني لا أستطيع أن أقبل بأن يُقال بصحة وبإلهام الله لنص أقرأ فيه أن عشرين فقط من الأجيال قد عاشت بين أول إنسان وإبراهيم، يقول ذلك لوقا في إنجيله (3، 23، ـ 28). وسنرى بعد قليل الأسباب التي تقرر أن نص لوقا، كالنص الخاص بنفس الموضوع في العهد القديم قد صدر عن الخيال البشري.

إن الأناجيل مثل (القرآن) تُعطينا نفس المعطيات عن أصول المسيح البيولوجية، إن نمو المسيح في رحم أمه قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية. فالبويضة التي أنتجها مبيض أمه لم تحتج للالتقاء بحيوان منوي يأتي من أبيه ليشكل جنيناً ثم طفلاً قابلاً للحياة، إن الظاهرة التي تؤدي إلى ميلاد الكائن الحي دون تدخل من العنصر المخصب الذكر، تسمى بالتلقيح الذاتي Parthenogenese ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتي في عالم الحيوان تحت ظروف معينة. وتلك حالة حشرات متنوعة وبعض اللافقريات، وهي تخص أيضاً حالة جنس منتقى من الطيور ولكن هذا استثنائي جداً، وقد أمكن بالتجربة عند بعض الثديات، أنثى الأرنب مثلاً، الحصول على بداية لتطور البويضة إلى حالة جنينية في مرحلة أولية جداً دون إدخال حيوان منوي. ولم يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا ولا يعرف، عند هذه الثدييات أي مثال لتلقيح ذاتي مكتمل، لا بالتجربة ولا بالطبع، أما المسيح فهو حالة خاصة. فقد كانت مريم أمّاً عذراء. وقد احتفظت بعذريتها ولم تلد أطفالاً غير المسيح. إن المسيح استثناء بيولوجي[1].

---

(1) تذكر الأناجيل أحياناً «إخوة» و«آخوات» للمسيح (متي 13، 46 ـ 50 و54ـ58، مرقس 6، 1ـ6، يوحنا 7، 3و 2، 12). والكلمتان اليونانيتان المستخدمتان للتعبير عن هذه هما adelphoi-adelphsi وتعنيان بالفعل إخوة وأخوات بالمعنى البيولوجي، وهذه=

مشجرا نسب المسيح

يطرح مشجرا نسب المسيح اللذان في إنجيلي متي ولوقا مشاكل تتعلق بالمعقولية وبالاتفاق مع المعطيات العلمية ومن هنا فهي مشاكل تتعلق بالصحة. هي مشاكل تحرج جداً المعلقين المسيحيين فهم يرفضون أن يروا فيها ما هو بجلاء نتاج للخيال الإنساني؛ ولقد ألهم الخيال الإنساني كُتّاب سفر التكوين الكهنوتيين في القرن السادس قبل الميلاد في موضوع أنسال البشر الأول. وهو أيضاً الذي ألهم متي ولوقا بالنسبة إلى ما لم يستلهمه هذا الكاتبان من العهد القديم.

بدايةً يجب ملاحظة أن هذا من جهة الرجال معدوم المعنى فيما يتعلق بالمسيح. ولو كان من الضروري إعطاء المسيح نسباً، وهو وحيد مريم (أمه). وليس له أب بيولوجي، فيجب أن يكون ذلك النسب من جهة مريم فقط.

وها هي ذي نصوص هذا النسب حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد، يضع متي مشجر نسب المسيح على رأس إنجيله:

= بالتأكيد ترجمة قاصرة لكلمتين من أصل سامي وتعنيان أقرباء دون زيادة، وربما كان المقصود أيضاً هو أولاد العمة أو الخالة.

كتاب نسب عيسى المسيح بن داود بن إبراهيم

إبراهيم ولد إسحاق

وإسحاق ولد يعقوب

ويعقوب ولد يهوذا وإخوته

ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار

وفارص ولد حصرون

وحصرون ولد آرام

وآرام ولد عمينا داب

وعمينا داب ولد نحشون

وَنَحْشُون وَلد سَلمُونَ

وسلمون ولد بوعز من راحاب

وبوعز ولد عوبيد من راعوث

وعوبيد ولد يسي

ويسي ولد داود الملك

وداود الملك ولد سليمان مِن النبي لِاوريا

وسليمان ولد رحبعام

ورحبعام ولد أبيا

وأبيا ولد أسا

وأسا ولد يهوشافاط

ويهوشافط ولد يورام

ويورام ولد عزيا

وعزيا ولد يوتام

ويوتام ولد أجاز

وأجاز ولد حزقيا

وحزقيا ولد منسى

ومنسى ولد أمون

وأمون ولد يوشيا

ويوشيا ولد يكنيا وأخوته

وكان النفي إلى بابل

بعد النفي ببابل:

يكنيا ولَد شَالتيئِيلَ

وَشَالْتِيئِيلُ وَلَدَ زُربابِلَ

وَزُرُبَابِلُ وَلَدَ أبيهُودَ

وَابِيهُودُ وَلَدَ الْيَاقِيمَ

وَالْيَاقِيمُ وَلَد عَازُورَ

وعَازُورَ وَلَد صَادُوقَ

وَصَادُوقُ وَلَدَ آخِيمَ

وأكيم ولد اليهود

واليهود ولد العازار

والعازار ولد متان

ومتان ولد يعقوب

ويعقوب ولد يوسف

رَجُلَ مَريم التي ولد منها عيسى الذي يُدْعَى المسيح

وعلى ذلك يكُونُ العدد بالإجمال للأجيَال هو أربعة عَشرَ جيلاً من إبراهيم إلى دَاوُدَ وأربعة عَشر جيلاً من دَاوَد إلى المنفى بابل، وأربَعة عشرَ جيلاً من النفي بابل حتى المسيح.

أمَّا لوُقا (3ـ 23ـ 28) فإنَّه يُعطِي المسيح نَسَباً يخْتَلفُ عن ذلك الَّذِي فِي إنْجيل متّي. ونقدمها فيما يلي حسب نفس الترجمة:

ولَما ابْتدَا عيسى كان يناهز الثلاَثينَ سنة. وهو كان على ما يُظَنّ ابنَ يوسف بن هَالى، ابْنِ متّتَاتِ بن لاوي بن مَلكِى بن يَنّا بن يَوسَفِ، بن مَتائياً بن عَاموص، بن نَاحُوم بن حسلي بن ناجاي بن مَاثِ بن متَاثيا بن شَمْعِي بن يوسُف ابن يَهُوذَا بن يوحَنَّا بن ريسَا بن زُرُبّابِل بن شالتَيْئيلِ بن نيري بن ملكي بن إدي ابن قصم بن المودام بن عير، بن موسى بن اليعازربن يوريوم بن متثاتِ بن لاوى، بن شمعون بن يهوذا بين يوسف بن يونان بن إلياقيم، بن مليا من مينان ابن متاثا بن ناثان بن داود، بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن شالح بن نحشونِ بن عميناراب بن أدمنى بن عرنى بن حصرون بن فارص بن يهوذا، بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بن تارح بن ناحور، بن سحرور بن رعوبن فالح بن عابر بن شالح، بن قينان بن أرفكشار بن سام بن نوح بن لامك، بن متوشالح بن أخنوخ ابن يارد بن مَهللئيلِ بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم بن الله».

وتزداد هذه الأنساب وضوحاً (بوضعها) في جدولين يعرض أولهما أنساب المسيح قبل داود ويعرض الآخر أنسابه بعد داود.

نسب المسيح، قبل داود

حسب إنجيل متي	حسب إنجيل لوقا
	1. آدم
	2. شيت
	3. أندش
	4. قينان
	5. مهلئيل
	6. يارد
	7. أخنوخ
	8. متوشالح
	9. لامك
متي لا يذكر أي اسم قبل إبراهيم	10. نوح
	11. سام
	12. أرفكشاد
	13. قينان
	14. شالح
	15. عابر
	16. فالج
	17. راعو
	18. سروح
	19. ناحور
	20. تارح

حسب إنجيل متي

1. إبراهيم
2. إسحاق
3. يعقوب
4. يهوذا
5. فارص
6. حصرون
7. آرام
8. عمينا داب
9. نعشون
10. سليمان
11. بوغز
12. عبيد
13. يسي
14. داود

حسب إنجيل لوقا

21. إبراهيم
22. إسحاق
23. يعقوب
24. يهوذا
25. فارص
26. حصرون
27. عرني
28. أدمني
29. عمينا داب
30. نحشون
31. شالح
32. بوعز
33. عوبيد
34. يسي
35. داود

نسب المسيح بعد داود

15. سليمان
16. رحبعام
17. أبيا
18. أسا
19. بوشافاط

36. ناتان
37. متاتا
38. منا
39. مليا
40. الياقيم

حسب إنجيل متي

20. بورام
21. عزيا
22. يوتام
23. أجاز
24. حزقيا
25. منسى
26. أمون
27. يوشيا
28. يكنيا

النفي إلى بابل

29. شالتئيل
30. زربابل
31. ابيهود
32. الياقيم
33. عازور
34. صادوق
35. أكيم
36. اليهود
37. العازار
38. متان
39. يعقوب
40. يوسف
41. عيسى

41. يونان
42. يوسف
43. يهوذا
44. شمعون
45. شمعون
46. متات
47. يوريوم
48. عازر
49. بوسى
50. عير
51. المودام
52. قوسام
53. آدى
54. ملكي
55. نيرى
56. شالتئيل
57. زرابابل
58. ريسا
59. يوحنا
60. يهوذا
61. يوسف
62. شمعي
63. متتبا

حسب إنجيل لوقا

64. مآت
65. نجاي
66. حسلى
67. ناحوم
68. عاموس
69. متتيا
70. يوسف
71. بنا
72. ملكى
73. لاوى
74. متات
75. عالى
76. يوسف
77. عيسى

الفوراق بحسب المخطوطات
وبحسب العهد القديم

إذا أهملنا الاختلافات الإملائية فيجب أن نذكر:

(أ) إنجيل متي:

لقد اختفى نسب المسيح من النص المعروف باسم Codex Bezae Cantabrigiensis وهي مخطوطة هامة جداً، ترجع إلى القرن السادس، مزدوجة اللغة (يونانية ولاتينية)؛ وقد اختفى النص اليوناني تماماً وكذلك أغلب النص اللاتيني، وفيما يخص الجزء الضائع ربما الذي حدث هو مجرد ضياع الأوراق الأولى فقط. ولابد من الإشارة إلى الحرية الكبيرة جداً التي اتخذها متي إزاء العهد القديم؛ فقد حذف الأنساب منه لاحتياجات تختص ببرهنة حسابية غريبة (وفي نهاية الأمر لا يعطي متي هذا البرهان كما سنرى ذلك فيما بعد).

(ب) إنجيل لوقا

1ـ قبل إبراهيم: يذكر لوقا عشرين اسماً، أما العهد القديم فهو لا يذكر إلا تسعة عشر اسماً فقط (انظر جدول أنسال آدم في الجزء المكرس للعهد القديم).
وقد أضاف لوقا بعد أرفكشاد (رقم 12) رجلاً يُدعى كانيام (رقم 13) لا نجد له أي أثر في سفر التكوين باعتباره ابن أرفكشاد.

2- من إبراهيم إلى داود: نجد عدداً يتراوح بين 14 و16 اسماً وذلك حسب المخطوطات.

3- من داود إلى المسيح: ونقطة الاختلاف الهامة هي التي توجد في النسخة المعروفة باسم Codex Bezae Cantabrigiensis الذي ينسب إلى لوقا شجرة نسب وهمية صنعت من النسب عند متي والتي أضاف الناسخ إليها خمسة أسماء. ومما يؤسف له أن الجزء الخاص بنسب المسيح من هذه المخطوطات قد اختفى، وبهذا لم تعد المقارنة ممكنة.

النصوص بدراسة نقدية

يرى القارئ هنا مشجري نسب المسيح والنقطة المشتركة الجوهرية هي المرور بإبراهيم وداود. ولتيسير هذه الدراسة ستتصدى للنقد بتقسيم المجموع إلى ثلاث فترات.

- من آدم إلى إبراهيم.
- من إبراهيم إلى داود.
- من داود إلى المسيح.

1- الفترة من آدم إلى إبراهيم

بما أن متي يبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم. فالأمر هنا لا يخصه. إن لوقا فقط هو الذي يعطي معلومات عن أسلاف إبراهيم حتى آدم، وهو يعطي عشرين اسماً يوجد منها، كما قلنا، تسعة عشر اسماً بسفر التكوين (الإصحاحات 4 و5 و11).

أيمكن تصور أنه لم يكن هناك إلا 19 أو 20 جيلاً من الكائنات البشرية

قبل إبراهيم؟ لقد درست المشكلة فيما يختص بالعهد القديم. وإذا رجع القارئ إلى جدول أنسال آدم حسب سفر التكوين والذي يحتوي على الإحداثيات الحسابية الزمنية التي يمكن استنتاجها من نص التوراة، فسنجد أنه قد مر حوالي 19 قرناً فيما بين ظهور الإنسان على الأرض وميلاد إبراهيم. ولكن، لما كان المختصون يقدرون حالياً أن إبراهيم كان يعيش في عام 1850 ق.م. تقريباً، فإننا نستنج أن الإحداثيات التي يعطيها سفر التكوين تحدد ظهور الإنسان على الأرض بحوالي 38 قرناً قبل المسيح. وبالطبع فقد استلهم لوقا هذه المعطيات ليحرر إنجيله؛ ولأنه نقل هذه المعطيات فقد وهم. ولقد رأى القارئ أعلاه الحجج التاريخية القاطعة التي أدت إلى هذه الدعوى.

وعلى هذا فإن تكوين معطيات العهد القديم غير مقبولة في عصرنا. فذلك أمر يمكن تبريره؛ حيث إن هذه المعطيات تقع في ميدان «البطلان» الذي تحدث عنه مجمع الفاتيكان الثاني. أما أن يأخذ المبشرون على عاتقهم بنفس هذه المعطيات التي لا تتوافق مع العلم فذلك تقرير بالغ الجسامة يتعارض مع اللذين يدافعون عن الصحة التاريخية للنصوص الإنجليزية.

لقد أدرك المعلقون جيداً خطورة هذا التقرير. وهم يحاولون تجنب هذه الصعوبة بقولهم انه ليس المقصود هو مشجر نسب المسيح بتمامه وإن المبشرين قد أسقطوا أسماء عن عمد، وإن ما يجب أن يدخل في الحسبان هو فقط «نية وضع الخطوط العريضة أو العناصر الجوهرية لنسب المسيح بالاعتماد على الواقع التاريخي»[1]. وليس في النصوص ما يسمح بإقامة مثل هذا الفرض. فنصوص الأنساب تعين بالتحديد أن فلاناً قد ولد فلاناً وأن هذا ابن

---

(1) A. Tricot, Petit Dictionnaire du Nouveau Testament.

ذلك. وزيادة على ذلك وبالنسبة لما يسبق إبراهيم على وجه خاص، فقد نهل المبشر من العهد القديم الذي يعرض الأنساب على الوجه التالي:

س.. في سن كذا أنجب ص.. وعاش ص كمّاً من الأعوام وأنجب ع.. إذن ليس هناك انقطاع في التسلسل.

وعلى هذا فالجزء السابق على إبراهيم من نسب المسيح حسب إنجيل لوقا يصبح غير مقبول في ضوء المعارف الحديثة.

2 ـ الفترة من إبراهيم إلى داود

هنا، يتفق مشجرا النسب تقريباً، بفرق يبلغ اسماً أو اسمين: وقد يمكن تسويغ هذا الفرق بأخطاء للناسخ غير إرادية.

ولكن هل احتمال الصدق هنا في جانب المبشرين؟

إن التاريخ يحدد عصر داود حول عام 1000ق.م، وعصر إبراهيم تقريباً حوالي 1850 ـ 1800ق.م. أي 14 أو 16 جيلاً لثمانية قرون تقريباً. هل هذا معقول؟ لنقل إذن إن النصوص الإنجيلية، فيما يختص بتلك الفترة، تقع على حدود الأمور المقبولة.

3 ـ الفترة التالية لداود

للأسف، لا تتفق النصوص بتاتاً في تحديد السلف الداودي ليوسف، أي أسلف المسيح في الإنجيل.

ولنهمل التزييف الصريح في الوثيقة المعروفة باسم Codex Bezae Cantabrigiensis وفيما يختص بلوقا، ولنقارن بين ما تأتينا به الوثيقتان الأكثر تمتعاً بالاحترام وهما الـ Vaticanus Codex والـ Codex Sinaiticus.

يحتوي مشجر نسب المسيح عند لوقا على 42 اسماً بعد داود (رقم 35) وحتى المسيح (رقم 77). أما إنجيل متي فيشير إلى 27 اسماً بعد داود (رقم 14) وحتى المسيح (رقم 41). إذن فعدد أسلاف المسيح (الاعتباريين) بعد داو مختلف في الإنجيلين. ويُضاف إلى ذلك أن الأسماء نفسها مختلفة.

لكن هناك أكثر من ذلك:

يقول لنا متي إنه قد اكتشف أن أسلاف المسيح ينقسمون ابتداء من إبراهيم إلى ثلاث مجموعات يحتوي على منها على 14 اسماً: المجموعة الأولى من إبراهيم إلى داود، والمجموعة الثانية من داود إلى المنفى إلى بابل، والمجموعة الثالثة من النفي إلى بابل حتى المسيح. ويحتوي نص متي فعلاً على 14 اسماً في كل من المجموعتين الأوليين ولكن المجموعة الثالثة ـ من النفي إلى بابل حتى المسيح ـ لا تحتوي إلا على 13 اسماً وليس 14 كما كان ينتظر، فالجدول يشير إلى أن رقم شالتئيل هو 29 والمسيح 41. وليس هناك أية نسخة مختلفة أخرى لمتي تحتوي على 14 اسماً في هذه المجموعة.

وحتى ينجح متي في إدخال 14 اسماً في مجموعته الثانية فإنه يتصرف بحرية شديدة مع نص العهد القديم. وتتفق أسماء الأسلاف الستة الأولى لداود (من 15 إلى 20) مع معطيات العهد القديم. ولكن متي يغفل أنسال يورام (رقم 20) الذين تقول لنا أخبار الأيام الثاني إنهم أخاذياس ويواس وأماسيا، ويُضاف إلى ذلك أن يكنيا (رقم 28) هو ابن يوشيا (رقم 27) على حين يقول لنا كتاب الملوك الثاني إنه الياقيم ومكانه بين يوشيا ويكنيا.

بهذا يثبت أن متي قد غيَّـرَ في تسلسل النسب في العهد القديم لكي يقدم مجموعة مصطنعة من 14 اسماً بين داود والنفي إلى بابل.

أما أن ينقص المجموعة الثالثة اسم حيث إنه ليس هناك أي نص حالي لهذا الإنجيل يحتول على الـ 42 اسماً المشار إليها ـ فالدهشة لا ترجع إلى وجود الثغرة نفسها (فقد يكون تبرير ذلك هو خطأ قديم جداً لأحد النساخ قد استمر حتى الآن) بقدر ما ترجع إلى الصمت شبه التام للمعلقين على هذا الموضوع. فكيف لا يرون الثغرة؟ لقد قطع و. ترلنج[1] W.Trilling هذا الصمت الورع في كتابه «إنجيل متي» بسطر واحد. لكن الأمر بعيد كل البعد عن أن يكون معدوم الأهمية، فالمعلقون على هذا الإنجيل، بما في ذلك المعلقون على الترجمة المسكونية وآخرون مثل الكاردينال دانيلوا Danielou يكشفون عن الأهمية الكبرى لرمز العدد 14 مضروباً في 3 عند متي. أو لم يحذف هذا المبشر دون تردد أسماء جاءت في التوراة لكي ينجح في برهنته الحسابية؟

هذا لا يهم فقد أقام المعلقون بناء على المديح والتبرير بعلل إسقاط الأسماء وبتجنب الثغرة وبذلك ينهار ما أراد المبشر إثباته.

تعليقات المفسرين المحدثين

في كتاب «إنجيل الطفولة» (1967)[2] Les Evangiles de l`enfance يعطي الكرادينال دانيلو قيمة رمزية ذات أهمية كبرى «للبيان الحسابي» في إنجيل متي. فهذا البيان في نظره هو الذي يحدد أسلاف المسيح الذين يؤكدهم لوقا أيضاً. إن لوقا ومتي في نظر الكاردينال دانيلو، «مؤرخان» قاما «بتحقيق تاريخي»، بما أن نسب المسيح «مقتبس من أرشيف عائلة المسيح». ولابد من

---

(1) Desclee, Collection "Parole et Priere.

(2) Editions du Seuil.

تحديد أن هذا الأرشيف لم يعثر عليه قط[1].

ويُلقي الكاردينال دانيلو اللعنة على هؤلاء الذين ينتقدون وجهة نظره، يقول: «إن العقلية الغربية والجهل باليهودية ـ المسيحية والافتقاد إلى الحس السامي كل هذا قد أضل كثيراً من المفسرين في تفسير الأناجيل، فقد أسقطوا قاطيغورياتهم (كذا) الأفلاطونية والعقلانية والهيجلية والهيدجرية ولهذا أصاب الخلط نفوسهم».

وواضح تماماً أن ليس لأفلاطون أو ديكارت أو هيجل أو هيدجز مصلحة في هذا الموقف النقدي الذي قد يتخذه القارئ إزاء هذا النسب الوهمي للمسيح.

ويبحث المفسر عن معنى العدد 3 مضروباً في 14 ويسترسل في افتراضات غريبة؛ حيث يقول: «قد يكون المقصود هو الأسابيع العشرة الاعتيادية للرؤيا اليهودي، مع طرح الأسابيع الثلاثة الأولى المناظرة للفترة الزمنية من آدم إلى إبراهيم: ويتبقى بعد ذلك الأسابيع السبعة السنوية التي تمثل الأسابيع الستة الأولى، منها المجموعات الثلاث التي يتكون كل منها من 14 اسماً باعتبار أن المسيح يفتتح الأسبوع السابع الذي ينفتح به العمر السابع للعالم». مثل هذه الشروح لا تحتاج لأي تعليق!

---

(1) بالرغم من أن المفسر يؤكد لنا أنه يعرف وجود هذه الأرشيفات العائلية المزعومة من خلال «كتاب تاريخ الكنيسة» ليوزيب السيزاري وهو كاتب مشكوك في جديته إلى حد كبير ـ فإن من العسير تخيل أن لعائلة المسيح شجرتي نسب تختلفان بالضرورة، حيث إن كُلاً من هذين «المؤرخين» يقدم نسباً للمسيح يختلف معظمه عن الآخر بالنسبة للأسماء وبالنسبة لعدد الأسلاف أيضاً.

والمعلقون على الترجمة المسكونية للعهد الجديد يقدمون هم أيضاً تنويعات تبريرية ومديحية محسوبة وهي لا تقل غرابة أيضاً، يقولون:

(أ) قد يكون العدد 14 هو المجموع الحسابي للحروف الساكنة الثلاثة التي يتكون منها اسم داود في العبرية (د= 4، و=6) ومن هنا: 4+ 6+ 4=14.

(ب) 3 x 4 = 6 x 7 و«المسيح يأتي في نهاية الأسبوع السادس من التاريخ المقدس بإبراهيم»، وتعطي هذه الترجمة المسكونية للنسبة لإنجيل لوقا 77 اسماً من آدم إلى المسيح وذلك يدخل من جديد الرقم 7 باعتباره قاسماً العدد 77 (7 x 11= 77) ولكن عديداً من النقاط المختلفة عند لوقا يسقط الأسماء ويضيف أسماء أخرى بحيث إن أية قائمة تتكون عنده من 77 اسماً هي قائمة مصطنعة، حتى إن تمتعت بقابلية الدخول في مثل هذه الألعاب الحسابية.

لا شك أن نسب المسيح في الأناجيل موضوع قد دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتي.

الروايات تحتوي على متناقضات وأمور لا تعقل

يحتوي كل إنجيل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التي تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة في إنجيل واحد فقط أو تذكر في عدة أناجيل أو فيها كلها. فإذا كانت مذكورة في إنجيل واحد فقط، فإنها تطرح مشاكل هامة، وعلى هذا ففي حالة ما يكون الحدث بعيد المرمى فإن القارئ يتفاجأ بأن مبشراً واحداً فقط قد ذكره؛ وعلى سبيل المثال: صعود المسيح إلى السماء يوم القيامة، يُضاف إلى ذلك أن كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف وأحياناً بشكل

مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين. وكثيراً ما يدهش المسيحيون عندما يكتَشِفُون وجود هذه المتناقضات بين الأناجيل. فقد كرر على مسمعهم وبكثير من التأكيد أن كتاب الأناجيل كانوا شهوداً معاينين الأحداث التي أخبروا بها.

ولقد أشرنا في الفصول السابقة إلى بعض هذه الأمور غير المعقولة وهذه المتناقضات المثيرة للجدل. ولكن ما يشكل بوجه خاص موضوع الروايات المتضاربة أو المتناقصة هو الأحداث الأخيرة التي طبعت حياة المسيح والتي تلت آلامه.

الروايـات عن الآلام:

ويلاحظ الأب روجي R.P. Roguet نفسه أن عيد الفصح معين بشكل مختلف زمنياً بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين في الأناجيل الثلاثة المتوافقة وفي الإنجيل الرابع. فيوحنا يقول بوقوع هذا العشاء «قبل عيد الفصح». أما الأناجيل الأخرى فتقول إنه حدث في أثناء عيد الفصح نفسه. ويؤدي هذا الاختلاف فضلاً عن ذلك إلى أمور واضحة في عدم معقوليتها: إذ يستحيل تصور هذا الحدث أو ذاك بسبب موقع عيد الفصح الذي تحدد بهذا الشكل وبالنسبة إلى هذا الحدث. وعندما ندرك أهمية عيد الفصح في الطقوس اليهودية والأهمية التي اكتسبها هذا العشاء الذي ودع فيه المسيح حوارييه، فكيف يمكن تصور أن التراث الذي نقله المبشرون فيما بعد قد لايتذكر زمن هذا العشاء بالنسبة إلى عيد الفصح؟

وبشكل أكثر شمولاً فروايات الآلام تختلف بحسب الأناجيل وهي تختلف بشكل خاص بين الأناجيل الثلاثة الأولى وبين إنجيل يوحنا. فالعشاء الأخير للمسيح والآلام يحتلان في إنجيل يوحنا مساحة كبيرة تبلغ ضعف

المساحة عند كل من مرقس ولوقا. ويزيد نص يوحنا بمقدار مرة ونصف مرة على نص متي. ويسرد يوحنا خطبة طويلة للمسيح نحو تلامذته ويحتل سرد هذه الخطبة أربع إصحاحات (من 14 إلى 17) في إنجيله. وعبر هذا الحديث الأعظم يعطي المسيح آخر إرشاداته لتلامذته الذين سيتركم كما يسلمهم وصيته الروحية. وليس هناك أي أثر من هذا في الأناجيل الأخرى. وعلى العكس يسرد متي ولوقا ومرقس صلاة المسيح لجيتسهاني، ولا يشير يوحنا إليها.

عدم ذكر رواية تأسيس القربان المقدس من إنجيل يوحنا

وأهم ما يلفت قارئ الآلام في إنجيل يوحنا هو أنه لا يشير أية إشارة إلى تأسيس القربان المقدس في أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين.

وليس هناك مسيحي لا يعرف أيقونة العشاء الأخير حيث يجلس المسيح بين حواريه للمرة الأخيرة. لقد صور أعظم المصورين هذا الاجتماع الأخير وفيه يجلس يوحنا إلى جانب المسيح، يوحنا. هذا الذي اعتبرناه مؤلف الإنجيل الذي سُميَّ باسمه. ومهما كان ذلك مدهشاً للكثيرين فإن غالبية المتخصصين لا يعتبرون أن يوحنا الحواري هو مؤلف الإنجيل الرابع وهذا الأخير لا يشير إلى تأسيسي القربان المقدس. هذا على حين أن تقديس الخبز والخمر اللذين يصبحان جسد ودم المسيح هو الفعل الطقسي الكنسي الجوهري للمسيحية. إن الأناجيل الثلاثة الأخرى تتحدث عن هذا الفعل، وإن كان ذلك بألفاظ مختلفة كما أشرنا أعلاه. أما يوحنا، فهو لا يقول عنه كلمة واحدة. روايات الأناجيل الأربعة تحتوي فقط على نقطتين مشتركتين: التنبؤ بإنكار بطرس وخيانة أحد الحواريين (ولا يشار إلى يهوذا الأسخريوطي باسمه إلا في إنجيلي متي ويوحنا). إن إنجيل يوحنا وحده هو الذي يسرد غسل المسيح لأقدام تلاميذته في بداية العشاء.

كيف يتسنى تفسير هذه الثغرة في إنجيل يوحنا؟

إذا أردنا التفكير فإن أول ما يتبادر إلى الذهن، على افتراض أن رواية الأناجيل الثلاثة الأولى صحيحة، هو افتراض ضياع هذه الفقرة من إنجيل يوحنا الذي يسرد نفس الحدث. ولكن هذا ما لم يتوقف عنده المعلقون المسيحيون.

ولنبحث في بعض مواقفهم.

ويقول أ. تريكو A.Tricot في كتابه Petit Dictionnaire du Nouveau Testament ضمن فصل بعنوان «العشاء الأخير» "Cene" ما يلي: «هو آخر عشاء تناوله المسيح مع الاثني عشر حوارياً والذي أسس فيه القربان المقدس. ونحن نملك رواية هذا العشاء في الأناجيل الثلاثة المتوافقة». (مراجع متي ومرقس ولوقاً)، «ويعطينا الإنجيل الرابع تفاصيل تكميلية» (مراجع يوحنا). وفي مقال «القربان المقدس» يقول نفس هذا الكاتب ما يلي: «تسرد الأناجيل الثلاثة الأولى بتأسيس القربان المقدس بشكل مختصر وقد كانت تلك نقطة على أهمية كبرى في التعليم المسيحي الرسولي. وقد أعطي القديس يوحنا تكملة ضرورية لهذه الروايات الوجيزة وذلك بسرد خطبة المسيح عن خبز الحياة (الإصحاح 6: 32 ـ 85)». وبالتالي لا يشير المعلق إلى أن يوحنا لم يروِ تأسيس المسيح للقربان المقدس. المؤلف يتحدث عن تفاصيل تكميلية لتأسيس القربان المقدس (والواقع أن المقصود هو منسك غسل أقدام الحواريين). أما فيما يخص «خبز الحياة» الذي يتحدث عنه المعلق فالمقصود هو ذلك المسيح ـ خارج العشاء الأخير ـ للمن الذي وهبه الله في الصحراء. في عصر خروج اليهود الذين كان موسى قادهم. ويوحنا هو الوحيد من بين المبشرين الذي يُذكّر بهذا الأمر. ولا شك في أن يوحنا يشير، في الفقرة التالية

في إنجيله. لإشارة المسيح للقربان المقدس، وذلك في شكل استطراد خاص بالخبز، ولا يتحدث أي مبشر آخر عن هذا الحدث.

هكذا إذن يمكن أن نستغرب لصمت يوحنا على ما يرويه المبشرون الثلاثة الآخرون ولصمت هؤلاء على ما أعلن المسيح عنه في قول يوحنا.

هذه الثغرة الكبيرة في إنجيل يوحنا يعترف بها المعلقون على الترجمة المسكونية للعهد الجديد ولكنهم يقدمون التبرير التالي لعدم سرد يوحنا لتأسيس القربان المقدس؛ يقولون: «إن يوحنا، عموماً، لا يكن أي اهتمام إزاء تقاليد ومؤسسات إسرائيل القديمة، وربما كان هذا هو الذي جعله يحيد عن الإشارة إلى تأصل القربان المقدس في طقوس عيد الفصح». كيف يريدون أن نصدق أن عدم الاهتمام بالطقوس الفصحية اليهودية هو الذي قاد يوحنا إلى أن لا يتحدث عن تأسيس المنسك الرئيسي في طقوس الدين الجديد؟

إن المشكلة تحرج المفسرين إلى درجة أن علماء اللاهوت يحتالون في البحث عن صور أولية أو معادلات للقربان المقدس في أحداث حياة المسيح التي يسردها يوحنا. فهكذا يرى أ.كولمان O.Culmann في كتابه «العهد الجديد» «أن معجزة قانا وتكاثر الخبز هما بمثابة صورة مسبقة لسر العشاء المقدس (تناول القربان المقدس)». ولنذكر بأن ما حدث بقانا هو تحويل الماء إلى خمر فرغت عند عرس (وهي أول معجزة للمسيح ويذكرها يوحنا وحده من بين كل المبشرين. في الإصحاح الثاني من إنجيله ـ الآيات من 1 إلى12). أما فيما يختص بتكاثر الأرغفة (يوحنا، الإصحاح السادس الآيات من 1 إلى 13) فقد أدى ذلك إلى إطعام خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة تكاثرت بمعجزة. وعندما روى يوحنا هذه الأحداث فإنه لم يضف أي تعليق خاص. إن عملية تقريب هذه المعجزات من تأسيس القربان المقدس هي من نسج خيال المفسر.

ولا يرى القارئ سبب هذا التقريب. كما يظل في حيرة عندما يكتشف أن نفس هذا الكاتب يرى أن شفاء المشلول والأعمى يبشران بالتعميد وأن «الماء والدم الخارجين من صدر المسيح بعد موته يجمعان في حدث واحد إحالة إلى التعميد والقربان المقدس».

وهناك تقريب آخر خاص بالقربان المقدس عند نفس هذا المفسر ويذكره الأب روجي في كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» .Initiation a l`Evangile يقول: «يرى بعض علماء اللاهوت المتخصصين في الكتاب المقدس. أن حكاية غسل الأقدام قبل العشاء الأخير معادل رمزي لتأسيس القربان المقدس. . .».

ولا نرى جيداً أساس كل هذه التقريبات الوهمية التي يقول بها المعلقون حتى يجعلوا الناس يقبلون بسهولة أكثر من تلك الثغرة المحيرة في إنجيل يوحنا.

ظهور المسيح بعد القيامة (قيامة المسيح)

أوردنا سابقاً مثالاً واضحاً عن الخيال في الرواية بالنسبة لإنجيل متي وذلك فيما يخص وصفه لظواهر غير طبيعية قد صاحبت موت المسيح، وللأحداث التي تلت قيامته قد أعطت مادة لروايات متناقضة بل غريبة عند كل المبشرين.

ويعطينا الأب روجي في كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» (ص 182) أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض التي تسود هذه الروايات، فيقول:

«لا تتطابق تماماً في الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء اللواتي أتين إلى القبر. فليس هناك إلا امرأة واحدة في إنجيل يوحنا وهي مريم المجدلية. ولكنها تتحدث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات فهي تقول: «لا نعرف أين وضعوه». أما في إنجيل متي فالملاك هو الذي يعلن للنساء أنهن سيشاهدن المسيح بالجليل. ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر.

ولا شك أن لوقا قد شعر بهذه الصعوبة وعدَّل قليلاً في مصدره، يقول الملاك: «تذكرون كيف تحدث إليكم عندما كان بالجليل. . .».

والواقع أن لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته. . .» ـ «أما يوحنا فيقول إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت القدس، ثم في المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة. إذن بالجليل.

وأما متي فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل». ويستبعد المعلق من هذه الدراسة خاتمة إنجيل مرقس التي تتحدث عن ظهور المسيح لأنه يعتقد أنها «قد كتبت بقلم آخر».

وكل هذه الأمور تتناقض مع الإشارات بظهور المسيح المحتواة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (15، 5ـ7). إذ يقول إنه قد ظهر لأكثر من خمسمائة شخص في وقت واحد ولجاك ولكل الحواريين دون أن ينسى نفسه.

وإنه لمما يثير الدهشة بعد ذلك أن يندد الأب روجي في نفس هذا الكتاب «بالخوارق الطنانة والطفولية في بعض الأحيان المزورة» فيما يتعلق بقيامة المسيح. ألا تصلح هذه الأوصاف بشكل كامل لمتي وبولس نفسه الذي تناقض تماماً مع المبشرين الآخرين فيما يختص بظهور المسيح بعد قيامته؟

يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية «أعمال الرسل»، وهي من تأليف لوقا المبشر، عن ظهور المسيح لبولس، وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز. لقد أدى هذا إلى أن يشير الأب كانينجسر في كتابه «الإيمان بالقيامة بعث الإيمان "Foi en la Resurrection. Resurrection" (1947) إلى أن بولس هو الشاهد المعاين الوحيد على قيامة المسيح الذي يصل بصوته إلينا

مباشرة عبر ما كتب[1]، لكنه لا يتحدث أبداً عن مقابلته الشخصية مع المسيح بعد قيامته ـ هذا إذا استثنينا ثلاث إشارات شديدة التحفظ. . . » «بل أكثر من ذلك: أنه يمنع نفسه من وصف هذه المقابلة».

إن التناقص واضح بين بولس، وهو الشاهد المعاين الوحيد ولكنه مشكوك فيه، وبين الأناجيل.

ويلاحظ أ. كولمان في كتابه «العهد الجديد» التناقضات بين لوقا ومتي: فالأول يقول بظهور المسيح في الناصرة، أما الثاني فيقول إنه ظهر بالجليل.

أما فيما يخص التناقض بين لوقا ويوحنا فلنذكر أن الحدث الذي يرويه يوحنا (الإصحاح 21، الآيات من 1 إلى 14) عن ظهور المسيح للصيادين بعد قيامته على شاطى بحيرة طبرية وحصولهم بعد ذلك على سمك كثير حتى إنهم لا يستطيعون حمله، ليس إلا رواية معادة لنفس حدث معجزة الصيد بنفس المكان في حياة المسيح في رواية لوقا (الإصحاح الخامس، الآيات من 1 إلى 11).

ويؤكد لنا الأب روجي في كتابه، وفيما يتعلق بمرات ظهور المسيح «إن هذا التفكك، هذا الغموض، هذا الاختلال يبعث على الثقة عنده»؛ فكل ذلك يثبت أن المبشرين لم يتشاوروا فيما بينهم وإلا أعوزهم أن يوفقوا بين ما كتبوا[2]. وهذا تفكير غريب؛ فالواقع أنهم قد استطاعوا أيضاً أن يوردوا ـ بإخلاص تام وعلى غير علم منهم ـ كل الأقوال الموروثة لطوائفهم وذلك في قوالب روائية؛ كيف نتنهي إلى إقامة هذا الافترض في مواجهة هذه التناقضات العديدة والأمور غير المعقولة في رواية الأحداث؟

---

(1) ليس هناك أي كاتب للعهد الجديد يتمكن أن ينسب لنفسه مثل هذه الصفة.

(2) لا نتصور كيف كان يمكن لبعض المبشرين أن يفعل هذا.

صعود المسيح

يستمر سرد المتناقضات حتى نهاية الروايات لأن يوحنا ومتي لا يشيران إلى صعود المسيح، فمرقس ولوقا فقط يتحدثان عن هذا.

وبالنسبة لمرقس (16 و19) فإن المسيح «قد رفع إلى السماء وجلس على يمين الله»، وهذا دون تحديد تاريخي بالنسبة لقيامته. ولكن لابد من ملاحظة أن نهاية إنجيل مرقس، التي تحتوي على هذه الجملة، وليست نصاً صحيحاً؛ وهي نص كتب وأضيف بعد ذلك، في رأي الأب روجي حتى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونياً.

يتبقى إنجيل لوقا فهو الوحيد الذي يذكر حدث الصعود وذلك في نص لا يناقشه أحد. (24، 51) يقول: «انفصل المسيح عنهم وحُمِل إلى السماء». ويضع لوقا الحدث في نهاية رواية قيامة المسيح وظهوره للأحد عشر حوارياً[1]: وتتضمن تفاصيل الرواية الإنجيلية أن الصعود قد حدث يوم القيامة. ولكن لوقا يصف في «أعمال الرسل»، والكل يعتقد أنه كاتبها مرات ظهور المسيح للحواريين بين الآلام والصعود بالألفاظ التالية: «قد حصلوا منه على أكثر من آية على حين أظهر نفسه لهم وحدَّثهم، طيلة أربعين يوماً، عن ملكوت الله» (1، 2ـ3). إن هذه الفقرة من «أعمال الرسل» هي الأصل في تحديد مدة العيد المسيحي للصعود بأربعين يوماً بعد الفصح وحيث يُحتفل بالقيامة. التاريخ إذن محدد على عكس إنجيل لوقا، ويضاف إلى ذلك أن ليس هناك أي نص إنجيلي آخر يبرر هذا التحديد التاريخي.

---

(1) المقصود هو الأحد عشر حوارياً، حيث إن الثاني عشر قد مات، (وهو يهوذا).

إن المسيحي وقد عرف بهذا الموقف يشعر بالحيرة حيث التناقض واضح. ومع ذلك فالترجمة المسكونية للعهد الجديد تعترف بهذا الواقع ولكنها لا تفيض في الحديث عن التناقض، بل هي تكتفي بالإشارة إلى احتمال أهمية هذه الأربعين يوماً بالنسبة لرسالة المسيح.

إن المعلقين الذين يريدون شرح كل شيء والتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق يعطوننا في هذا الشأن تفسيرات شاذة.

فطبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopes des 4 Evangiles التي نشرتها مدرسة الكتاب المقدس بالقدس عام 1972 تحتوي على تعليقات شديدة الغرابة.

فحتى كلمة «صعود» موضوع للنقد التالي: «الواقع أنه لم يحدث صعود بالمعنى الفيزيقي نفسه، فليس الله بأعلى أكثر مما هو أسفل» (كذا!). ولا يفهم القارئ جيداً معنى تلك الملاحظة ويتساءل كيف كان يمكن للوقا أن يصرح بهذا بشكل آخر.

ويُضاف إلى ذلك أن كاتب التعليق يرى «حيلة أدبية» في الواقع أن«أعمال الرسل» تقول: «إن الصعود قد حدث بعد أربعين يوماً من قيامة المسيح»، و«الحيلة نفسها ترمي إلى التأكيد على أن فترة ظهور المسيح قد انتهت». ولكنه يضيف «أن إنجيل لوقا يحدد الحدث بمساء يوم الفصح، حيث أن لوقا لا يضع أي فاصل بين مختلفة الأحداث التي يسردها، وبعد اكتشاف القبر فارغاً صباح القيامة». «أليس هذا أيضاً حيلة تهدف إلى ترك فترة من الزمن بما يسمح للمسيح بالظهور بعد قيامته؟» (كَذَا).

إن الشعور بالحرج النابع من تفسيرات من هذا النوع يتضح أكثر فأكثر في كتاب الأب الروحي الذي يميز بين صعودين! حيث يقول:

«إذا كان الصعود، من وجهة نظر المسيح، يواكب القيامة، فإنه لا يقع

من وجهة نظر التلامذة إلا بعد أن يكف المسيح تماماً عن الظهور لهم حتى يرسل لهم الروح حتى يبدأ عصر الكنيسة. . . ».

وإذا كان ثمة قارئ غير قادر على إدراك الدقة اللاهوتية في تفكير الكاتب التي لم تكن تملك أي أساس من معرفة النصوص الإنجيلية، فإن الكاتب يوجه إليه هذا التحذير العام وهو نموذج للإطناب في اللغة المديحية.

وهنا كما في كثير من الحالات المماثلة لا تبدو المشكلة بغير حل إلا إذا أخذنا حرفياً ومادياً بدعاوى الكتاب المقدس مع تناسي معناها الديني. وليس المقصود هو إذابة واقع الأشياء في زمزية هلامية، وإنما المقصود هو أن نبحث عن النية الاهوتية لدى هؤلاء الذين يكشفون لنا الألغاز عندما يعطوننا. عن أمور محسوسة، علامات تختص بالجذور المادية لعقليتنا».

أحاديث المسيح الأخيرة في إنجيل يوحنا

وهي الـ Paraclet، حيث أن يوحنا هو المبشر الوحيد الذي روى ما حدث في نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه، أي آخر أحاديثه مع الحواريين، وينتهي هذا الحدث بخطبة طويلة. فإنجيل يوحنا يفرد أربع إصحاحات (من 14 إلى17) لتلك الرواية التي لا نجد لها أثراً في الأناجيل الأخرى. ومع ذلك فهذه الإصحاحات من إنجيل يوحنا تعالج مسائل أساسية وآفاق مستقبلية بالغة الأهمية وهي معروضة بكامل العظمة والجلال اللذين يميزان هذا المشهد لوداع السيد لتلامذته.

كيف يمكن أن نشرح الغياب التام في أناجيل متي ومرقس ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذي يحتوي على الوصية الروحية للمسيح؟ يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل كان النص موجوداً أولاً عند المبشرين الثلاثة الأولين؟ ألم

يحذف فيما بعد؟ ولنقل فوراً إنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة، فاللغز مستغلق تماماً بالنسبة لهذه الثغرة الكبيرة في رواية المبشرين الثلاثة الأولين.

إن ما يغلب على الرواية ـ وهذا مفهوم في حديث أخير ـ هو مستقبل البشر الذي يتحدث عنه المسيح واهتمام السيد بالتوجه إلى تلامذته وإلى الإنسانية برمتها عبرهم، معطياً إرشاداته وأوامره ومحدداً بشكل نهائي المرشد الذي على الإنسانية أن تتبعه بعد اختفائه. إن نص إنجيل يوحنا ـ وهذا النص وحده ـ يسمي بشكل صريح هذا المرشد باسم يوناني هو Parakletos الذي أصبح في الفرنسية Paraclet، وها هي ذي الفقرات الجوهرية من هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد:

«إذا كنتم تحبونني فستعملون على اتباع أوامري، وسأصلي للأب الذي سيعطيكم Paraclet آخر» (14، 15ـ16).

ما معنى هذه الكلمة Paraclet. إن النص الذي نملك حالياً لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية:

- «الـ Paraclet الروح القدس، الذي سيرسله الأب باسمي سيبلغكم كل شيء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قُلت لكم» (14، 26).
- «هو نفسه سيشهد بي» (15،26).
- «رحيلي فائدة لكم، لأنني إذا لم أرحل فالـ Paraclet لن يأتي إليكم، وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم. وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم...» (16، 7 ـ 8).
- «عندما سيأتي روح الحقيقة، فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها، لأنه لن يتكلم بإرادته وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي. وسيمجدني...» (16، 13ـ 14).

(ويلاحظ أن الفقرات التي لم تذكر هنا من الإصحاحات 14 إلى 17 من إنجيل يوحنا لا تعدل مطلقاً من المعنى العام للفقرات المذكورة).

إذا قرأنا بسرعة فإن النص الذي يثبت تطابق كلمة Parakletos اليونانية على الروح القدس لا يشدّ الانتباه في كثيرة من الأحيان؛ وخاصة أن العناوين الثانوية للنص المستخدمة عموماً في الترجمات بالإضافة إلى ألفاظ التعليقات المقدمة في كتب التعليم العام توجه القارى نحو المعنى الذي تريد الروح التقليدية تبيانه لهذه الفقرات. وإن حدث وصادف القارئ أقل صعوبة في الفهم، فالتحديدات موجودة كتلك التي يعطيها «المعجم الصغير للمعهد الجديد» للأب تريكو A. Tricot وهي تعطي كل التوضيحات فتحت عنوان Paraclet كتب المعلق ما يلي:

«هذا الاسم أو هذه الصفة المنقولة من اليونانية إلى الفرنسية غير مستخدم في العهد الجديد إلا في إنجيل يوحنا؛ فهو يذكر الكلمة أربع مرات عند سرده لخطاب المسيح بعد العشاء الأخير[1] (14، 16، 26، 15، 26، 16، 7) ومرة واحدة في رسالته الأولى (2، 1). إن الكلمة في إنجيل يوحنا تنطبق على الروح المقدسة، أما في الرسالة فهي تنطبق على المسيح. لقد كانت كلمة Paraclet سائدة لدى اليهود الهللنستيين في القرن الأول لمعنى الوسيط، والمدافع. (. . .) فالمسيح يعلن أن الروح سيرسل بالأب والابن في دوره الإنقاذي الذي يؤديه في أثناء حياته الفانية على الأرض وذلك لصالح تلامذته. إن الروح يتدخل ويعمل كبديل للمسيح باعتباره Paraclet أي وسيط قادر على كل شيء».

---

(1) الواقع أن المسيح. في قول يوحنا، يلقي خطابه الطويل في أثناء هذا العشاء نفسه وفيه يتحدث عن الـ Paraclet وهو خطاب لم يروه المبشرون الآخرون.

إذن فهذا التعليق يجعل من الروح القدس مرشداً أسمى للبشر بعد اختفاء المسيح، فهل يتفق مع نص يوحنا؟

لا بد من طرح المشكلة، فمبدئياً يبدو غريباً أن ننسب إلى الروح القدس الفقرة المذكورة أعلاه والتي تقول: «لن يتكلم بإرادته وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي».

يبدو أن من غير المعقول أن ننسب إلى الروح القدس سلطان أن يتحدث وأن يقول ما يسمع. وفي علمي أن هذه المسألة التي يوصي المنطق بطرحها ليست عموماً موضوع أي تعليقات.

ولكي تكون لنا فكرة صحيحة عن المشكلة يجب الاستعانة بالنص اليوناني الأساسي وهذا الأمر يساوي في أهميته الاعتراف بأن يوحنا قد كتب باليونانية وليس بلغة أخرى. إن النص اليوناني الذي رجعنا إليه هو نص Novum Testamentum Graece, طبعة نستلي والأند (1971).

إن أي نقد جاد للنصوص يبدأ بالبحث عن الاختلافات النصية. ويظهر هنا أن ليس في مجموع المخطوطات المعروفة لإنجيل يوحنا نص آخر مختلف من شأنه أن يحرف المعنى سوى تلك الفقرة 14، 26 من المخطوطة السريانية الشهيرة المسماة بـ (Palimpseste)[1] والفقرة لا تشير إلى الروح فقط وإنما إلى الروح القدس، فهل هذا مجرد نسيان من قبل الناسخ أو أنه لم يجرؤ على كتابة ما رأى أنه أمر غير معقول في مواجهة نص يدعي أن الروح القدس يسمع

---

(1) مخطوطة كتبت في القرن الرابع أو الخامس واكتشفها أنيس س. لويس Agnes S.Lwis عام 1812 بدير سيناء. وتحمل المخطوطة هذا الاسم لأن النص الأول كان مخفياً بنص آخر وعندما مسح هذا الأخير ظهر النص الأول.

ويتكلم؟ فيما عدا هذه الملاحظة وبعض الاختلافات النحوية التي لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص، وليس هناك مجال للإصرار على اختلافات نصية أخرى، ما يهم هو أن المعروض هنا عن الدلالة المحددة لفعلي «يسمع» و«يتحدث» يسري على كل مخطوطات إنجيل يوحنا ومن ضمنها الحالة المعينة هنا.

وفعل يسمع entendre في الترجمة الفرنسية هو فعل Akouo باليونانية ويعني استقبال أصوات. وقد أعطى الفعل اليوناني، على سبيل المثال، كلمة Acoustique بالفرنسية وacoustice بالإنجليزية وتعني علم الأصوات.

أما فعل «يتحدث Parler» في الترجمة الفرنسية فهو فعل Laleo باليونانية ومعناه العام: إصدار أصوات وخاصة صوت الكلام. ويتكرر هذا الفعل كثيراً في النص اليوناني وذلك للإشارة إلى التصريح الجليل للمسيح في أثناء تبشيره؛ يبدو أن الاتصال بالناس المقصود هنا لا يكمن مطلقاً في إلهام من عمل الروح المقدس. إنما هو اتصال ذو طابع مادي واضح وذلك بسبب مفهوم إصدار الصوت وهو المفهوم المرتبط بالكلمة اليونانية التي تعرفه.

الفعلان اليونانيان Laleo and Akouo يعنيان فعلين ماديين لا يمكن أن يخصا إلا كائناً يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام. وبالتالي فتطبيق هذين الفعلين على الروح القدس أمر غير ممكن. إن نص هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، كما تخبرنا المخطوطات اليونانية، غير مفهوم بالمرة إذا ما قبلناه في تمامه مع كلمتي «الروح القدس» في الآية 26 من الإصحاح 14 وهي: « Paraclet، الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي. . . » إلخ. إنها الجملة الوحيدة في إنجيل يوحنا التي تثبت تطابقاً بين الـ Paraclet والروح القدس.

ولكن إذا حذفنا كلمتي الروح القدس (to pneuma to agion) من هذه الجملة فإن نص يوحنا كله يقدم عندئذ دلالة شديدة الوضوح. ويضاف إلى

ذلك أن هذه الدلالة تتخذ شكلاً مادياً وذلك من خلال نص آخر ليوحنا، وهو نص الرسالة الأولى حيث يستخدم نفسه هذه الكلمة Paraclet للإشارة ببساطة إلى المسيح باعتباره الوسيط لدى الله[1].

وعندما يقول المسيح، حسب إنجيل يوحنا (16، 14): «سأصلي لله وسيرسل لكم Paraclet آخر» فهو يريد بالفعل أن يقول إنه سيرسل إلى البشر وسيطاً «آخر» كما كان هو وسيطاً لدى الله وفي صالح البشر في أثناء حياته على الأرض.

ذلك يقودنا بمنتهى الموضوعية إلى أن نرى في الـ Paraclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع. إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا، ولنقل باختصار إنه دور نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته. ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلي.

إن وجود كلمتي «الروح القدس» في النص الذي نملك اليوم قد يكون نابعاً من إضافة لاحقة إرادية تماماً تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض، بإعلانها بمجيء نبي بعد المسيح، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التي أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء.

---

(1) كثير من ترجمات الأناجيل والتعليقات عليها، والقديمة منها على وجه خاص؛ تترجم هذه الكلمة بالمعنى وهذا خطأ فاحش.

نبـذة ختاميـة

إن الأمور التي وردت والتعليقات المذكورة عن كثير من المفسرين المسيحيين البارزين تؤدي إلى رفض الدعاوى الظاهرية. وذلك بالاعتماد على الخط الذي تبناه المجمع الأخير، فيما يخص التاريخية المطلقة للأناجيل التي يَدعي أنها نقلت بأمانة ما فعله المسيح حقاً وما علم.

والتبريرات التي أُعطيت تنتمي إلى فئات عدة:

أولاً: هناك العبارات المذكورة من الأناجيل فهي نفسها تثبت تناقضات جلية، إذ لا يمكن الاعتقاد بوجود أمرين متناقضين، ولا يمكن قبول بعض الأمور غير المعقولة أو دعاوى تتعارض مع المعطيات التي أثبتتها تماماً المعارف الحديثة. إن مشجري نسب المسيح اللذين تقدمهما الأناجيل بالإضافة إلى ما يحتويان عليه من أمور صحيحة، يثبتان البرهان في هذا الشأن.

وكثير من المسيحيين يجهلون هذه المتناقضات والأمور غير المعقولة أو التي لا تتفق مع العلم الحديث، وهم يصابون بالذهول عندما يكتشفون كل هذا؛ فقد ظلوا دائماً متأثرين بقراءة التعليقات التي تعطي توضيحات دقيقة تطمئنهم وتعين في ذلك الغنائية المديحية. ولقد أعطينا أمثلة مميزة لحذق بعض المفسرين في إخفاء ما يسمون حياء «صعوبات» الواقع. إن فقرات الأناجيل التي اعترف بعدم صحتها نادرة جداً؛ ومع ذلك أعلنت الكنيسة بقانونيتها.

لقد أوضحت دراسات نقد النصوص الحديث المعطيات التي تكون، في

رأي الأب كانينجسر، «ثورة في مناهج التفسير»، والتي تؤدي إلى «عدم الأخذ بحرفية» الأمور الواردة بشأن المسيح في الأناجيل. فهذه الأخيرة «كتابات ظرفية» أو «خصامية». إن المعارف الحديثة وقد ألقت النور على تاريخ اليهودية - المسيحية والتنافس بين الطوائف توضح وجود أمور تُحيّر قراء عصرنا. لم يعد مفهوم المبشرين كشهود معاينين قابلاً للدفاع وإن ظل حتى يومنا هذا مفهوم كثير من المسيحيين. إن مؤلفات مدرسة الكتاب المقدس بالقدس (الأب بينوا والأب بوامار) تثبت جيداً أن الأناجيل قد كُتبت ونُقحت وصُححت أكثر من مرة؛ لهذا ينذر هذان الكتابان قارئ الإنجيل بأن عليه أن يتخلى في أكثر من حالة عن سماع صوت المسيح المباشر.

إن الطابع التاريخي للأناجيل لا يسمح بأي نقاش. لكن هذه الوثائق تعلمنا قبل كل شيء وعبر الروايات الخاصة بالمسيح، بعقلية الكتاب المتحدثين باسم الطوائف المسيحية الأولى التي كانوا ينتمون إليها وتعرفنا بوجه خاص بالخصومات بين اليهود المسيحيين وبين بولس: إن دراسات الكاردينال دانيلو تعتبر مرجعاً في هذه النقاط.

فكيف نُدهش إذن لتشويه المبشرين لبعض أحداث حياة المسيح؟ هؤلاء الذين كانوا يهدفون إلى الدفاع عن وجهات نظر شخصية. كيف ندهش لحذف بعض الأحداث؟ كيف ندهش للطابع الروائي في بعض الأحداث الأخرى؟

هذا يؤدي بنا إلى مقارنة الإنجيل بالشعر الملحمي في أدب القرون الوسطى، هذا ما توحي به حقاً تلك المقارنة مع «ملحمة رولان» وهي أكثر الملاحم شهرة، تلك التي تقص في شكل روائي حدثاً وقع بالفعل. هل يعرف القارئ أن هذه الملحمة تقص حدثاً حقيقياً: كمين وقع فيه ظهر جيش شارلمان الذي كان يقوده رولان بممر رنسفو؟ إن هذا الحدث ذو أهمية ثانوية قد وقع

في قول الحولية التاريخية (إيجنهارد Eginhard في 15 أغسطس عام 778م). ولقد تم تضخيم هذا الحدث حتى وصل إلى أبعاد أمر حربي. معركة في حرب مقدسة، إن الرواية خيالية. لكن هذا الخيال لا يحجب حقيقة إحدى معارك شارلمان التي قام بها ليُؤمِّن حدوده ضد تسلل الشعوب المجاورة: تلك هي الصحة والشكل الملحمي للرواية لا يمحوها.

ونفس الشيء بالنسبة للأناجيل؛ فخيالات متي والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل والأمور غير المعقولة وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث والتحريفات المتوالية للنصوص، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده؛ لكن هذه العيوب لا تضع وجود رسالة المسيح موضع الشك؛ فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التي جرت بها.

القرآن والعلوم الحديثة

مدخل

من البديهي أن يثير الجمع بين القرآن والعلم الدهشة، وخاصة أن المقصود في علاقة الجمع هذه هو التوأم بين الاثنين وليس التنافر. ألا يرى الكثيرون في مواجهة كتاب ديني بالمعطيات الوضعية التي ينتمي العلم إليها أمراً بدعياً في عصرنا. . . ؟ الواقع أننا إذا استثنينا اليوم بعض الحالات النادرة نجد أن غالبية العلماء، وقد اعتمدوا النظريات المادية، لا يكنّون في غالب الأحيان إلا عدم الاكتراث أو الاحتقار للمسائل الدينية، وكثيراً ما يعتبرونها مؤسسة على أساطير. وزيادة على ذلك فإننا عندما نتحدث في بلادنا الغربية عن العلم والدين، نغفل ضم الإسلام إلى اليهودية والمسيحية، فالأحكام غير الصحيحة المؤسسة على مفاهيم مغلوطة والتي صدرت ضد الإسلام هي من الكثرة بحيث يصعب جداً على المرء أن يكّون فكرة سليمة عما عليه الإسلام في الواقع.

لذلك فإذا أردنا اليوم أن نُقدم لأية مواجهة بين الإسلام والمعارف فإنه يبدو لنا من الضروري أن نُقدم عن الإسلام لمحة عامة، ذلك الإسلام الذي طالما أُسيء فهمه في بلادنا.

إن الأحكام المغلوطة التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه العامد حيناً آخر، ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة هي الإباطيل التي تخص الأمور الفعلية، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافي الحقيقة. بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ في أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة برغم أن مؤلفي هذه المؤلفات

هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء. وإليكم مثالاً على ذلك: في دائرة المعارف أونيفرساليس الجزء السادس، تحت عنوان «الأناجيل» نجد إشارة لاختلاف الأناجيل عن القرآن، يقول المؤلف: «إن المبشرين لا يدعون، كما يفعل القرآن، نقل سيرة ذاتية أملاها الله بشكل معجز على محمد ﷺ». وحقيقة الأمر ألا صلة هناك بين القرآن وما يسميه المؤلف «بالسيرة الذاتية»؛ القرآن رسالة. ولو كان المؤلف قد استعان حتى بأسوأ ترجمة للقرآن لثبت له ذلك. إن الدعوى تنافي الواقع هي الأخرى تماماً مثل الدعوى التي تعرف الإنجيل بأنه سيرة ذاتية مبشر، إن المسؤول عن هذه الأكذوبة الخاصة بالقرآن أستاذ بجامعة اليسوعيين اللاهوتية بمدينة ليون؛ إن نشر أكاذيب من هذا النوع يساهم في إعطاء صورة زائفة عن القرآن والإسلام.

ومع ذلك فهناك أسباباً تدعو للتفاؤل، لأن الأديان لم تعد اليوم منطوية على نفسها، وكثيرون يبحثون عن التفاهم المتبادل. وإنه لمما يبعث على التقدير ما يحدث اليوم على أعلى مستويات المناصب الرسمية؛ حيث يجتهد مسيحيون كاثوليكيون في إرساء أواصر الصلة مع المسلمين ويحاولون مكافحة عدم الفهم ويبذلون ما في وسعهم لتصحيح وجهات النظر غير الصحيحة المنتشرة عن الإسلام.

لقد تحدثت في مقدمة هذا الكتاب عن التغيير الكبير الذي حدث في السنوات الأخيرة فذكرت وثيقة صادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين وعنوانها «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين».

إنها وثيقة شديدة الدلالة على المواقف الجديدة التي تبنيها إزاء الإسلام. ففي الطبعة الثالثة لتلك الدراسة، عام 1970، تطالب هذه التوجيهات «بمراجعة مواقفنا إزاء الإسلام وبنقد أحكامنا المسبقة»، و«علينا أن نهتم أولاً بأن نغير تدريجياً من عقلية إخواننا المسيحيين، فذلك يهم قبل كل شيء». ويجب

التخلي «عن الصورة البالية التي ورثنا الماضي إياها أو شوهتها الفريات والأحكام المسبقة»، كما «يجب الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي في حق المسلمين»[1]. بهذا الشكل تقوم وثيقة الفاتيكان ـ التي تحتوي على مائة وخمسين صفحة تقريباً ـ ببسط ودحض نظرات المسيحيين الكلاسيكية عن الإسلام، كما أنها تقدم عرضاً لما عليه الإسلام في الواقع.

وتحت عنوان «أن نتحرر من أكثر أحكامنا المسبقة جسامة» وجّه مؤلفو هذه الوثيقة أيضاً الدعوى التالية إلى المسيحيين: «هنا أيضاً علينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا، نقول ذلك ونحن نفكر بالذات في بعض الأحكام المتهورة التي كثيراً ما نصدرها باستخفاف على الإسلام. ويبدو لنا هاماً وأساسياً أن نكف عن أن ننمي في مكنون قلوبنا النظرات المتسرعة بل التحكمية، تلك التي لا يتعرف فيها المسلم المخلص على نفسه».

هناك واحدة من تلك النظرات التعسفية على قدر بالغ من الأهمية فهي تقود إلى الاستخدام المنهجي في لغتنا لكلمة Allah للدلالة على إله المسلمين في الفرنسية، كما لو كان المسلمون يعبدون إلهاً غير إله المسيحيين. إن كلمة

---

(1) كان كل شكل من أشكال معاداة الإسلام. حتى وإن صدر عن أعداء صريحين للكنيسة. كان يتلقى في فترة ما تأييداً «حاراً» من كبار شخصيات الكنيسة الكاثوليكية.

فالبابا بينوا الرابع عشر *Benoit XIV* الذي اشتهر بكونه أكبر حبر في القرن الثامن عشر.. لم يتردد في مباركة فولتير. كان يريد بهذا أن يشكر فولتير لانه أهداه مسرحيته التراجيدية، «محمد أو التعصب» (1741). وهي مسرحية هجائية فجة يستطيع أن يكتب مثلها، وفي أي موضوع، أي كاتب محترف مرتزق وسيئ الضمير. وقد لقيت المسرحية. برغم بدايتها العسيرة، صيتهاً سمح لها بأن تسجل في قائمة مؤلفات مسرح الكوميدي فراسبير.

Dieu تعني بالعربية الله تعالى، والمقصود بها الله الواحد. ذلك يعني أن النقل الصحيح للكلمة إلى الفرنسية لا يستقيم إلا بالاستعانة بكلمة Dieu فالله عند المسلم ليس سوى رب موسى والمسيح.

إن وثيقة سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين تؤكد على هذه الحقيقة الأساسية بالألفاظ التالية: «نرى باطلاً أن نتمسك مع بعض الغربيين بأن الله ليس هو إله حقيقة. . !» ولقد أدانت نصوص مجمع أساقفة الفاتيكان الثاني مثل هذا الزعم. وإذا أردنا أن نصف إيمان المسلمين بالله فلن نفعل بأحسن من تلك العبارات بكتاب[1] Lumen Gentium إن المسلمين الذين يؤمنون بإبراهيم يعبدون معناً إلهاً واحداً هو الرحيم، ديّان البشر في اليوم الآخر. . .».

من هنا يتضح لنا احتجاج المسلمين على العادة شديدة الشيوع وهي النقل الحرفي في اللغات الأوربية للفظة الله Allah بدلاً من الترجمة بكلمة Dieu للفرنسية. لقد امتدح مثقفون مسلمون ترجمة د. ماسون للقرآن لأنها كتبت أخيراً Dieu بدلاً من كلمة Allah.

ويشير نص الفاتيكان إلى أن «الله هي الكلمة الوحيدة العربية عند المسيحيين المتحدثين بالعربية للدلالة على الله الواحد».

إن المسلمين والمسيحيين يعبدون إلهاً واحداً.

وتتناول وثيقة الفاتيكان بعد ذلك بالنقد الأحكام الأخرى الخاطئة الصادرة عن الإسلام:

«فالجبرية في الإسلام»، ذلك الحكم المسبق واسع الانتشار، تدرسه

---

(1) عنوان وثيقة مجمع أساقفة الفاتيكان الثاني (1962ـ1965).

الوثيقة وتستعين بذكر آيات من القرآن لتعارضهم بمفهوم مسؤولية الإنسان الذي سيحكم عليه بما فعل. وتبين الوثيقة خطأ المفهوم القائل بحرفية القواعد الإسلامة وتعارضه بالمفهوم القائل بالإخلاص في الإيمان وذلك بذكر ما ظل يجهله الغربيون عن عبارتي القرآن.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ (٢٥٦) ﴾ [البقرة].

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ (٧٨) ﴾ [الحج].

الوثيقة تعارض الفكرة الشائعة عن الإسلام كدين الخوف بالإسلام دين الحب، حب الإنسان المتأصل في الإيمان بالله. إنها تدحض الفكرة التي نشرت خطأ والتي تقول بعدم كفاية الأخلاق الإسلامية وتدحض أيضاً الفكرة الأخرى التي نشرها كثير من اليهود والمسيحيين عن تعصب الإسلام، وهي تعلق على ذلك بالألفاظ التالية: «الواقع أن الإسلام، عبر التاريخ، لم يكن أكثر تعصباً من المسيحية عندما كانت الديانة المسيحية تكتسب، بشكل أو بآخر، في هذه المدينة قيمة سياسية». وهنا يستشهد المؤلفون بتعابير القرآن التي تبين أن ما يترجمه الغربيون خطأ «بالحرب المقدسة»[1] يقال باللغة العربية «الجهاد في

---

(1) هناك بعض المترجمين، بل أكثر مترجمي القرآن شهرة، من لم يفلت من تلك العادة المتأصلة، عادة أن يضعوا في ترجماتهم ما لا يوجد في النص العربي الحقيقة، ودون تحريف للنص، يمكن إضافة عناوين غير موجودة في النص الأصلي، من شأنها أن تعدل المعنى العام. فهكذا ألحق ر. بلاشير R.Blachere في ترجمة الشهيرة عنواناً غير موجود في القرآن، فقد وضع العنوان التالي: «فروض الحرب المقدسة» على رأس فقرة تدعو دون أي جدال إلى حمل السلاح وإن لم يكن لها ذلك الطابع الذي ينسب إليها. كيف لا يقتنع القارئ الذي لا يقرأ القرآن إلا مترجماً بأن على المسلم فرض أداء «الحرب المقدسة».

سبيل الله»، أي بذل الجهد لنشر الإسلام والذوذ عنه من المعتدين عليه».
وتتابع وثيقة الفاتيكان قائلة: «ليس الجهاد مطلقاً ما يعرف بالـ Kherem في التوراة فالجهاد لا يسعى إلى الإبادة بل يسعى لأن يمد إلى مناطق جديدة حقوق الله والإنسان»، ولقد كانت أعمال العنف في حروب الجهاد في الماضي تخضع عموماً لقوانين الحرب. وفي عصر الحروب الصليبية لم يكن المسلمون دائماً هم الذين ارتكبوا أكبر المذابح».

والوثيقة تعالج أخيراً الحكم السابق القائل بأن الإسلام دين جامد يُبقي أتباعه في عصر وسيط بائد ويجعلهم غير مؤهلين للتكيف مع منجزات العصر الحديث التقنية». وهي تقارن مواقف مماثلة لوحظت في بعض البلاد المسيحية وتعلن «إننا نجد. . . في الفكر الإسلامي مبدأ لإمكانية تطور المجتمع المدني».

وإنني متأكد من أن دفاع الفاتيكان عن الإسلام سيثير دهشة كثير من معاصرينا سواء كانوا مسلمين أو يهود أو مسيحيين؛ فذلك إعلان يتميز بإخلاص وبروح انفتاح يتباينان بشكل فريد مع مواقف الماضي. ولكن كم هم قليلون حقاً الغريبون الذين عرفوا تلك المواقف الجديدة التي اتخذتها أعلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية.

ولكن عندما يعرف هذا الحدث فإن الدهشة تقل خاصة حين نعلم الأفعال والأحداث الفعلية التي صكت هذا التقارب، فقد كانت هناك أولاً الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين إلى جلالة الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية، ثم تلى ذلك استقبال البابا بولس السادس لكبار علماء العربية السعودية عام 1974 استقبالاً رسمياً. هنا نرى بوضوح أكثر الدلالة الروحية العظيمة لاستقبال غطبة الأسقف الشنجر Elchinger للعلماء بكاتدرائيته Strasbourg، ففي تلك الزيارة دعا الحبر

العلماء لأداء فريضة الصلاة ببهو كاتدرائيته وقد أدى هؤلاء الصلاة أمام المذبح متوجهين إلى القبلة.

وإذن فإذا كان ممثلو العالمين المسلم والمسيحي على أعلى المستويات يتفاهمون بهذه الكيفية في إخلاصهم لرب واحد وفي احترامهم المتبادل لاختلافهم ويتفقون على إقامة حوار ديني، أليس طبيعياً، والحال هذه، أن تُقام المقابلات بين مختلف جوانب الكتب المقدسة. إن موضوع المقابلة هنا هو دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعطيات العلمية والمعلومات المتعلقة بصحة النصوص، ويجب أن تقام هذه الدراسة على القرآن مثلما تم ذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل.

لم تكن العلاقات بين الأديان والعلوم متماثلة في كل الأماكن وعبر مختلفة الأزمنة. الأمر الذي لا جدال فيه هو أن ليست هناك أية إدانة للعلم في أي كتاب مقدس من كتب أديان التوحيد، ولكن عملياً، علينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمعة من السلطات الدينية لبعض الأديان؛ ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة، ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة، بمعارضة تطور العلوم. اتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الإجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافياً للموت حرقاً أو طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو، وفي هذا الشأن تُذكر دائماً قضية جاليليو الذي حوكم لأنه استأنف مكتشفات قوبرنيق الخاصة بدوران الأرض. ولقد أُدين جاليليو بسبب تفسير خاطئ للتوراة لأنه ليس هناك أي نص مقدس يمكن الاستشهاد به بشكل له قيمة ضد جاليليو.

أما في الإسلام فعموماً كان الموقف إزاء العلم مختلفاً؛ إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي يقول: «اطلب العلم ولو في الصين». أو ذلك الحديث الآخر الذي يقول إن طلب العلم فرض على كل

مسلم وكل مسلمة. هناك أمر رئيسي: القرآن، كما سنرى فيما بعد في هذا الجزء من الكتاب، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تماماً مع معطيات العلم الحديث. وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل.

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد بأنه لم يكن هناك في أي عصر من تاريخ الإسلام مسلمون اتخذوا موقفاً آخر إزاء العلم. فمن الثابت أنه قد أُسيِّ في بعض العصور فهم واجب التعلم وتعليم الآخرين، وأن في العالم الإسلامي كما في العوالم الأخرى، حاول البعض إيقاف التطور العلمي. ولكن علينا أن نتذكر أن في عصر عظمة الإسلام، أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية، في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة. ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد. وكان ابن رشد يُعلِّم بها. وبها أيضاً كان يتم تناقل العلم اليوناني، والهندي والفارسي، لهذا السبب كان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوربا للدراسة بقرطبة مثلما يحدث في عصرنا أن نسافر إلى الولايات المتحدة لتحصين وتكميل بعض الدراسات. ولكم هي كثيرة تلك المخطوطات القديمة التي وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة... ! ولَكَم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات (فالجبر عربي) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلى النباتات والطب (ابن سينا) إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم الأول مرة صفة عالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية. في ذلك العصر كان الناس أكثر تأثراً بالروح الدينية، مما هو عليه في عصرنا... ! ولكن ذلك لم يمنعهم من أن

يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين، لكن كان ينبغي على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك.

كانت البلاد المسيحية، في تلك الفترة من القرون الوسطى في ركود وتزمت مطلق، توقف البحث العلمي، ليس بسبب التوراة والإنجيل وإنما، وعلينا أن نكرر ذلك، بأيدي هؤلاء الذين كانوا يدَّعون أنهم خدام التوراة والإنجيل. وبعد عصر النهضة في أوربا، كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافسي الأمس وهذا الثأر مستمر حتى اليوم. لدرجة أن التحدث حالياً في الغرب عن الله في الأوساط العلمية يعتبر فعلاً علامة على الرغبة في التفرد؛ ولهذا الموقف تأثيره السيء على العقول الشابة (والمسلمة منها أيضاً). التي تتلقى تعليمنا الجامعي.

وكيف لا يكون الأمر هكذا وخاصة عندما نعرف المواقف المتطرفة التي اتخذها أبرز علمائنا. لقد حاول عالم بارز، حصل على جائزة نوبل في الطب، في السنوات الأخيرة حاول أن يجعلنا نقبل في كتاب له موجه للجمهور الواسع، بأن المادة الحية قد استطاعت أن تخلق نفسها بنفسها، وأن ابتداء من هذه المادة الحية الأولية، تشكلت كائنات حية منظمة لتنتهي إلى ذلك النظام المعجز، نظام الإنسان، وكل ذلك تحت التأثير ظروف خارجية متنوعة.

ألا يجب على معجزات المعرفة العلمية المعاصرة في ميدان الحياة أن تقود الإنسان الذي يتأمل إلى نتيجة عكسية تماماً؟ فذلك التنظيم الذي يتحكم في ميلاد الحياة وفي الحفاظ عليها، ألا يراه كل من يدرسه متزايداً في التعقد...؟ بل كلما ازدادت معرفة هذا التنظيم في تفاصيله أثار الإعجاب والدهشة. ألا تقود المعرفة به إلى اعتبار جانب الصدفة في ظاهرة الحياة أمراً يتناقص الاعتقاد بصحته؟ كلما تقدمنا في امتلاك العلم، وخاصة فيما يتعلق

بكل ما هو متناه في الصغر، ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق بلاغة. ولكن الإنسان بدلاً من أن يمتلى بالتواضع أمام هذه الوقائع ينتفخ تكبراً، هو يعتقد أن من سلطانه السخرية من فكرة الله كما يسخر بكل ما يجد على طريقه إذا حدث أن شكّل هذا عقبة أمام متعته وشهيته للتمتع. ذلك هو المجتمع المادي في تمام توسعه الآن في الغرب.

ما هي إذن القوى الروحية التي يمكن دفعها لمجابهة تلويث كثير من العلماء المعاصرين للفكر...؟

فأمام هذه الموجة المادية وغزو الإلحاد للغرب يظهر عجز المسيحية واليهودية عن الصمود، كل منها غارق في الحيرة، ألا نرى من عقد لآخر تناقصاً خطيراً في مقاومة ذلك التيار الذي يهدد باجتراف الكل..؟ إن المادي الملحد لا يرى في المسيحية الكلاسيكية إلا نظاماً ابتناه البشر منذ حوالي ألفي عام لإرساء سلطة لأقلية قليلة على بشر مثلها. ولن يجد في الكتب المقدسة المسيحية لغة تتشابه مع لغته ولو من بعيد. فهذه الكتب تحتوي على كثرة من الأمور التي لا تتفق مع المعطيات العلمية الحديثة ومن المتناقضات والأمور غير المعقولة بحيث انه يرفض النظر بعين الاعتبار إلى نصوص تريد غالبية علماء اللاهوت أن تقبلها على أنها كل لا ينفصم. وإذا ما حدثوه عن الإسلام فإنه يبتسم بغرور لا يماثله إلا جهله بالموضوع. وكمعظم المثقفين الغربيين، أياً كانت معتقداتهم الدينية، فإنه يملك عن الإسلام كماً هائلاً من الأفكار الخاطئة.

ومن وجهة النظر هذه فعلينا أن نسمح له ببعض الأعذار؛ أولاً، وباستثناء المواقف التي اتخذتها أعلى سلطات الكاثوليكية منذ عهد قريب، كان الإسلام في بلادنا ومنذ عهد طويل موضوع ما يسمى بالتشهير الأزلي، إن أي غربي قد امتلك معرفة عميقة للإسلام يعرف إلى أي حد شوه تاريخ الإسلام وعقيدته

وأهدافه. ثم علينا أن ندخل في حسابنا أن الوثائق المنشورة باللغات الغربية في هذا الموضع، باستثناء الدراسات الشديدة التخصص، لا تسهل مهمة البحث لمن يريد أن يتعلم.

الواقع أن معرفة ما أنزل على النبي ﷺ، من وجهة النظر هذه، أمر أساسي، ولكن الحادث هو أن هناك أجزاء من القرآن، وخاصة ما كان لها ارتباط بمعطيات العلم، قد ترجم بشكل سيئ، أو عُلق عليها بحيث يكون من حق العالم أن يدفع ـ وهو على حق في الظاهر، بانتقادات لا يستحقها القرآن في الواقع. وهناك نقطة جزئية تجدر الإشارة إليها فوراً، هذه الأخطاء الراجعة إلى الترجمة أو تلك التعليقات المغلوطة (وكثيراً ما يجتمع الاثنان) لم تكن تثير الدهشة منذ قرن أو اثنين، ولكنها اليوم تصدم رجل العلم، فأمام جملة سيئة تحتوي الترجمة لهذا السبب على دعوى غير مقبولة علمياً، يناقد العالم إلى أن يرفض النظر إليها بشكل جاد. وسنعطي في الفصل الخاص بالتناسل الإنساني مثالاً مميزاً لهذا النوع من الخطأ.

ما سبب أخطاء الترجمة تلك؟ إنها ترجع إلى أن المترجمين المحدثين يستعملون في أحيان كثيرة ودون روح نقدية كافة تفسيرات معلقين قدامى. وقد كان لهؤلاء في عصرهم عذر إعطاء تعريف غير دقيق لكلمة قد تكون متعددة المعاني. لم يكن باستطاعتهم فهم المعنى الفعلي للكلمة أو للجملة. فهناك من المعاني ما لم يظهر إلا في أيامنا فقط بفضل معارفنا العلمية، بمعنى آخر إننا نطرح بهذا الشكل ضرورة مراجعة الترجمات والتعليقات التي لم يكونوا قادرين على إنجازها بشكل ملائم في عصرها، على حين نملك الآن العناصر التي تستطيع أن تعطي المعاني الحقيقية. أما فيما يتعلق بنصوص التوراة والإنجيل فليس هناك مشاكل ترجمة من هذا النوع، فالحالة التي نستشهد بها هنا تخص القرآن وحده.

لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية؛ فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالاسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة. وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي؛ حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعنى به دين أسسه رجل؛ وبالتالي فهو دين عديم القيمة تماماً إزاء الله. وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظاً بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهي على درجة من الانتشار بحيث إنني أُدهش دائماً حين ألتقي خارج المتخصصين، بمحدثين مستنيرين في هذه النقاط. أعترف إذن بأنني كُنت جاهلاً قبل أن تُعطى لي عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التي تلقيناها في الغرب.

وإذا كنت قد توصلت إلى إدراك زيف الأحكام الصادرة عامة في الغرب عن الإسلام فإني مدين بذلك إلى ظروف استثنائية، ففي المملكة العربية السعودية نفسها أعطيت عناصر التقييم التي أثبتت لي درجة الخطأ في بلادنا عن الإسلام.

وسأظل مدنياً بالعرفان وبشكل لا حد له للمغفور له جلالة الملك فيصل الذي أحيى ذكراه باحترام عميق، سيظل محفوراً في ذاكرتي دائماً أن كان لي الشرف الأثير أن أستمع إليه يتحدث عن الإسلام وأن أذكر في حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن في ارتباطها مع العلم الحديث. إن كوني قد تلقيت معلومات قيمة من جلالته نفسه ومن حاشيته ليشكل بالنسبة لي امتيازاً خاصاً.

وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقناها عنه في بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، وذلك حتى أكون قادراً على التقدم في دراسة هذا الدين

الذي يجهله الكثيرون. كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية: وتناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكوِّن عنها أدنى فكرة. ولقد قرأتُ إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كُتاب مسلمون للجوانب العلمية في نص القرآن، ولقد أتت إلى تلك المؤلفات بعناصر تقييم هامة ولكني لم أكتشفه بعد أي دراسة شاملة منجزة في الغرب في هذا الموضوع.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضواعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ؛ وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟ ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول (سيعالج الفصل التالي من هذا الجزء الثالث المشكلة). ما هو التعليل الإنساني الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة. في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات.

ومن الثابت فعلاً أن في فترة تنزيل القرآن، أي تلك التي تمتد على عشرين عاماً تقريباً، قبل وبعد عام الهجرة (622 م) كانت المعارف العلمية في مرحلة ركود منذ عدة قرون، كما أن عصر الحضارة الإسلامي النشط مع الازدهار العلمي الذي واكبها كان لاحقاً لنهاية تنزيل القرآن. إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذي يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذي سمعت بعضهم يصوغونه أحياناً والذي يقول: إنه إذا كان في القرآن دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم، وأن محمداً ﷺ بالتالي قد استلهم دراساتهم. إن من يعرف، ولو يسيراً، تاريخ الإسلام ويعرف أيضاً أن عصر الإزدهار الثقافي والعلمي في العالم العربي في القرون الوسطى لا حق لمحمد ﷺ ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية؛ فلا محل لأفكار من هذا النوع وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصاغة بشكل بَيِّن تماماً في القرآن لم تتلق التأييد إلا في العصر الحديث.

من هنا ندرك كيف أن مفسري القرآن (بما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم)، قد أخطأوا حتماً وطيلة قرون، في تفسير بعض الآيات التي لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق، إن ترجمة هذه الآيات وتفسيرها بشكل صحيح لم يكن ممكناً إلا بعد ذلك العصر بكثير، أي في عصر قريب منا؛ ذلك يتضمن أن المعارف اللغوية المتبحرة لا تكفي وحدها لفهم هذه الآيات القرآنية. بل يجب، بالإضافة إليها، امتلاك معارف علمية شديدة التنوع. إن دراسة كهذه هي دراسة انسيكلوبيدية تقع على عاتق تخصصات عدة. وسندرك، كلما تقدمنا في عرض المسائل المثارة، تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم معنى بعض آيات القرآن.

ومع ذلك فليس القرآن كتاباً يهدف إلى عرض بعض القوانين التي تتحم في الكون، إن له هدفا دينياً جوهرياً، وأوصاف القدرة الإلهية هي المناسبة الرئيسية في توجيه الدعوات للبشر أن يتأملوا في أعمال الخلق. وتصاحب هذه الدعوات إشارات إلى أمور يمكن للملاحظة الإنسانية أن تدركها، أو قوانين عرّفها الله ـ تلك التي تسود انتظام الكون ـ في ميدان علوم الطبيعة وفيما يخص الإنسان على حد سواء. وهناك جزء من هذه الأقوال يسير الفهم ولكن هناك جزء آخر لا يمكن إدراك دلالته إلا إذا كان المرء يملك معارف علمية لازمة لهذا. ذلك يعني أن إنسان القرون السالفة لم يكن باستطاعته إلا أن يتبين في هذا الجزء من الآيات معنىً ظاهراً قاده في بعض الأحوال إلى استخراج نتائج غير صحيحة وذلك بسبب عدم كفاية معرفته في العصر المعنى به.

وربما بدت الآيات القرآنية المنتقاة من أجل دراسة جوانبها العلمية محدودة أكثر مما ينبغي في نظر الكُتاب المسلمين الذين نبهوا من قبل إلى هذه الأمور؛ ففي مجموع الأمر أعتقد أنني قد احتفظتُ بعدد من الآيات أقل قليلاً مما اختاروه، ولكن يبدو لي أنني في مقابل هذا، قد أبرزت بعض آيات لم تُعط لها من قبل الأهمية التي تستحق من وجهة النظر العلمية. وإذا كنت قد أخطأت بأني لم آخذ في اعتباري، في هذه الدراسة، الآيات التي انتقوها فإنني أرجو ألا أكون محل قسوتهم. لقد وجدت أنا أيضاً في بعض الأحيان وفي بعض الكتب تفسيرات علمية لا تبدو سديدة، وإنني أقدم لهذه الآيات تفسيراً شخصياً بروح متحررة تماماً وبنية خالصة.

ولقد بحثتُ أيضاً عما إذا كان في القرآن إشارات إلى ظاهرات يسهل على الإدراك البشري فهمها وإن لم تكن قد تلقت بعد توكيداً من العلم الحديث. من هذه الناحية أعتقد بأن القرآن يحتوي على إشارات بوجود كواكب في الكون تشبه الأرض وينبغي ألا ننسى أن كثيراً من العلماء يرون هذا الأمر معقولاً تماماً دون وجود معطيات حديثة قادرة على إعطاء أقل توكيد بهذا. لقد رأيت ان من

واجبي ذكر هذا ولكن مع كل التحفظات اللازمة ولو كنت قد قمت بدراسة كهذه منذ ثلاثين عاماً، لأضفت أمراً آخر يصرح به القرآن إلى ذلك المذكور فيما يخص علم الفلك وهو غزو الفضاء. ففي ذلك العصر وإثر أولى محاولات صواريخ الفضاء، تنبأ البعض بأنه ذات يوم سيملك الإنسان الوسائل المادية التي ستسمح له بالإفلات من الطبقة الجوية المحيطة بالأرض وباستكشاف الفضاء. في ذلك الوقت كان معروفاً أن هناك آية قرآنية تتنبأ بأن الإنسان ذات يوم سيحقق هذا النصر. وقد تم الآن التاكد من هذا.

إن المقابلة بين الكتب المقدسة والعلم تستعين بمعلومات تتصل بالحقيقة العلمية وذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل والقرآن. وحتى تكون هذه المقابلة ذات قيمة يجب أن تكون الحجة العلمية المعتمد عليها ثابتة تماماً وألا تكون محل جدال. إن الذين يتذمرون ويماطلون في قبول تدخل العلم في عملية تقييم الكتب المقدسة ينكرون أن العلم يستطيع أن يشكل مقياساً في مقارنة ذات قيمة (سواء كان المعنى التوراة والإنجيل اللذين لا يحتملان المقارنة بلا خسارة ـ وقد رأينا دواعي هذا ـ أو القرآن الذي لا يخشى عليه منها): فالعلم كما يزعمون متغير مع الزمن، وما يمكن قبوله اليوم قد يرفض غداً. هذا الرأي يتطلب التعديل التالي: يجب التفريق بين النظرية العلمية وبين الفعل موضوع الملاحظة والذي يمكن رصده بالشكل المطلوب. فغاية النظرية أن تشرح ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات عسيرة الفهم. النظرية تتغير في كثير من الأحوال، هي قابلة للتعديل أو لأن تحل نظرية أخرى محلها عندما يسمح التقدم العلمي بتحليل أحسن للأمور وبتصور شرح آخر أكثر قيمة. أما الفعل موضوع الملاحظة فهو على عكس ذلك إذ أنه غير قابل للتعديل، قد يمكن تعريف سماته بشكل أحسن ولكنه يظل على ما كان من قبل؛ فإثبات أن الأرض تدور حول الشمس والقمر حول الأرض فهذا ما لن يُرجع فيه أبداً، وقد يمكن في المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن.

إن تبصري بالطابع المتغير للنظريات هو الذي جعلني أستبعد، على سبيل المثال، آية قرآنية ظنّ أحد علماء الفيزياء المسلمين أنها تعلن عن مفهوم «ضد المادة Anti - Matiere وتلك نظرية مثار جدل حالياً. وعلى عكس هذا يمكن، وعن حق منح كل الانتباه لآية قرآنية تذكر الأصل المائي للحياة، وتلك ظاهرة، وإن كنا لن نقدر أبداً على التحقق منها، فهناك برغم ذلك عدة حجج تشهد في صالحها. أما فيما يتعلق بالأمور التي يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشري، فيمكن تماماً مقابلة مختلف المراحل الموصوفة في القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم.

ولقد اكتملت هذه المقابلة بين القرآن والعلم بمقارنتين أُخريين: من ناحية هناك المواجهة بين المعارف الحديثة ومعطيات التوراة والإنجيل المنصبة على نفس الموضوعات، ومن ناحية أخرى هناك المقارنة بين نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن، الكتاب الذي نزله الله على النبي ﷺ، ومعطيات الحديث أي كُتب أخبار وأقوال النبي ﷺ وهي مستقلة عن الكتاب المنزل.

وسيجد القارئ بالتفصيل في نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة روايات التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد، وقد خضع الكل للنقد العلمي؛ وعلى سبيل المثال فقد تم اختيار مسألتي الحلق والطوفان، واتضح بالنسبة لكل منهما عدم اتفاق العلم مع أقوال التوراة، ولكننا سنرى اتفاقاً كاملاً بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث. ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التي تجعل بالدقة أحد النصين مقبولاً علمياً في العصر الحديث، على حين تجعل الآخر غير مقبول.

هذه الملاحظة البيّنة ذات أهمية من الدرجة الأولى، ذلك أن اليهود والمسيحيين والملحدين في البلاد الغربية يجمعون على الزعم، وذلك دون

أدنى دليل بأن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن مُحاكياً التوراة، ويزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية في التاريخ الديني تعيد أقوال التوراة والإنجيل. مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذي يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خدع مُعاصريه باستلهامه للعهد القديم في أثناء تبشيره، فكل إنجيل متي، كما رأينا، يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم. أي مفسر هذا الذي تعنِ له فكرة أن ينزع عن المسيح صفته كرسول الله لذلك السبب؟ ومع ذلك فهكذا في الغرب يحكم على محمد ﷺ في غالب الأحيان، يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل. وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً في اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطي عن نفس الحدث روايات مختلفة. لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات. ثم يعلنون أنها متماثلة وبالتالي يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية. وسندرس هذه المسائل بالتفصيل فيما يتعلق بالحلق وبالطوفان.

إن مجموعات الأحاديث بالنسبة لمحمد ﷺ هي بمثابة الأناجيل بالنسبة للمسيح. إنها أخبار أفعال وأقوال النبي ﷺ وكُتابها ليسوا بشهود عيان، وذلك على الأقل بالنسبة لمجموعات الأحاديث المشهورة بصحتها وهي لاحقة بشكل جلي لعصر محمد ﷺ. إنها لا تؤلف بأي شكل من الأشكال كُتباً تحتوي على تنزيل مكتوب. ليست الأحاديث قول الله ولكنها تقص أقوال النبي ﷺ. في هذه الكتب المنتشرة جداً دعاوي تحتوي على أخطاء من وجهة النظر العلمية وخاصة فيما يتعلق بالوصفات الطبية. ولكن مَن الذي يستطيع أن يجزم بصحة هذه التصريحات التي تُنسب إلى النبي ﷺ. وبالطبع فإننا نضع جانباًة كل ما يمكن ان يخص المشاكل ذات الصبغة الدينية والتي لم ينظر إليها هنا فيما يتعلق بالأحاديث. هناك أحاديث مظنون في صحتها والعلماء المسلمون أنفسهم

يُناقشونها. وإذا كان الجانب العلمي لبعض هذه الأحاديث مذكوراً في هذا الكتاب فذلك، جوهريّاً، لإبراز ما يفرقها من وجهة النظر هذه عن القرآن، أي القرآن الذي لا يحتوي على أي دعوة علمية غير مقبولة. وكما سنرى فالفرق مذهل حقاً.

هذه الملاحظة الأخيرة تدحض فرض هؤلاء الذين يرون في محمد ﷺ مؤلفاً للقرآن. كيف يمكن لإنسان ـ كان في بداية أمره أمياً ـ ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة.

إن الاعتبارات التي ستتناول بالتفصيل في هذه الدراسة من وجهة النظر العلمية فقط ستقود إلى الحكم بعدم معقولية أن إنساناً يعيش في القرن السابع من العصر المسيحي قد استطاع أن يصدر عبر القرآن وفيما يتعلق بموضوعات متعددة أفكاراً لا تنتمي إلى أفكار عصره وتتفق مع ما أمكن إثباته بعد ذلم بقرون عديدة. في رأيي ليس هنالك تفسير وضعي للقرآن.

صحة القرآن

تاريخ تحريره

صحة القرآن التي لا تقبل الشك أو النقاش تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا نص العهد القديم ولا العهد الجديد. وقد عرضنا في الجزءين الأولين من هذا الكتاب لتعديلات العهد القديم والأناجيل قبل أن تصل إلينا بالحالة التي هي عليها اليوم. وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن لسبب بسيط وهو أن القرآن قد ثبت في عصر النبي ﷺ وسنرى كيف تمت عملية التثبيت هذه.

فيما يخص هذا الموضوع فالفروق التي تفصل القرآن عن الكتب المقدسة الأخرى لا ترجع مطلقاً، في جوهر الموضوع، إلى مسائل خاصة بالتاريخ، تلك التي يدفع بها البعض دائماً دون أن يهتموا بالظروف التي سادت تأليف كل من النصوص اليهودية المسيحية، ودون أن يهتموا بظروف تنزيل القرآن على النبي ﷺ ويزعم البعض أيضاً أن النص الذي يرجع إلى القرن السابع الميلادي يتمتع بفرص أكبر للوصول إلينا دون تحريف من نصوص أخرى قد يصل قدمها إلى خمسة عشر قرناً إضافياً. وإذا كانت الملاحظة سديدة فإنها لا تفي بالشرح، فهي تهدف إلى إيجاد العذر للتعديلات التي طرأت على النصوص اليهودية المسيحية عبر السنين أكثر مما تهدف للتأكد؛ ولم يتعرض النص القرآني، لأي تحريف من يوم أن أنزل على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا.

أما فيما يخص العهد القديم، فإن تعدد كُتّاب نفس الرواية، بالإضافة إلى تعدد المراجعات لبعض الكتب على عدة فترات قبل العصر المسيحي، هو من

أسباب الخطأ والتناقض. وأما فيما يخص الأناجيل، فلا يستطيع أحد أن يجزم بأنها تحتوي دائماً على رواية أمينة لرسالة المسيح أو على رواية لأعماله تتفق بدقة تامة مع الواقع. إن عمليات التحرير المتوالية تبين كما رأينا، افتقار هذه النصوص إلى الصحة، وزيادة على ذلك فليس كُتّاب هذه النصوص شهود عيان.

وبالمثل لا بد من التنويه إلى الفرق الواجب إقامته بين القرآن، أي: كتاب التنزيل المكتوب، وبين الأحاديث، أي: مجموعات روايات أعمال وأقوال محمد ﷺ. لقد شرع بعض الصحابة في كتابتها فور موت النبي ﷺ؛ وبالنظر إلى احتمال تسلل الخطأ البشري إليها، فقد أُعيدت مراجعتها بعد ذلك. إن أكثر النصوص الموثوق بها الآن يرجع عهدها إلى ما بعد موت النبي ﷺ بكثير. ودرجة صحة الأحاديث، مثل الأناجيل، متنوعة. وكما أنه لم يثبت أي إنجيل في عصر المسيح (فقد كتبت كلها بعد انتهاء رسالته على الأرض) فليس هناك أية مجموعة أحاديث قد تثبت نصوصها في عصر النبي ﷺ.

ويختلف الأمر بالنسبة للقرآن، ففور تنزيله، وأولاً بأول، كان النبي ﷺ والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب وكان الكَتَبَة من صحبه يدونونه؛ إذن فالقرآن يتمتع منذ البادية، بعنصري الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل. وظل الأمر هكذا حتى موت النبي ﷺ. وفي عصر لا يستطيع فيه الكل أن يكتب وإن كان يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تُقدر، وذلك لإمكانياتها التحقيق العديدة التي تعطيها ساعة التثبيت النهائي للنص.

لقد نزل القرآن على محمد ﷺ، ويبدأ التنزيل بالآيات الأولى من سورة العَلَقِ، وينقطع عندئذ لثلاث سنوات ليستأنف بعد ذلك طيلة عشرين عاماً حتى موت النبي ﷺ في سنة 632 ميلادية، أي قبل عشرة أعوام من الهجرة (622) وعشرة أخرى بعدها.

كانت الآيات هي أول آيات نزلت عليه (سورة العَلَقِ):

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[1].

ويشير الأستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته للقرآن أن أحد موضوعات أول الآيات التي نزلت على محمد ﷺ هو «مدح القلم باعتباره وسيلة إنسانية للمعرفة» ومن هنا يفهم «اهتمام النبي ﷺ بحفظ القرآن مكتوباً».

هناك نصوص تثبت صراحة أن ما قد أنزل على محمد ﷺ من القرآن قبل مغادرته مكة إلى المدينة (أي قبل عام الهجرة) كان مثبوتاً بالكتابة. وسنرى كيف أن القرآن نفسه يقرر هذا. فمن المعروف أن محمداً ﷺ وصحبه من حوله قد اعتادوا تلاوة النص المُنَزَّل. إذن فمن غير المعقول أن يشير القرآن إلى أمور لا تتفق مع الواقع، على حين يمكن التحققق منها لدى كتبة النص من صحب النبي ﷺ وهناك أربع سور تُشير إلى تسجيل القرآن قبل أن يغادر النبي ﷺ مكة عام 622، وهي:

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ [عبس].

وقد كتب يوسف علي في التعليقات على ترجمته للقرآن عام 1934م: أنه كان يوجد، ساعة تنزيل هذه السورة، اثنان وأربعون أو خمس وأربعون سورة أخرى بين أيدي مسلمي مكة (من مجموع كلي قدره مائة وأربع عشرة سورة).

---

(1) أثارت هذه الآيات الاضطراب في قلب محمد ﷺ. وسنعود فيما بعد إلى تفسيرها خاصة في علاقتها مع واقع أن محمد ﷺ لم يكن يعرف لا القراءة ولا الكتابة في تلك الفترة.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢ ﴾ [البروج].

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾ [الواقعة].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [الفرقان].

والمقصود هنا الإشارة إلى اتهامات أعداء النبي ﷺ له بالكذب والادعاء؛ فقد كانوا يشيعون أن أساطير الأولين كانت تُملى عليه وأنه بدوره اكتتبها (الكلمة مثار جدل ويمكن أن تعني أنه كان يكتب أو يُستكتب ولكن ينبغي أن نتذكر أن محمداً ﷺ كان أمياً). وأياً كان الأمر فالآية تشير إلى هذا التسجيل بالكتابة الذي ينوه به حتى أعداء محمد ﷺ.

وهناك سورة نزلت بعد الهجرة تُشير مرة أخيرة إلى تلك الصحائف التي كتبت عليها وصايا إلهية.

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾ [البينة].

هكذا يخبرنا القرآن نفسه بتسجيله في حياة النبي ﷺ. ومن المعلوم أنه كان حول محمد ﷺ كتبة عديدون، ومنهم زيد بن ثابت المشهور الذي خُلِّد اسمه.

ويصف الأستاذ حميد الله جيداً في مقدمة ترجمته للقرآن (1971) الظروف التي تم فيها تسجيل نص القرآن حتى وفاة النبي ﷺ يقول:

«تجمع المصادر على أن النبي ﷺ كان يدعو واحداً من صحابته المتأدبين كلما نزل جزء من القرآن ليمليه ويحدد في الوقت نفسه مكانة هذا الجزء الجديد في مجموع ما نزل عليه سلفاً. وتحدد الروايات أن النبي ﷺ كان يطلب إلى كاتبه بعد الإملاء أن يقرأ له ما كُتب حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون

ناقصاً. وهناك رواية أخرى مشهورة تقول بأن النبي ﷺ كان يتلو أمام جبريل في رمضان كل عام القرآن الذي أُنزل عليه إلى حينذآك، وأن جبريل قد استقرأ النبي ﷺ إياه مرتين في شهر رمضان السابق على وفاته. ومعلوم أيضاً أن المسلمين في عصر النبي ﷺ كانوا قد اعتادوا السهر في رمضان يسمعون القرآن كله في صلاة التراويح. وتضيف مصادر عديدة أن زيد بن ثابت، كاتب النبي ﷺ كان حاضراً عند آخر تجميع للنص؛ وهناك مصادر أخرى تتحدث عن كتبة آخرين عديدين».

وقد استخدمت أشياء متنوعة لإتمام أول تدوين للقرآن مثل: الرق والجلد والألواح الخشبية وعظام لوح البعير وأحجار الحفر الطرية.

ولكن محمداً ﷺ قد أوصى المؤمنين في الوقت ذاته بحفظ القرآن عن ظهر قلب؛ وذلك ما فعلوا بالنسبة لكل ما يُتلى منه عند الصلاة أو بالنسبة لجزء منه؛ وهكذا ظهر الحافظون الذين كانوا يعرفون كل القرآن حفظاً وينشرونه، ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج في حفظ النص بالكتابة وبالذاكرة.

وبعد موت النبي ﷺ بقليل (632م) طلب خليفته أبو بكر، أول خليفة للمسلمين، إلى زيد بن ثابت أول كاتب للنبي ﷺ أن يُعد نسخة من القرآن ففعل. ثم قام زيد بين ثابت، اتباعاً لمشورة عمر (ولم يكن خليفة بعد) باستشارة كل ما استطاع أن يجمع من وثائق بالمدينة: من شهادات الحافظين إلى نسخ الكتاب المكتوبة على أشياء مختلفة وفي حوزته بعض الخاصة، كل ذلك لتلافي أي خطأ ممكن في التسجيل. وهكذا أمكن الحصول على نسخة أمينة للكتاب.

وتقول لنا المصادر أن عمر، الذي ولَي أبا بكل في الخلافة سنة 634 م، هو الذي جعل من القرآن مصحفاً واحداً. وقد احتفظ به وأعطاه عند موته إلى ابنته حفصة زوج النبي ﷺ.

ثم كلّف ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان، الذي مارس الخلافة من 644 إلى 655 ميلادية، لجنة من الخبراء بعمل المقابلة الكبيرة التي تحمل اسمه. لقد رصدت هذه المقابلة صحة الوثيقة المقامة في عهد أبي بكر والتي كانت في حوزة حفصة حتى ذلك الوقت. وقد استشارت اللجنة مسلمين يعرفون النص عن ظهر قلب. وقد تمت عملية تحقيق صحة النص هذه بمنتهى الدقة. ورؤي ضرورة مطابقة الشهادات وذلك لضبط أقل آية تسمح بأدنى جدل؛ ومن المعلوم أن بعض آيات القرآن قد تنسخ آيات أخرى تخص الفروض، وذلك أمر مفهوم تماماً إذا تذكرنا أن رسالة محمد ﷺ تمتد على عشرين عاماً تقريباً. هكذا إذن انتهى إلى نص تتبع السور فيه، كما يُعتقد اليوم، نفس النظام الذي اتبعه النبي ﷺ في تلاوته الكاملة له أيام شهر رمضان، كما رأينا أعلاه.

ورب سائل عن الأسباب التي قادت الخلفاء الثلاثة أبا بكل وعمر وعثمان بشكل خاص إلى القيام بتلك التجمعات والمقابلات؛ إنها أسباب بسيطة: فقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة في العقود الأولى التي تلت وفاة محمد ﷺ. وقد تم هذا الانتشار وسط شعوب كانت تتحدث بلغات غير العربية، وكان لابد من الاحتياطيات اللازمة لضمان انتشار النص في نقائه الأصلي؛ وكان ذلك هو هدف التحقيق الذي قام به عثمان.

وقد أرسل عثمان نُسخاً من هذا النص المحقق إلى مراكز الإمبراطورية الإسلامية؛ وهكذا، كما يقول الأستاذ حميد الله، توجد اليوم بطشقند وإستامبول نسخ تُنسب إلى عثمان. وإذا تنحينا جانباً ما قد يكون من أخطاء النسخ، فإن أقدم الوثائق المعروفة في أيامنا والتي وجدت في كل العالم الإسلامي تطابق كل منها الأخرى تماماً. كذلك الأمر أيضاً بالنسبة للمخطوطات التي في حوزتنا في أوربا (توجد بالمكتبة الوطنية بباريس قطع يرجع تاريخها،

حسب تقدير الخبراء، إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، أي إلى القرنيين الثاني والثالث من الهجرة). إن هذا الحشد من النصوص القديمة المعروفة متطابق كله فيما عدا بعض النقاط الطفيفة جداً التي لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص، برغم أن السياق قد يقبل أحياناً أكثر من إمكانية للقراءة، وذلك يرجع إلى أن الكتابة القديمة أبسط من الكتابة الحالية[1].

وقد رُتبت السور، وهي مائة وأربع عشرة سورة، حسب تناقص طولها ولكن مع بعض الاستثناءات. ولم يتقيد بالترتيب التاريخي للتنزيل، غير أنه معروف في غالب الأحوال، ثم هناك عدد كبير من الروايات المذكورة عبر أماكن متعددة من النص، وذلك ما يسبب بعد التكرار، غير أن هذا التكرار يضيف في أحيان كثيرة تفاصيل إلى رواية مذكورة بشكل غير كامل في مكان آخر. وكل ما يمكن أن تكون له صلة بالعلم الحديث موزع في الكتاب، ككثير من الموضوعات التي يعالجها القرآن، دون أي ترتيب واضح.

---

(1) إن عدم وجود نقاط الإعجام كان يسمح مثلاً بقراءة فعل متعد كما لو كان مبنياً للمجهول، وفي بعض الحالات بقراءة المذكر مؤنثاً. ولكن في غالب الأحيان، لم يؤد هذا إلى أية نتائج هامة فالسياق العام يثبت المعنى في عديد من الحالات.

خلق السماوات والأرض

نقاط الاختلاف والتوافق مع رواية التوراة[1]

يختلف القرآن عن العهد القديم في ذكر رواية الخلق. فبدلاً من الرواية الواحدة المستمرة نجد في أماكن متعددة من القرآن فقرات تذكر بعض جوانب رواية الخلق، وهي تشتمل على كثير أو قليل من التفصيلات حول أحداث الخلق. ولكي تكون هناك فكرة واضحة عن الطريقة التي سيقت بها هذه الأحداث، لابد من تجميع الفقرات المتناثرة في عدد هام من السور.

وليس تناثر روايات متعددة تختص بموضوع واحد خاص بروايات الخلق في القرآن. فالقرآن يعالج بهذا الشكل عديداً من الموضوعات الهامة، أكان المقصود ظاهرات دنيوية أو سماوية أو مسائل خاصة بالإنسان تهم رجل العلم. وسيجد القارئ في الصفحات التالية مجموعات الآيات الخاصة بكل موضوع من هذه الموضوعات.

يدعي كثير من المؤلفين الأوربيين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازي. إني أعتقد أن

---

(1) رواية التوراة هنا هي: الرواية المسماة بالكهنوتية التي تَحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب. أما الرواية المسماة باليهودية فهي: شديدة الإيجاز في نص التوراة الحالي، بحيث أنها لا تستحق الاعتبار في هذا المقام.

هذا مفهوم خاطئ فهناك اختلافات جلية؛ ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقاً من وجهة النظر العليمة نكتشف في القرآن دعاوى لا يجدي البحث عن معادل لها في التوراة. كما أن التوراة، من ناحية أخرى، تحتوي على معالجات تفصيلية لا معادل لها في القرآن.

إن التجانسات الظاهرية بين النصين معروفة جداً، فبين هذه التجانسات نجد في الوهلة الأولى أن ترقيم مراحل الخلق المتعاقبة هو نفسه في النصين؛ فأيام الخلق الستة في التوراة تعادل الأيام الستة في القرآن. ولكن المشكلة، في الواقع، أكثر تشابكاً وتستحق وقفة عندها.

المراحل الست للخلق

تذكر رواية التوراة، ودون أي غموض، تمام الخلق في ستة أيام يتبعها يوم الراحة، يوم السبت، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع. ولقد رأينا أن طريقة الرواية التي استخدمها كهنة القرن السادس قبل الميلاد تستجيب لنيات الحض على ممارسة سبت الراحة: فعلى كل يهودي أن يستريح يوم السبت[1] كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة.

إن كلمة (يوم) كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس أو غروبين متوالين وذلك بالنسبة لسكان الأرض. إن اليوم، وقد تحدد بهذا المعنى، يرتبط وظيفياً بدوران الأرض حول نفسها. وواضح تماماً أنه من المستحيل منطقياً أن نتحدث عن (الأيام)، بهذا المعنى الذي تحدد، على حين أن العملية المركبة التي ستؤدي إلى ظهورها، أي وجود

---

(1) أتت كلمة (سبت) من فعل في العبرية يعني الارتياح.

الأرض ودورانها حول الشمس، لم تكن قد أُنشأت بعد عند أولى مراحل الخلق وذلك بحسب رواية التوراة. لقد أشرنا إلى هذه الاستحالة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

أما إذا رجعنا إلى نصوص غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها ـ بالتجانس مع ما تعلمنا التوراة به ـ أن القرآن يقول هو أيضاً بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام، لا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة (يوم) بالكلمة المعادلة لأكثر المعاني شيواعاً للكلمة العربية. وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة ما دمنا نقرأ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وقليلة حقاً ترجمات القرآن أو التعليقات التي تنبه إلى أن كلمة أيام، في الواقع، يجب أن تفهم على أنها تعني (مراحل). بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق في (أيام) فقد كان ذلك يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل، من يهود ومسيحيين في فجر الإسلام، يعتقد به وذلك تجنباً لمجابهة اعتقاد منتشر.

الواقع، ودون أي رفض مطلق لهذه الطريقة في الرؤية، ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر، وأن نفحص المعاني الممكنة في القرآن نفسه وفي لغة العصر عامة لتلك الكلمة التي يستمر عدد من المعلقين في ترجمتها بـ (يوم) (الجمع أيام).

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها في اليوم التالي. أما إذا جمعت فلا تعني فقط أيام أي وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، بل تعني أيضاً دهراً طويلاً أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت. ومن ناحية أخرى فمعنى «فترة

زمنية» التي يمكن للكلمة أن تدل عليها موجودة أيضاً في القرآن. ففي سورة السجدة نقرأ ما يلي: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ﴾ [السجدة].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على الآية 5 تذكر بالتحديد الخلق في ستة (أيام).

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ ﴾ [المعارج].

وكون أن كلمة يوم كان يمكن أن تدل على فترة زمنية تختلف تماماً عن تلك التي نعطيها لمعنى (اليوم) قد بهر كثيراً من المفسرين القدامى الذين كانوا لا يملكون بالطبع أي معارف من تلك التي نملكها اليوم عن مدة مراحل تكون الكون. فبهذا الشكل في القرن السادس عشر الميلادي، ظن أبو السعود. الذي لم يكن يملك معرفة عن اليوم كما يحدده علم الفلك بالاستناد إلى دورة الأرض. أن من الواجب تصور تقسيم «مراحل» ليس إلى أيام بالمعنى الذي نفهم عادة بل إلى «نوبات».

وهناك مفسرون محدثون قد أخذوا بهذا التفسير. فيوسف علي (1934) في تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على اعتبار أن الكلمات التي تُفسر في سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا في الواقع بمعنى (فترات طويلة) أو (عصور).

فمن حقنا إذن أن نقبل، فيما يتعلق بخلق العالم، يقول القرآن ضمناً بفترات زمنية طويلة رقمّها بالعدد 6. ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعلميات المعقدة التي أدت إلى تشكيل العالم هو ستة مراحل، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترة زمنية طويلة جداً، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئاً تافها.

إن واحدة من أطول فقرات القرآن التي تتناول الخلق تذكر ذلك، واضعة جنباً إلى جنب رواية خاصة بأحداث دنيوية وأخرى سماوية. إنها الآيات من 9 إلى 12 في سورة فصلت.

(يقول الله للنبي ﷺ):

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت].

هذه الآيات الأربعة من سورة فصلت تقدم جوانب متعددة سنعود إليها: نعني الحالة الغازية الأولية للمادة السماوية والتعريف الرمزي للسماوات بالعدد 7. وسنرى معنى الرقم. ورمزي أيضاً الحواريين الله من جانب والسماء والأرض البدائيين من ناحية أخرى، المقصود هنا هو التعبير عن خضوع السماوات الأرض للأوامر الإلهية بعد تشكلها.

لقد رأى بعض النقاد في هذه الفقرة تناقضاً مع التصريح القائل بفترات الخلق الستة. ذلك أنه إذا جمعت فترتا تشكيل الأرض والفترات الأربع الخاصة بتوزيع أسباب الرزق لسكانها وفترتا تشكل السماوات تنتهي إلى ثماني فترات وهذا يناقض الفترات الست المعروفة أعلاه.

الواقع أن هذا النص الذي يدعو الإنسان لتأمل القدرة الإلهية، ابتداء من الأرض وحتى يكمل تأمله الخاص بالسماوات. يقدم جزأين معطوفين بكلمة (ثم) التي تعني (زيادة على ذلك)، وإن عنت أيضاً (من بعد) أو (ما يلي) كما

قد تعني (فضلاً عن ذلك). الكلمة قد تتضمن إذن معنى ترتيب ينطبق على سلسلة متوالية من الأحداث أو على ترتيب في تأمل الإنسان في الأحداث المشار إليها هنا. وقد يكون المقصود أيضاً مجرد الإشارة إلى أحداث مرتبة جنباً إلى جنب دون نية إدخال معنى التوالي على هذه الأحداث. وأياً كان الأمر فتستطيع فترات خلق السماء أن تكون مصاحبة تماماً لفترتي خلق الأرض. وسندرس فيما بعد كيف يذكر القرآن العملية البدائية لتشكيل الكون، وسنرى كيف أن هذه العملية تنطبق معاً على السماوات والأرض بالاتفاق مع المفاهيم الحديثة. عندئذ يمكن إدراك الشرعية الكاملة لهذه الطريقة في تصور معية الأحداث المذكورة هنا.

ولا يبدو أن هناك تعارضاً بين الفقرة المذكورة هنا والمفهوم النابع من نصوص أخرى للقرآن تخص تشكل الكون في ست مراحل أو فترات.

القرآن لا يشير إلى ترتيب معين في خلق السماوات والأرض

في الفقرتين المذكورتين في القرآن تشير آية في إحداهما إلى خلق السماوات والأرض (سورة الأعراف: 7، الاية 54)، والأخرى إلى خلق الأرض والسماوات (سورة فصلت: 41، الآيات 9 ـ 12). لا يبدو إذن أن القرآن يحدد ترتيباً في خلق السماوات والأرض.

هناك عدد صغير من الآيات تشير إلى الأرض أولاً، كما هو الحال في سورة البقرة، الآية 29، وسورة طه، الآية 4، التي تشير إلى ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وعلى العكس من ذلك يوجد عدد أكبر من الآيات يشار فيها إلى السماوات قبل الأرض (سورة الأعراف 7، الآية 54، وسورة يونس 10 الآية 3، وسورة هود 11 الآية 7، سورة الفرقان ٢٥ الآية 59، سورة السجدة 32

الآية 4 وسورة ق 50 الآية 38، وسورة الحديد 57 الآية 4، سورة النازعات 79 الآيات 27 ـ 33، سورة الشمس 91 الآيات 5 ـ10).

الحقيقة باستثناء سورة النازعات، ليس في القرآن أي فقرة تحدد بشكل قاطع أي ترتيب: فحرف العطف (و) هو الذي يربط طرفي الجملة، أو كلمة (ثم) التي رأينا في الفقرة المذكورة أعلاه والتي قد تُشير إلى التوالي أو إلى مجرد وضع عنصر بجانب آخر.

وقد بدا لي أن هناك فقرة واحدة في القرآن تقرر بشكل واضح وجود ترتيب في أحداث الخلق ونعني بذلك الآيات: 27 ـ 33 من سورة النازعات:

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣) ﴾.

إن وصف نعم الله الدنيوية على الناس ذلك الذي يعبر عنه القرآن، في لغة تناسب مزارعاً أو بدوياً من شبه الجزيرة العربية، مسبوق بدعوة للتأمل في خلق السماء. ولكن المرحلة التي مد فيها الله الأرض وأخصبها تأتي بالتحديد زمنياً بعد إنجاز عملية توالي الليل والنهار. المذكورة هنا إذن هو مجموعتان من الظاهرات جزء منها أرضي والآخر سماوي، وقد حدث كلاهما في اتصال مع الآخر، وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظاهرات يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمد، وعليه فقد كانت موجودة حين نبي الله السماوات. وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيها الظاهرتان؛ وبناء عليه فلا يجب أن نرى أي دلالة خاصة في إشارة النص القرآني إلى خلق الأرض قبل السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض:

فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق في إطاره، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة.

عملية تشكل الكون الأساسية وانتهاؤها إلى تكوين العوالم

يقدم القرآن في آيتين خلاصة مركبة ومختصرة للظاهرات التي كونت العملية الأساسية لتشكل الكون.

سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

سورة فصلت، وفيها يدعو الله إلى التأمل في خلق الأرض ثم يأمر النبي ﷺ بأن يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

ويتبع ذلك الوصايا بالطاعة التي أُشير إليها أعلاه.

وسنعود فيما بعد إلى الأصل المائي للحياة وسندرس ذلك مع مشاكل بيولوجية أخرى مذكورة في القرآن. أما الآن فيجب الالتفات إلى ما يلي:

أ- الدعوى بوجود كتلة غازية ذات جزيئات. فكذلك يجب تفسير كلمة (دخان)، إذ يتكون الدخان عموماً من قوام غازي حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو حتى السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر.

ب- الإشارة إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة (يقول القرآن الرتق)، ولنحدد جيداً أن «فتق» هو فعل القطع أو فك اللحام أو الفصل، وأن «رتق» فعل اللحام ووصل العناصر بهدف تكوين كل.

هذا المفهوم في تفصيل الكل إلى أجزاء يتحدد بشكل دقيق في فقرات أخرى من القرآن وذلك بذكر عوالم متعددة. إن الآية الأولى من أول سورة في القرآن بعد فاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

ويتكرر تعبير (العالمين) عشرات من المرات في القرآن. وكذلك السماوات فهي تُذكر باعتبارها متعددة، وليس ذلك فقد في صيغة الجمع بل تُذكر أيضاً مع ترقيم رمزي وذلك بالاستعانة بالعدد 7».

الرقم 7 مستخدم 24 مرة في كل القرآن لتعدادات مختلفة، وكثيراً ما يعني التعدد دون أن نعرف بشكل محدد سبب هذا الاستخدام بذلك المعنى. إن الرقم 7 يبدو عند اليونان والرومان وكأن له نفس معنى التعدد غير المحدد. وفي القرآن يعود الرقم 7 على السماوات بمعناها الصرف سبع مرات. كما يُشير الرقم مرة واحدة بشكل ضمني إلى السموات. كما يشير مرة واحدة إلى طرق السماء السبعة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون].

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۝٣﴾ [الملك].

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾[1] [نوح].

---

(1) يلاحظ أن القمر والشمس مذكوران دائماً في التوراة على أنهما منيران. أما القرآن، فيشير إليهما دائماً بشكل مختلف؛ إذ يصف الأول (بالنور)، على حين =

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ].

السراج الوهاج هنا هو الشمس.

بالنسبة لكل هذه الآيات يجمع مفسرو القرآن على أن الرقم (7) يشير إلى تعدد دون تحديد آخر[1].

السماوات إذن متعددة وكذلك الكواكب المشابهة للأرض. وليس أقل ما يثير دهشة قارئ القرآن في العصر الحديث أن يجد في نص من هذا العصر تصريحاً بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض في الكون، وهذا ما لم يتحقق منه الناس بعد في عصرنا.

تقول الآية 12 من سورة الطلاق: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾.

وبما أن الرقم (7) يشير إلى تعدد غير محدود، فيمكن استنتاج أن النص القرآني يشير بوضوح إلى أنه لا يوجد إلا الأرض فقط، أرض البشر، بل هناك في الكون كواكب أخرى تشبه الأرض.

سبب آخر لإثارة دهشة قارئ القرآن في القرن العشرين: تلك الآيات التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات وهي:

= يقارب الثانية في الآية بالسراج الذي ينتج الضوء. وسنرى فيما بعد تطبيقاً لصفات أخرى على الشمس.

(1) إلى جانب القرآن وفي نصوص عصر محمد ﷺ أو في نصوص القرون الأولى التالية التي أوردت أحاديث محمد ﷺ نجد أن الرقم (7) كثيراً ما يُستخدم لمجرد الدلالة على التعدد.

ـ تلك التي توجد في السماء.
ـ تلك التي توجد على الأرض.
ـ تلك التي توجد بين السماوات والأرض.

وإليكم بعض هذه الآيات:

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾ [طه].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ۝٥٩ ﴾ [الفرقان].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ ﴾[1] [ق]. إن الإشارة في القرآن إلى (قرآن) موجودة في الآيات التالية:

سورة الأنبياء ـ الآية 16، سورة الدخان ـ الآيتان 7و38، سورة النبأ ـ الآية 37، سورة الحجر ـ الآية 85، سورة الأحقاف ـ الأية 3، سورة الزخرف ـ الآية 85.

بديهي قد يبدو هذا الخلق خارج السموات وخارج الأرض والذي أشير إليه مرات عدة، قد يبدو قليل التصور. ولكن، لكي تفهم معاني تلك الآيات يجب الاستعانة بأحدث الملاحظات البشرية حول وجود مادة كونية (خارج المجرات) (Extra-galactique) كما يجب، لنفس هذا السبب، أن نتناول من جديد المعارف التي أثبتها العلم المعاصر حول تشكل الكون ـ منتقلين في ذلك من الأبسط إلى الأعقد ـ وسيكون هذا موضوع الفقرة التالية.

---

(1) تبدو هذه المقولة التي تصرح بأن الخلق لم يتعب الله مطلقاً. تبدو كأنها رد واضح على فقرة رواية التوراة التي ذكرناها في بداية هذا الكتاب. . . والتي تقول بأن الله قد استراح في اليوم السابع بعد العمل الذي أنجز في الأيام التي سبقت.

ولكن، قبل أن ننتقل إلى هذه التأملات العلمية الصرف، يحسن أن نلخص النقاط الأساسية التي يعلمنا بها القرآن فيما يتعلق بالخلق. بالاستناد إلى ما سبق فهذه النقاط هي:

1ـ وجود ست مراحل للخلق عموماً.

2ـ تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.

3ـ خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك.

4ـ تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.

5ـ وجود خَلقٍ وَسِيطٍ (بين السماوات والأرض).

بعض معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون

النظام الشمسي

تكون الأرض والكواكب التي تدور حول الشمس عالماً منتظماً تبدو أبعاده كبيرة بلا نهاية بالنسبة لمقياسنا الإنساني. إن الأرض على سبيل المثال، تبعد عن الشمس بمقدار 150,000,000كم تقريباً. تلك مسافة شاسعة بالنسبة إلى الكائن الإنساني، ولكنها تصغر جداً إذا قورنت بتموسط المسافة التي تفصل عن الشمس أكثر الكواكب بعداً عنها في المجموعة الشمسية أي كوكب «بلوتون». وتقدر هذه المسافة بما يعادل المسافة بين الأرض والشمس أربعين مرة تقريباً، أي ما يساوي 6 مليارات كم بالتقريب. إن ضعف هذه المسافة، أي ما يقارب 12 مليار كم، يمثل أكبر مسافة في النظام الشمسي. ويلزم الضوء الشمس ست ساعات تقريباً لكي يصل إلى كوكب بولوتون برغم أن الضوء

يقطع هذه الرحلة بسرعة رهيبة قدرها 300,000 كم/ ثانية. أما النجوم الكائنة على حدود العالم السماوي المعروف فتلزمها مليارات من السنوات، حتى يصل ضوءها إلينا.

المجـرات

إن الشمس، التي تعتبر الأرض أحد كواكبها التابعة مثلما تتبعها الكواكب الأخرى المحيطة بها، ليست هي نفسها إلا عنصراً ضئيلاً من بين حوالي مائة مليار من النجود تكون مجموعة تسمى بالمجرة. وفي أمسية من أمسيات الصيف الجميلة نستطيع أن نرى الفضاء مرصعاً بهذه النجوم التي تكون ما يسمى بمجرة اللبن. هذه المجموعة من النجوم تمثل أبعاداً عظيمة. إن الضوء يقطع كل المجموعة الشمسية في وحدات تقريبية من الساعات في حين يتطلب زمناً قد يصل إلى 90,000 سنة حتى يصل بين أقصى طرفي مجموعة النجوم الأكثر تكاثفاً التي تكون مجرتنا.

والمجرة هذه؛ برغم اتساعها العجيب، ليست إلا عنصراً صغيراً من السماء؛ إذ توجد خارج مجرتنا تكتلات ضخمة من النجوم مماثلة لمجرة اللبن. ولقد اكتشفت هذه التكتلات منذ أكثر من خمسين عاماً تقريباً. أي عندما استطاع الاستكشاف الفلكي أن ينتفع بأجهزة بصرية تساوي في كمالها تلك التي سمحت بإنجاز تلسكوب جبل ويلسون بالولايات المتحدة. وبهذه الطريقة أمكن تمييز تكتلات من المجرات كبيرة العدد بشكل عجيب كما أمكن تمييز مجرات منعزلة تقع على مسافات هي من البعد بحيث استلزم ذلك خلق وحدة خاصة تتكون من سنوات ضوئية. وتسمى هذه الوحدة (فَرسَخ نجمي) Parsec وتتكون من المسافة التي يقطعها الضوء في 3,26 سنة بسرعة 300,000 كم/ ثانية.

تكوين وتطور المجرات والنجوم والنظم الكوكبية:

ماذا كان يوجد في هذا الفضاء الشاسع الذي تحتله المجرات الآن؟ لا يستطيع العلم الحديث الإجابة عن هذا السؤال إلا ابتداء من فترة ما في تطور الكون ولا يستطيع حساب المدة التي تفصلنا عنها.

وبالنسبة للأزمنة السحقية التي يستطيع العلم الحديث أن يقول رأيه فيها، فإنه له كل الأسباب التي تدفعه لاعتبار أن الكون قد تشكل من كتلة غازية تتكون رئيسياً من غاز الهيدروجين، وثانوياً من غاز الهليوم بطيْ الدورة. وقد انقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد وكتل هي من الضخامة. بحيث يقدرها علماء الفلك بما يزيد على الكتلة الحالية للشمس بمقدار يتراوح من مليار إلى 100 مرة تقريباً. (تقدر الكتلة الحالية للشمس بما يزيد على كتلة الأرض بـ 300،000 مرة). وتعطي هذه الأرقام صورة لضخامة جزئيات هذه الكتلة الغازية الأولية التي ستولد منها المجرات.

ويجيء بعد ذلك تفتت آخر يكوّن النجوم. وعندئذ تظهر عملية التكثيف التي يدخل فيها تأثير كل من قوى التجاذب (فهذه الأجرام تتحرك كما تتزايد دورتها سرعة) والضغوط والحقول المغناطيسية والإشاعات. وتصبح النجوم براقة بانكماشها وبتحويل قوى التجاذب فيها إلى طاقة حرارية. وتدخل بعد ذلك ردود الأفعال الحرارية ـ النووية وبالامتزاج تتكون ذرات ثقيلة من الذرات الخفيفية، وبهذا الشكل يتحول الهيدروجين إلى هليوم ثم إلى كربون ثم إلى أوكسجين ثم في النهاية إلى الفلزات واللافلزات. هكذا هي حياة النجوم، ويصنع علم الفلك الحديث النجوم بحسب مرحلة التطور. والنجوم تموت أيضاً؛ فقد لوحظ آخر مرحلة تطور بعض النجوم انفجار إلى الداخل تتحول النجوم بعده بالفعل إلى (جثث).

إن الكواكب، والأرض على وجه خاص، قد أتت أيضاً من عملية انفصال بدأت من المركب الأصلي أي السديم الأولى. لقد بطل الجدال منذ ربع قرن في المعطية التي تقول بأن الشمس قد تكثفت في قلب السديم الفريد، وبأن الكواكب قد فعلت نفس الشيء داخل الأسطوانة السديمية التي كانت تحيط بها. وهناك ملاحظة ذات أهمية رئيسية بالنسبة لموضوع دراستنا هنا: نعني أن تكون العناصر مثل الشمس وتكون العنصر الأرضي لم يترادفا؛ هناك إذن تواز في التطور مع وحدانية في الأصل.

هنا يعطينا العلم معلومات عن العصر الذي وقعت فيه الأحداث التي ذكرناها.

فإذا كنا نقدر بحاولي 10 مليارات من السنوات قدم مجرتنا فإن تكون النظام الشمسي، بهذا الفرض، قد وقع بعد ذلك بأكثر قليلاً من 5 مليارات سنة. إن دراسة الإشعاع الذاتي الطبيعي تسمح بتاريخ عمر الأرض ولحظة تكون الشمس بـ 4,5 مليارات سنة بتحديد تقريبي يقل عن 100 مليون عام حسب تقدير بعض العلماء ويثير هذا التعيين الإعجاب، فإذا كانت المائة مليون من الأعوام تمثل زمناً طويلاً جداً فنسبة الخطأ الأقصى إلى الزمن الكلي هي 4,5/0,1 أي 2,2٪.

هكذا وصل إذن علماء الفلك إلى درجة عالية من المعرفة عن التطور العام لتكون النظام الشمسي، ويمكن تلخيصه كما يلي: تكثف وانكماش مادة غازية في حالة دوران، انفصال إلى أجزاء وضع الشمس والكواكب، ومنها الأرض[1]، في أماكنها. إن معطيات العلم عن السديم الأولى وطريقة انقسامه

---

(1) فيما يتعلق بالقمر فيعترف بانفصاله التدريجي عن الإرض إثر تباطؤ دورانه.

إلى كمية لا حصر لها من نجود مجتمعة في مجرات لا يسمح بأقل شك في شعرية المفهوم القائل بتعدد العوالم. لكن هذه المعلومات لا تؤكد بالتيقن بأنه قد يوجد في الكون ما قد يشبه الأرض من قريب أو بعيد.

مفهوم تعدد العوالم

ومع ذلك فإن علماء الفلك يعتقدون بنسبة كبيرة وجود كواكب تشبه الأرض. ذلك بالرغم من أنه لم يعد أحد يفكر بشكل معقول في إمكانية وجود ظروف عامة مشابهة لظروف الأرض على كوكب آخر داخل إطار المجموعة الشمسية. وإذا كان علينا أن نبحث عن تلك الظروف فيجب أن نبحث عنها خارج النظام الشمسي؛ فهناك من يعتبر أن وجود هذه الظروف خارج هذا النظام ممكن للأسباب التالية:

يرى البعض أن النصف المائة مليار نجم من مجرتنا لابد أن يكون لها، مثل الشمس، نظامها الكوكبي والحقيقة أن لهذه الخمسين ملياراً من النجوم دورتها البطيئة، مثل الشمس، وتلك خاصية تدعو إلى الاعتقاد بوجود كواكب تابعة في فلكها. إن البعد عن هذه النجوم هو من الكبر بحيث إنه لا يمكن ملاحظة هذه الكواكب التابعة التي يفترض وجودها وإن كان احتمال وجودها كبيراً بالنظر إلى بعض صفات مَدَار يَتَمَيَّزُ بها أي نَجم؛ إذ يدل التموج الخفيف في خط مدار النجم على وجود تابع كوكبي مرافق. ولهذا السبب يعتقد بأن لنجمة بارنار Barnatd رفيق كوكبي واحد، على الأقل تفوق كتلته كتلة المشتري، بل ربما كان لها تابعان. يقول ب. جيران P. Gurin. «كما هو واضح فالنظم الكوكبية منتشرة في الكون بصورة كبيرة. وليس النظام الشمسي والأرض فريدين...». ويستتبع ذلك «أن الحياة، مثل الكواكب التي تأويها،

منتشرة في كل الكون، في كل مكان وجدت فيه الظروف الفيزيقية ـ الكيمائية اللازمة لتفتحها وتطورها».

المادة الكونية بين النجوم

إن عملية تشكل الكون الأساسية من تكاثف للسديم الأولي ثم من انفصاله إلى أجزاء كوّنت في الأصل كُتلاً مجراتية. بدورها تجزأت هذه الأخيرة إلى نجوم صنعت منتجات ثانوية هي الكواكب. وقد تركت هذه الانفصالات المتعاقبة بين مجموعات العناصر الرئيسية ما يمكن تسميته بالبواقي. وهذه البواقي تسمى علمياً بالمادة الكونية المنتشرة بين النجوم. وقد وُصفت هذه المادة بأشكال مختلفة: فمرة توصف على أنها سُدُم براقة تنشر ضوءاً استقبلته من نجوم أخرى وقد تتكون من (غبار) أو (أدخنة) على حسب تعبير علماء الفلك، ومرة أخرى توصف على أنها سُدُم مظلمة ذات كثافة شديدة الضعف، أو على أنها مادة كونية منتشرة بين النجوم تتميز بأنها شديدة الخفاء وبأنها تعوق المقايس الفوتومترية في علم الفلك. إن وجود جسور من تلك المادة بين المجرات لا يشوبه أي شك. وبرغم ندرة هذه الغازات وبسبب الفضاء الهائل الذي تحتله ـ إذ أن الفضاء الذي يفصل بين المجرات بعيد جداً ـ فإنها تستطيع أن تعادل كتلة قد تفوق مجموع كتل المجرات، حتى وإن كانت هذه الغازات قليلة الكثافة. ويعلق ا. بواشو A.Boichot على وجود هذه الكتل المنتشرة بين المجرات أهمية أولى فقد يكون من شأنها أن «تعدل إلى حد بعيد الأفكار الخاصة بتطور الكون».

على ضوء هذه المعطيات العلمية الحديثة يجب الآن أن نعود إلى الأفكار الأساسية المستخرجة من القرآن والخاصة بخلق الكون.

دراسة المعطيات القرآنية عن الخلق

ولنفحص الآن النقاط الجوهرية الخمس التي يعين القرآن عليها معلومات دقيقة خاصة بالخلق.

1ـ لقد تخطى المراحل الست لخلق السماوات والأرض، في قول القرآن، تكوين الأجرام السماوية وتكوين الأرض والتطور الذي لحق بهذه الأخيرة بما جعلها بأقواتها قابلة لسكن من قبل الإنسان. لقد وقعت الأحداث الخاصة بالأرض، في رواية القرآن، على أربع مراحل. ترى أيجب أن نرى في هذه المراحل معادلاً للعصور الجيولوجية التي يصفها العلم الحديث والتي ظهر الإنسان في الرابع منها كما نعلم؟ ليس هذا إلا مجرد افتراض. والله أعلم.

ولكن ينبغي ملاحظة أن تكوين الأجرام السماوية والأرض قد تطلب مرحلتين كما تشرح ذلك الآيات من 9 ـ 12 من سورة فصلت (انظر ص158). ويعرفنا العلم بأننا إذا أخذنا كمثال (وهو المثال الوحيد الممكن اعتبار) تكوين الشمس ونتاجها الثانوي أي الأرض نجد أن العملية قد تمت من خلال تكاثف السديم الأولى وانفصالهما. وذلك بالتحديد ما يعبر عنه القرآن بشكل صريح عندما يشير إلى العملية التي أنتجت ابتداء من (الدخان) السماوي (رتقاً ثم فتقاً). إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمية.

2ـ أوضح العلم تشابك حدثي تكوين نجم (مثل الشمس) وتابعه أو واحد من توابعه (مثل الأرض). ألا يتضح هذا التشابك في النص القرآني مثلما رأينا؟

3ـ إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى في العلم الحديث والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التي كونت الكون في هذه المرحلة الأولى.

4- إن تعدد السماوات، الذي عبَّر عنه القرآن بالرقم الرمزي (7) الذي رأينا دلالته، يتلقى من العلم الحديث تأكيداً له، وذلك بفضل ملاحظات علماء الفلك عن نظم المجرات وعددها العظيم، وعلى العكس فإن تعدد الكواكب التي تشبه أرضنا - في بعض الجوانب - هو مفهوم مستخلص من النص القرآني ولكن لم يثبت العلم وجوده حتى الآن ومع ذلك فيري المتخصصون أن هذا مفهوم معقول تماماً.

5- يمكن التقريب بين وجود الخلق الوسيط بين (السماوات) و (الأرض) المعبر عنه في القرآن وبين اكتشاف جسور المادة التي توجد خارج النظم الفلكية المنظمة.

بناء على ذلك؛ فإذا كانت المسائل التي تطرحها رواية القرآن لم تتلق تماماً حتى يومنا توكيداً من المعطيات العلمية فإنه لا يوجد على أي حال أقل تعارضاً بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون. ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذي نقرأه اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية. وكيف لا ندهش لذلك خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق في التوراة[1] قد كتبت بأقلام كهنة عصر النفي إلى بابل، وقد كان لهؤلاء الكهنة الأهداف التشريعية التي حددناها أعلاه فاصطنعوا لتلك الأهداف رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية. إن وجود هذا الاختلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق جدير بالتنويه أمام الاتهامات - وكلها عفوية - التي لم توفر على محمد ﷺ منذ

(1) يحجب نص الكهنة هذا السطور القليلة من الرواية الأخرى المسماة باليهودية فهي من الإيجاز والغموض بحيث لا يمكن لعقل علمي أن يأخذها في اعتباره.

بدايات الإسلام والتي تقول بأن محمداً ﷺ قد نقل روايات التوراة. فيما يتعلق بموضوع الخلق فإن الاتهام لا يتمتع بأي أساس. كيف كان يمكن لإنسان، منذ أربعة عشرة قرناً تقريباً؛ أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر وذلك باستبعاد أخطاء علمية وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا! هذا فرض لا يمكن الدفاع عنه. إن القرآن يعطي عن الخلق رواية تختلف تماماً عن رواية التوراة.

ردود على بعض الاعتراضات

لا جدال في وجود نقاط تشابه بين روايات التوراة والإنجيل وبين روايات القرآن فيما يتعلق بموضوعات أخرى وخاصة تلك التي تخص التاريخ الديني. ومن غريب الأمر أن نلاحظ من وجهة النظر هذه إذا لم يكن أحد قد اتهم المسيح بترديد ذكر نفس الأمور بالإضافة إلى تعاليم التوراة، فعلى العكس ليس هناك مطلقاً من يتضايق في بلادنا الغريبة من معاتبة محمد ﷺ، لأنه ذكرها في رسالته، وذلك يوحي بأن محمداً ﷺ دجال بما أنه يقدم هذه الأمور وتلك التعاليم على أنه وحي منزَّل. أين الدليل بأن محمداً ﷺ قد نقل في القرآن ما علمه الربابنة إياه أو أملوه عليه...؟ ليس هناك دليل على ذلك كما أنه ليس هناك أي سند للدعوى القائلة بأن راهباً مسيحياً قد علمه تعليماً دينياً متيناً. ولنقرأ ما يقول ر. بلاشير عن هذه الأكذوبة في كتابه «مشكلة محمد»[1].

وهناك أيضاً من يدفع بوجود ما يشبه التطابق بين بعض المقولات القرآنية وبين معتقدات يرجع عهدها إلى أزمنة سحيقة قد تسبق التوراة احتمالاً.

---

(1) R.Blachere, Le Pribleme de Mahomet; Presses Universitaires de France,1952

وبشكل أكثر عمومية: فقد أراد البعض أن يشم في الكتب المقدسة رائحة لبعض أساطير نشوء الكون، ومن تلك على سبيل المثال: اعتقاد البولينزيين Polyneseiens بوجود سوائل أولى غائصة في الظلمات التي انفصلت عن ظهور النور. وبالتالي تكونت الأرض والسماء فإذا قارنا الأسطورة برواية الخلق في التوراة لوجدنا بالتأكيد تشابهاً ما، ولكن من الاستخفاف الذهاب إلى اتهام التوراة بأنها قد أخذت لعاتقها أسطورة نشوء الكون هذه.

وإنه من الاستخفاف القول بأن مفهوم القرآن عن انقسام المادة الأولى التي كونت الكون في المرحلة الأولى ـ وهذا هو نفس مفهوم العلم الحديث ـ فهو مفهوم ينبع من أساطير نشوء الكون المختلفة التي تعبر عن شيء مشابه بشكل أو بآخر.

ومن الطريف أن نحلل عن قرب هذه المعتقدات والروايات الأسطورية؛ إذ كثيراً ما تظهر بدايتها فكرة معقولة، بل تطابقاً في بعض الحالات واقع ما نعرف اليوم أو ما نفترض أننا نعرفه، ولكن الأوصاف الخرافية تضيف إلى الفكرة في الأسطورة. ذلك هو المفهوم الواسع الانتشار الذي يقول بأن السماء والأرض كانتا متحدتين في البداية ثم انفصلتا بعد ذلك.

وفي اليابان على سبيل المثال، فقد صورت الأساطير الكون الأول في حالة اختلاط وفوضى، ثم أضافت إلى هذه الصورة البيضة المحتوية على بذرة في داخلها، كما هو الحال في أي بيضة، وبهذا الشكل أفقدت الإضافة الخيالية الأسطورة جدية المفهوم.

وفي بلاد أخرى تُضاف إليه فكرة النبت الذي ينمو فيرفع السماء ويفصلها عن الأرض، هنا أيضاً نجد وهم التفاصيل المضافة التي تُعطي سمتها الخاص.

ومع ذلك فيظل قائماً أن السمة المشتركة في كل هذا هي مفهوم وجود كتلة واحدة في بداية نشوء وتطور الكون أدت بانقسامها إلى (العوالم) المختلفة التي نعرفها اليوم.

وإذا كنا نذكر هنا أساطير نشوء الكون فذلك لكي ننوه إلى الزخرف الذي يضيفه وهم التخيل عند الإنسان، ولكي نؤكد على الاختلاف العميق لتصريحات القرآن في هذا الموضوع، فهي خالية من التفاصيل الوهمية المصاحبة لهذه المعتقدات. إن تصريحات القرآن على العكس مطبوعة بالإيجاز في القول وبالاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم.

فإذا كانت هذه هي صفات مقولات القرآن، ولأنه قد صرح بها من أربعة عشر قرناً، فلا يبدو أن بالإمكان إعطاء هذه المقولات تفسيراً وضعياً.

علم الفلك في القرآن

يحتوي القرآن على الكثير من التأملات في خلق السماوات. وقد رأينا، في الفصل السابق الخاص بالخلق، الإشارة إلى تعدد السماوات والكواكب التي قد تشبه الأرض، وكذلك وجود ما يعرفه القرآن بأنه خلق وسط «بين السماوات والأرض» وذلك ما دلّ العلم الحديث على وجوده. الآيات الخاصة بالخلق إذن قد أعطت بشكل ما فكرة عامة عن محتوى السماوات، أي كل ما هو خارج كوكبنا.

وبالإضافة إلى الآيات التي تصف الخلق بشكل خاص، فهناك حوالي أربعين آية أخرى تأتي بإيضاحات تكميلية من هذه المعطيات عن علم الفلك. وبعض هذه الآيات ما هو إلا تأملات في عظمة الخالق، الذي رتّبَ كل نظم النجوم والكواكب، تلك التي نعرف أنها موضوعة في مراكز توازن، وقد شرح نيوتن الثبوت الدائم لهذا التوازن بقانونه عن جاذبية الأجرام.

والآيات الأولى المذكورة هنا لا تعطي مادة للتأمل العلمي، فهي ببساطة، تهدف إلى جذب الانتباه إلى قدرة الخالق، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إليها لإعطاء فكرة صحيحة عن الطريقة التي عرض بها نص القرآن، منذ حوالي ما يقرب من أربعة عشر قرناً، لتنظيم الكون.

وتكون هذه الإشارات حدثاً جديداً في التنزيل الإلهي؛ فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التي رأينا مجموع عدم صحتها في رواية التوراة عن الخلق). أما القرآن فهو ينظر طويلاً في هذا الموضوع. فما يحتويه هام، وما لا يحتويه هام أيضاً. فهو لا يحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله عن تنظيم العالم السماوي، تلك النظريات التي أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها. وسنُعطي على ذلك مثالاً في الصفحات التالية. ولا بد من التنويه بهذا الجانب ذي الطابع السلبي[1].

أ ـ تأملات عامة في السماء

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان].

---

(1) كثيراً ما سمعت عن هؤلاء الذين يحتالون في البحث في تفسير وضعي ـ وتفسير وضعي فقط ـ لكل مشكلة يطرحها القرآن، بأنه إذا كان يحتوي على إيضاحات مدهشة في علم الفلك، فذلك لأن العرب كانوا علماء في هذا الميدان؛ وهذا يدل على أنهم ينسون ببساطة أن تطور العلم في البلاد الإسلامية قد جاء بعد نزول القرآن وأن المعارف العلمية، على أي حال لم تكن لتسمح في ذلك العصر العظيم لكائن بشري بأن يكتب بعض آيات في علم الفلك التي يجدها في الكتاب. وسنقدم الدليل على ذلك في الفقرات التالية.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ... ﴿٢﴾﴾ [الرعد].

وتدحض الآيتان الأخيرتان الاعتقاد القائل بعدم إطباق السماء على الأرض لقيام الأولى على عمد.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا... ﴿٧﴾﴾ [الرحمن].

﴿... وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ... ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

ومعروف أن ابتعاد الاجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طردياً مع الكتل نفسها يشكل أساس توازنها. فكلما تباعدت الأجرام وهَنَتْ قوة جذب كل منها للأخرى. وكلما تقاربت كان لكل منها تأثير على الأخرى، تلك حالة القمر فهو، لقربه من الأرض (ذلك بالطبع في سياق علم الفلك)، يؤثر بقانون الجاذبية على موقع الماء والبحار؛ ومن هنا تأتي ظاهرة المد والجزر. إن التقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدي لا محالة إلى اصطدامهما. إن الخضوع للتوازن هو الشرط الأساسي لعدم وجود اضطرابات.

ومن ثم فالقرآن كثيراً ما يذكر خضوع السماوات لأمر الله.

يقول الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقد رأينا كيف يجب أن نفهم أن السماوات السبع تعني سماوات متعددة وليس سماوات محدودة بعدد.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن].

﴿ . . . وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ . . . ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم].

هنا تكمل الآية الأخرى؛ فنتيجة الحسابات المذكورة هي انتظام رحلة الأجرام السماوية، والقرآن يُعبر عن هذا الانتظام بكلمة (دائب) وهي في النص على شكل اسم فاعل لفعل معناه الأول العمل بهمة وبلا انقطاع. وقد أعطى هنا المعنى التالي: «الاجتهاد في عمل شيء ما بعناية وبشكل دائم لا يتغير وبحسب عادة ثابتة». (انظر الزمخشري الجزء الثاني 303 في ترجمة حمزة للقرآن 1972).

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس].

هذه إشارة إلى تقوّس عرجون النخل الذي يتخذ شكل الهلال عندما يجف، وسنكمل التفسير فيما بعد.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

ويشير القرآن إلى النتيجة العملية للبنية السماوية مع التأكيد على أهميتها في تسهيل انتقالات الإنسان على الأرض وفي البحر وفي حساب الزمن. وتتضح هذه الملاحظة عندما نتذكر أن القرآن في الأصل كان رسالة موجهة إلى أناس لم يكن في مقدورهم أن يفهموا إلا اللغة السهلة، لغتهم اليومية؛ وذلك هو سبب وجود تأملات كالتالية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام].

﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس].

وهنا ملاحظة تفرض نفسها: على حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين، مضيفة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثاني، يخص القرآن كُلاً منهما بفروق غير تلك التي تتعلق بالحجم. ولا شك أن الفرق في القول فقط، ولكن كيف كان يمكن مخاطبة الناس في ذلك العصر دون شد انتباههم، مع التعبير في الوقت ذاته عن فكرة أن الشمس والقمر ليسا كوكبين منيرين من طبيعة واحدة؟

ب ـ طبيعة الأجرام السماوية

الشمس والقمر

تسمى الشمس في القرآن بالضياء ويسمى القمر بالنور. وإذا شئنا الحقيقة، فالفرق في المعنى بين الاثنين ضئيل حتى وإن كان أصل ضياء (ضوءاً) ويعني برق ولمع (يقال ذلك عن النار... إلخ).

ولكن القرآن يحدد الفرق بين الشمس والقمر عبر مقارنات أخرى:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح].

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ].

وواضح تماماً أن السراج الوهاج هو الشمس.

ويعرف القمر هنا باعتباره جرماً نارياً، وأصل الكلمة (نور)، وهي: (صفة القمر). أما الشمس فيقارنها القرآن (بالسراج) أو بسراج وهاج.

وبالتأكيد فإن الإنسان في عصر محمد ﷺ كان يستطيع التفريق بين الشمس والجرم السماوي الملتهب الذي يعرفه جيداً سكان الصحراء، وبين القمر وهو جرم طراوة الليالي. إذن فالمقارنات الخاصة بهذا الموضوع والتي نجدها في القرآن طبيعية تماماً. وما تهم الإشارة إليه هنا هو ذلك الإيجاز في المقارنات بالإضافة إلى عدم احتواء نص القرآن على أي عنصر مقارن كان سائداً في ذلك العصر وأصبح اليوم وهماً.

المعروف أن الشمس نجم ينتج عن احتراقه الداخلي حرارة شديدة وضوءاً، بينما القمر ليس مضيئاً بذاته بل هو يعكس الضوء الذي يستقبله من الشمس، كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية)؛ لا شيء إذن في القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين.

النجوم:

كما نعرف فالنجوم أجرام سماوية مثل الشمس وهي محل ظواهر فيزيقية مختلفة. وأسهل ما يمكن مشاهدته من هذه الأجرام هي ظاهرة إنتاج الضوء. فتلك أجرام لها بريقها الخاص بها.

وتظهر كلمة نجم (الجمع: نجوم) ثلاث عشرة مرة في القرآن. ويعني مصدر كلمة نجم: ظهر، أمكن رؤيته. وهي تشير إلى جرم سماوي مرئي دون تحديد لطبيعته: أي فيما إذا كان مصدراً للضوء أو مجرد عاكس لضوء يستقبله، وتضاف للكلمة صفة تحدد أن المعنى به هو ما نسميه اليوم بالنجم. نرى ذلك في: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ ﴾[1] [الطارق].

---

(1) يستشهد هنا بالسماء وبنجم للتأكيد على أهمية ما يلي ذلك في النص.

ويوصف نجم السماء في القرآن بكلمة (ثاقب)، أي: ما يلتهب ويحترق وينفذ عبر شيء (أي ينفذ خلال ظلمات الليل). ونجد نفس الكلمة أيضاً للدلالة على النيازك في سورة الصافات: ﴿. . . فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾. وهذه النيازك (أو النجوم الثاقبة) هي ناتج عملية احتراق.

الكواكب

يصعب القول بأن الكواكب مذكورة في القرآن بالمعنى المحدد الذي نعطيه اليوم لهذه الأجرام السماوية.

فليس الكواكب منيرة بذاتها. إنها تدور حول الشمس وأرضنا جزء منها. وإذا فرضنا بإمكانية وجود مثل هذه الكواكب في مكان آخر فإننا لا نعرف لهذه الكواكب وجوداً خارج النظام الشمسي.

وغير الأرض كان العصر القديم يعرض خمسة كواكب هي: عطارد وفينوس والمريخ والمشتري وزحل. وهناك ثلاثة كواكب حديثة الاكتشاف وهي أورانوس ونبتون وبلوتون. ويبدو أن القرآن يشير إليها باسم كواكب (المفرد كوكب) دون أن يحدد عددها. وتشير رؤيا يوسف إلى أحد عشر كوكباً: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا . . . ﴿٤﴾﴾ [يوسف].

المقصود هنا منطقياً هو الرواية الخيالية؛ ولكن يبدو أن هناك تعريفاً صحيحاً لدلالة الكلمة في القرآن، وهو تعريف تعطيه آية شهيرة وإن كان معناها العميق روحياً. ومع ذلك فهذه الآية محل جدل كثير بين المفسرين. غير أنها تشير إلى كوكب. والآية المقصودة هي الآية التالية: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . . ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

المقصود هنا فعلاً سقوط ضوء على جسم يعكسه (الزجاج) ويعطيه بريق الدر، مثل الكوكب الذي تضيئه الشمس. وذلك هو التفصيل التوضيحي الوحيد الخاص بالكلمة والذي يمكن أن نجده في القرآن.

والكلمة مذكورة في آيات أخرى. وفي بعضها لا يمكن تحديد أي الأجرام السماوية هو المقصود:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا . . . ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانفطار].

ومع ذلك ففي إحدى الآيات وعلى ضوء العلوم الحديثة نجد أن المقصود به الأجرام السماوية التي نعرف أنها كواكب ولا يمكن أن يكون المقصود شيئاً آخر. إذ تقول الآية 6 من سورة الصافات 37: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾.

تُرى أَيُشير تعبير القرآن «السماء الدنيا» إلى النظام الشمسي؟ المعروف أنه ليس هناك بين العناصر السماوية الأكثر قرباً منا عناصر أخرى دائمة سوى الكواكب، والشمس هي النجم الوحيد في ذلك النظام الذي يحمل اسمها. إننا لا نرى أي أجرام سماوية أخرى يقصد بها هنا، اللهم أن يكون المقصود الكواكب؛ وعلى ذلك فالتفسير المُعطى يبدو صحيحاً، كما يبدو أيضاً أن القرآن يذكر وجود الكواكب على حسب التعريف الحديث.

السماء الدنيا:

يشير القرآن في مرات كثيرة إلى السماء الدنيا والأجرام السماوية التي تكونها، وفي أولها الكواكب، فيما يبدو وكما رأينها توّاً، ولكن المعنى يصبح

مبهماً عندما يشرك القرآن اعتبارات ذات طابع روحي صرف بمفاهيم مادية يسيرة على فهمنا بالاستعانة بالعلم الحديث.

وعلى ذلك فقد كان يمكن فهم الآية الأخيرة المذكورة أعلاه دون عناء، ولكن عندما تقول الآية التي تعقبها (الآية 7 من سورة الصافات 37) ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾. فتلك مقولات ذات طابع آخر. «الحفظ» مذكورة أيضاً في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ... ﴿٣٢﴾﴾، وفي سورة فصلت: ﴿... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ... ﴿١٢﴾﴾.

وبالمثل أي معنى يمكن إعطاؤه لتلك الأحجار: ﴿.. رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴿٥﴾﴾ التي تضعها الآية 5 من سورة الملك، في السماء الدنيا...؟ ترى أترجع المصابيح المذكورة في نفس هذه الآية على النيازك[1] التي رأينا ذكرها أعلاه؟

كل هذه التأملات تبدو خارج موضوع هذه الدراسة. إنما أشير إليها هنا للإحاطة الكاملة. ولا يبدو أن المعطيات العلمية تستطيع في هذه الحالة أن تُلقي أي ضوء على موضوع يفوق الإدراك الإنساني.

حـ ـ البنية السماوية

ما نجد عن هذه المسألة في القرآن يخص النظام الشمسي بشكل رئيسي، غير أن هناك أيضاً إشارات إلى ظاهرات تفوق النظام الشمسي نفسه، ولقد اكتُشفت هذه الظاهرات هي العصر الحديث.

وهناك آيتان، غاية في الأهمية، تخصان مداري الشمس والقمر:

---

(1) من معروف أن النيزك يستطيع أن يثير ظاهرة النجم الضوئية وذلك عند وصوله إلى طبقات الجو العليا.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنبياء].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس].

القرآن يذكر بوضوح أمراً جوهرياً ألا وهو وجود مدار لكل من الشمس والقمر كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين في الفضاء كل بحركة خاصة.

وبالإضافة إلى ذلك فقراءة هاتين الآيتين تظهر بالسلب أمراً آخر وهوالإشارة إلى تنقل الشمس على مدار دون تفصيل عن هذا المدار بالنسبة إلى الأرض، فهذا المدار ظاهري فقط بالنسبة للملاحظ. وقد كان يعتقد في عصر تنزيل القرآن أن الشمس تنتقل مع الأرض كنقطة ثابتة. كان ذلك هو نظام المركزية الأرضية السائد منذ بطليموس، أي منذ القرن الثاني قبل الميلاد، والذي ظل يحظى بالتأكيد حتى قوبرنيق في القرن السادس عشر. هذا المفهوم، برغم التشيع له في عصر محمد ﷺ لا يظهر في أي موضوع من القرآن؛ لا في الآيات الكونية ولا في مواضع أخرى.

وجود مدارين للقمر والشمس

ما يفسر هنا بمدار هو فلك في نص القرآن وهي كلمة عربية قديمة. وكثير من المترجمين ومن المعلقين يعطون لكلمة فلك معنى كرة ويترجمها «حميد الله» بـ«مدار».

ولقد حيّرت الكلمة قدامى مفسري القرآن، إذ لم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا الرحلة الدائرية للقمر والشمس في الفضاء، وعليه فقد تمثلو عن مسيرتي هذين الجرمين صوراً مغلوطة تماماً أو على درجات مختلفة من الصحة. ويذكر حمزة أبو بكر في ترجمة للقرآن بتنوع التفسيرات المعطاة لكلمة

الفلك منها: «هو كهيئة حديد الرحى، كرة سماوية، مدار، بروج، جرى، سرعة، موج مكفوف...»، ولكنه يضيف هذه الكلمة الحكيمة التي قالها الطبري مفسر القرن العاشر الشهير: «...ونسكت عما لا علم لنا فيه». (تفسير الطبري الجزء 17 صفحات 15، 16)، ذلك يوضح لنا إلى أي حد كان الناس عاجزين عن تمثل فكرة المدار الشمسي والمدار القمري؛ ويتضح من هذا أنه إذا كانت كلمة فلك تعني مفهوماً سائداً في عصر محمد ﷺ، لما لقي تفسير هذه الآيات مثل هذه المصاعب؛ وعليه فقد قدم القرآن في ذلك العصر مفهوماً جديداً لم يتضح إلا بعد قرون عدة.

فيما يتعلق بالقمر:

ينتشر في عصرنا مفهوم أن القمر يدور حول الأرض باعتباره تابعاً لها، وأن مقدار دورته الزمنية تسعة وعشرون يوماً. ومع ذلك فيجب تصحيح فكرة الاستدارة الملطلقة لمدار القمر: فعلم الفلك الحديث قد أثبت أن المدار ليس دائرياً بالدقة، بحيث إن المسافة بين الأرض والقمر تقدر تقديراً متوسطاً يبلغ 384,000 كم.

وقد راينا أعلاه أن القرآن قد أبرز فائدة ملاحظة حركات القمر في قياس الزمن (سورة يونس 10 ـ الآية 5 ـ انظر بداية هذا الفصل).

لقد انتقد كثيراً ما منهج حساب الزمن هذا؛ فهو قديم بالغ القدم، غير عملي ولا علمي بالمقارنة مع منهجنا الذي يعتمد على دوران الأرض حول الشمس، والذي يُعرف اليوم في تقويم جوليان السنوي.

ويتطلب هذا النقد ملاحظتين:

1 ـ توجه القرآن منذ أربعة عشر قرناً تقريباً، إلى سكان شبه الجزيرة العربية

الذين كانوا يستخدمون الحساب القمري للزمن؛ إذن فقد كان من المناسب مخاطبتهم بالخطاب الوحيد الذي كانوا يستطيعون فهمه، وإلا تبلبل عادتهم في اتخاذ الإشارات المكانية والزمانية، فقد كانت عادة فعالة تماماً. فمعرو أن سكان الصحراء خبيرون بتفرس السماء وفي الاستدلال بالنجوم وتحديد الزمن على حسب مراحل القمر وقد كانت كل هذه أبسط الوسائل وأكثرها فعالية بالنسبة لهم.

2 ـ إذا وضعنا جانباً المتخصصين في هذه المسائل، فإننا، عامة نجهل الصلة الكاملة بين التقويم القمري وبين تقويم جوليان الذي تتكون فيه السنة من 365 يوماً وربع يوم، إن طول السنة التي تتكون من 365 يوماً فقط ليس كاملاً، فهي تحتاج إلى تصحيح كل أربع سنوات (وهو ما يعرف بالسنوات الكبيسة). أما في التقويم القمري فإن نفس الظواهر تتكرر كل 19 سنة من تقويم جوليان؛ وذلك ما يسمى بدورة ميتون عالم الفلك اليوناني الذي اكتشف في القرن الخامس قبل الميلاد التطابق الدقيق بين الزمنين الشمسي والقمري[1].

فيما يتعلّق بالشمس:

إن تصور وجود مدار للشمس أمر أكثر عسراً، فنحن معتادون على اعتبار أن نظامنا الشمسي مرتب حولها. ولكي نفهم الآية القرآنية فيجب علينا النظر في موقع الشمس داخل مجرتنا وأن نستعين ـ بالتالي ـ بمعارف من العلم الحديث.

---

(1) 235 شهر قمري لـ 19 سنة من تقويم جوليان.

تتكون مجرتنا من عدد هائل من النجوم موزعة على اسطوانة أكثر سمكاً في المركز منها على المحيط. وتحتل موقعاً يبعد عن مركز الأسطوانة؛ وبما أن المجرة تدور حول نفسها وكان محورها مركزها، فإن ناتج ذلك هو أن الشمس تدور حول نفس هذا المركز على حسب مدار دائري. وقد حسب علم الفلك الحديث عناصر هذا المدار. وقد قدر شابلي Shapley في عام 1917م، بعد الشمس عن مركز المجرة بـ 10 كليو فرسخ، أي: بالكيلومترات ما يعادل تقريباً الرقم 3 وعلى يمينه سبعة عشر صفراً. ولكي تدور المجرة حول نفسها دورة كاملة والشمس معها فيلزمها ما يقرب من 250 مليون سنة، وتسير الشمس في هذه الحركة بسرعة تقريبية قدرها 250 كم في الثانية.

تلك هي الحركة المدارية للشمس التي صرح بها القرآن منذ أربعة عشر قرناً تقريباً، إن وجود هذه الحركة وعلامتها هي الآن من مكتشفات علم الفلك الحديث.

الإشارة إلى تنقل القمر والشمس في الفضاء بحركة خاصة

لا وجود لهذا المفهوم في ترجمات وتفسيرات القرآن التي قام بها أدباء، ولجهلهم بعلم الفلك فإنهم قد فسروا من الكلمة العربية التي تعبر عن هذه الحركة معنىً واحداً من معانيها وهو (عام ـ يعوم): نجد ذلك في التفسيرات الفرنسية والتفسير الإنجليزي سواء، هذا الأخير الذي قام به يوسف علي في ترجمته الإنجليزية يستحق التقدير.

إن الكلمة العربية التي تشير إلى تنقل بحركة خاصة هي سبح (وفي الآيتين: (يَسْبَحُونَ). إن كل معاني الكلمة تتضمن التنقل بحركة يتميز بها الجرم الذي يتنقل. ويكون المعنى سبح إذا كان هذا التنقل في الماء؛ ويكون

كذلك أيضاً إذا كان التنقل على الأرض بالأقدام. وفيما يتعلق بالحركة في الفضاء فمن العسير التعبير عن هذه الفكرة المتضمنة في الكلمة إلا باستخدام معناها الأول. بهذا الشكل لا يبدو أنه قد وقع خطأ باستخدام معنى أصلي وذلك للاسباب التالية:

- يؤدي القمر دورته حول نفسه في نفس الوقت الذي يُتم فيه دورته حول الأرض، أي فيما يقارب 29 يوماً ونصف يوم، بحيث إن وجهه هو دائماً نفس الوجه أمام ناظرينا.
- تدور الشمس حول نفسها في 25 يوماً تقريباً، وهناك بعض صفات خاصة في الدورة بالنسبة لخط الاستواء والقطبين ولن نصر على هذه الخواص، ولكنها مدفوعة بحركة دورية في المجمل العام.

ويظهر إذن أن هناك فرقاً كلامياً دقيقاً يشير فيه القرآن إلى الحركات الخاصة لكل من الشمس والقمر. ولقد أكد العلم الحديث حركات هذين الجرمين السماويين ولا يمكن تصور أن رجلاً في القرن السابع من عصرنا قد استطاع تخيل هذا مهما يكن عالماً في عصره، وليس ذلك حال محمد ﷺ.

ويدفع أحياناً عكس هذه الرؤية بحالات لمفكرين كبار من العصر القديم كانوا قد صرحوا دون أي جدال ببعض الأمور التي اعترف العلم الحديث بصحتها. ومع ذلك فلم يكن باستطاعة هؤلاء المفكرين الاعتماد على الاستنتاج العلمي، بل كانوا يعتمدون أكثر ما يعتمدون على التعقل الفلسفي. يدفع كثيراً على سبيل المثال بحالة الفيثاغورثيين الذين كانوا يدافعون في القرن السادس قبل الميلاد عن نظرية دوران الأرض حول نفسها ودوران الكواكب حول الشمس، وهي النظرية التي أكد صحتها العلم الحديث. فإذا قمنا بالتقريب بين حالة الفيثاغورثين والحالة التي تعنينا، يصبح من اليسير الدفع بالفرض القائل

بأن محمداً ﷺ كان مفكراً عبقرياً وقد تخيل وحده ما اكتشفه العلم الحديث بعده بقرون. وببساطة فهؤلاء النقاد بتفكيرهم هذا، ينسون ذكر الجوانب الأخرى للإنتاج العقلي عند عباقرة التفكير الفلسفي، كما ينسون ذكر الأخطاء الجسيمة التي تُعيب مؤلفاتهم. على سبيل المثال يجب ألا ننسى أن الفيثاغورثيين كانوا يدافعون أيضاً عن نظرية ثبات الشمس في الفضاء وأنهم جعلوها مركز العالم، غير متصورين وجود بنية سماوية إلا حول الشمس. الواقع أن وجود خليط من الأفكار الصحيحة والخاطئة عن الكون أمر جار عند كبار الفلاسفة القدامى. ويجب ألا يبهرنا بريق المفاهيم المتقدمة في هذه المؤلفات الإنسانية وينسينا المفاهيم المغلوطة التي خلقتها أيضاً. ذلك ما يفصلها، من وجهة النظر العلمية والعلمية فقط، عن القرآن الذي نجد فيه ذكر عديد من الموضوعات المتعلقة بالمعارف الحديثة دون أن تكون به أي دعوى مناقضة لما أثبته العلم في عصرنا.

تعاقب النهار والليل

لم يكن أحد من البشر ليتحدث عن حركة الشمس فيما يتعلق بتعاقب النهار والليل، في عصر كانوا يعتبرون فيه أن الأرض مركز العالم وأن الشمس متحركة بالنسبة إلى الأرض؟ وبرغم ذلك فهذا الأمر لا يظهر في القرآن الذي يعالج الموضوع كما يلي:

سورة الأعراف: ﴿. . . يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا . . . ﴿٥٤﴾﴾.

سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ . . ﴿٢٩﴾﴾.

سورة الزمر: ﴿. . . يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ . ﴿٥﴾﴾.

لا تحتاج الآية الأولى إلى تعليق، والآية الثانية تريد فقط أن تُعطى صورة. أما الآيتان الثالثة والرابعة فيمكن، بشكل رئيسي أن يمثلا أهمية بالنسبة إلى عملية تداخل وبالذات تكور الليل على النهار، والنهار على الليل (سورة الزمر 39 ـ الآية 5). كوّر يعني لف، كما يقول ر. بلاشير R. Blachere في ترجمة القرآن. والمعنى الأول لهذا الفعل هو كور على الراس عمامة على هيئة حلزونية. وتحتفظ كل المعاني الأخرى للكلمة بمفهوم التكور.

وعليه، فماذا يحدث إذن في الفضاء؟ إن الشمس تُضيء بشكل دائم (فيما عدا فترات الخسوف) نصف الكرة الأرضية التي تقع أمامها، على حين يظل النصف الآخر مظلماً. وقد رأى رواد الفضاء الأمريكيون هذا وصوروه من مركباتهم الفضائية، وخاصة على بعد بعيد عن الأرض، من على القمر مثلاً. وبدوران الأرض حول نفسها على حين تظل الإضاءة ثابتة، فإن المنطقة المضاءة منها ـ وهي على شكل نصف كروي ـ تؤدي في أربع وعشرين ساعة دورتها حول الأرض، على حين يتم النصف الآخر المظلم في نصف الوقت نصف الرحلة. والقرآن يصف بشكل كامل هذه الدورة التي لا تقف أبداً للنهار والليل. وهي اليوم يسيرة على الإدراك الإنساني فنحن نملك اليوم خبرة فكرية عن ثبوت الشمس[1] وعن دورة الأرض. هذه العملية الدائمة في التكور مع الولوج المستمر لقطاع في آخر يعبر القرآن عنها وكأن اكتشاف استدارة الأرض كان قد تم في عصر تنزيل القرآن، وبالطبع لم يكن هذا قد حدث بعد.

ويجب أن نربط بهذه الاعتبارات الخاصة بتعاقب النهار والليل إشارات بعض الآيات القرآنية عن تعدد المشارق والمغارب. وأهمية هذه الإشارات

---

(1) فهو ثبوت نسبي.

وصفية فقط وملاحظتها أمر شائع. ولا يُشار إليها هنا إلا بهدف النقل الكامل ما أمكن من كمال لما يحتويه القرآن عن هذا الموضوع. على سبيل المثال فمن هذه الآيات ما يلي:

﴿. . بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا. . . ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن].

﴿. . . بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ . . . ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف]. وهي صورة تعبر عن اتساع المسافة بين نقطتين.

إن الملاحظ لشروقات الشمس وغروباتها يعرف جيداً أن الشمس تشرق من نقاط مختلفة في المشرق وتغرب على نقاط مختلفة في الغرب وذلك حسب الفصول. إن العلامات التي تتخذ على كل من الأفقين تحدد نقاطاً قصوى تشير إلى مشرقين ومغربين، توجد بينهما نقاط وسيطة على مدار السنة. ولا شيء غير عادي في هذه الظاهرة. ولكن ما يُلفت النظر هو ما يرجع على موضوعات أخرى محلاً للبحث عن هذا الفصل، ونجد فيهما وصف الظاهرات الفلكية المذكورة في القرآن، وهذا الوصف يبدو متطابقاً مع المفاهيم الحديثة.

د ـ تطور العالم السماوي

بإشارتنا للأفكار الحديثة عن تشكل الكون عرضنا للتطور الذي حدث منذ السديم الأولى إلى تشكل المجرات والنجوم فيما يخص النظام الشمسي إلى ظهور الكواكب انطلاقاً من الشمس في مرحلة ما من تطورها. وتسمح المعطيات الحديثة بالتفكير في وجود تطور مستمر حتى الآن للنظام الشمسي وللكون بشكل عام.

كيف لا نقوم بالتقريب، عندما نكون عارفين بهذه المفاهيم، بين بعض المقولات التي نجدها في القرآن عندما نذكر شواهد القدرة الإلهية؟ القرآن يذكر على مرات متعدد أن الله ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

هذه الجملة نجدها في سورة الرعد ـ الآية 2، وسورة لقمان ـ الآية 29، وسورة فاطر ـ الآية 13، وسورة الزمر ـ الآية 5.

أكثر من ذلك ففكرة الأجل المسمى مشتركة بفكرة مكان للوصول إليه محدد، نجد هذا في سورة يس: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

والمكان المحدد هو تفسير الكلمة (مستقر). وليس هناك أدنى شك في أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذا الكلمة.

كيف تبدو المقابلة بين هذه الدعاوى والمعطيات التي أقرها العلم الحديث؟

يعطي القرآن حدّاً لتطور الشمس ومكاناً لوصولها وهو يحدد أيضاً نهاية شوط القمر. ولكي نفهم المعنى الممكن لهذه المقولات، يجب التذكير بالمعارف الحديثة عن تطور النجوم عامة والشمس خاصة، وبالتالي عن التشكلات السماوية التي تتبع بالضرورة حركة الشمس في الفضاء والتي يُعد القمر جزءاً منها.

الشمس نجم يقدر علماء الفلك عمره بحوالي 4,5 مليارات سنة. وكما هو الحال بالنسبة لكل النجوم فيمكن تحديد مرحلة تطوره. الشمس حالياً في مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم: نظرياً يمكن أن تدوم هذه المرحلة 5,5 مليارات سنة على حسب الحسابات التي أُنجزت والتي تقدر لهذه المرحلة الأولى لنجم من نمط الشمس ديمومة زمنية قدرها 10 مليارات سنة. تلي هذه المرحلة، كما لوحظ ذلك بالنسبة إلى نجوم أخرى،

من نفس النمط، فترة ثانية تتميز بتمام تحول الهيدروجين إلى هليوم ويكون نتيجة هذا التحول تمدد الطبقات الخارجية وبرود الشمس. وفي المرحلة النهائية تتناقص ضوئية الشمس بشدة وترتفع كثافتها بشدة أيضاً؛ ذلك ما يلاحظ في أنماط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء.

ما يجب الالتفات إليه في كل هذا، ليس التواريخ فهي ليست مهمة إلا من حيث إنها تُعطي تقديراً تقريبياً لعامل الزمن، فما يتضح أساساً هو فكرة التطور. إن المعطيات الحديثة تسمح بالتنبؤ بأنه بعد عدة مليارات من السنوات لن تكون ظروف النظام الشمسي ما هي عليه اليوم. وكما حدث بالنسبة لنجوم أخرى سجلت تحولاتها حتى المرحلة الأخيرة فيمكن توقع نهاية للشمس.

تحدثت الآية الثانية المذكورة هنا (الآية 38 من سورة يس 36) عن الشمس جارية نحو مكان خاص بها «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا».

ويحدد علم الفلك الحديث بشكل كامل هذا المكان، بل لقد أعطاه اسم (مستقر الشمس). الواقع أن النظام الشمسي يتحرك في الفضاء نحو نقطة في فلك هرقل مجاورة لنجمة فيجا التي تحددت تماماً إحداثيتها، ولقد أمكن تحديد سرعة هذه الحركة وهي تقريباً 19كم ثانية.

لقد كان من الواجب ذكر معطيات علم الفلك هذه بمناسبة تفسير آيتي القرآن اللتين نستطيع أن نقول إنهما تتطابقان تماماً فيما يتضح مع المعطيات العلمية الحديثة.

توسع الكون

توسع الكون هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث. ذلك مفهوم قد ثبت اليوم تماماً ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع.

وإذا كانت النسبية العامة هي التي أوحت به، فإن توسع الكون يعتمد على معطيات مادية وذلك من خلال دراسات طيف المجرات، فالانتقال المنهجي نحو اللون الأحمر من الطيف يجد تعليلاً له في ابتعاد المجرات الواحدة عن الأخرى. وعلى ذلك فامتداد الكون لا يكف عن الكبر وهذا الاتساع على أهمية أكثر؛ خاصة وإن المجرات تبتعد عنا. إن السرعات التي تنتقل بها الأجرام السماوية قد تتراوح من أجزاء سرعة الضوء إلى مقادير سرعته.

تُرى أيمكن أن نقابل الآية التالية، التي يتحدث فيها الله، بهذه المفاهيم الحديثة؟ سورة الذاريات: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ألا تعني السماء بالتحديد الكون خارج الأرض؟ «وَمُوسِعُونَ» اسم فاعل لفعل «أوسع» ويعني عرض وجعل الشيء شاسعاً وأكثر رحابة.

وبعض المفسرين ممن لم يقدروا على إدراك معنى الكلمة الأخيرة أعطوها دلالات تبدو لي مَغْلُوطَة كقول ر. بلاشير «كنا رحابة». وبعض كتاب آخرين يحدسون المعنى دون أن يجرؤوا على التصريح به: فحميد الله يتحدث في ترجمته للقرآن عن اتساع السماء والفضاء ولكن مع علامة استفهام. وهناك من المفسرين ممن يحتاطون لتفسيراتهم برأي العلماء ويعطون التفسير الذي قدمنا. وذلك حال من وضعوا تفسير المنتخب الذي طبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة. إنهم يتحدثون دون أدنى غموض عن توسع الكون.

غـزو الفضـاء:

من وجهة النظر هذه فتوجد ثلاث آيات قرآنية تستحق كل الانتباه. تتحدث إحداها، وبشكل لا لبس فيه، عما على البشر أن ينجزوا في هذا الميدان، وما سينجزونه بالفعل. وفي الآيتين الأخريين يستحضر الله مثالاً يتوجه به إلى كفار

مكة ليقول لهم كم تكون دهشتهم لو استطاعوا أن يرتفعوا نحو السماء، ويشير ذلك إلى فرض لن يتحقق.

أما الآية الأولى فهي الآية 33 من سورة الرحمن 55.

1 ـ ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾. ويتطلب تفسير هذه الآية بعض تفصيلات:

أ ـ إن اللغة العربية قادرة على تمييز الظروف بشكل أكثر صراحة ووضوحاً عما هو الحال في لغات أخرى. فهناك حرف للتعبير عن الاحتمال وهو (إذا) وحرف آخر للتعبير عن الفرض الجائز وهو (إن) وحرف آخر للتعبير عن الامتناع وهو (لو). وتقول الآية المعنية بفرض جائز معبر عنه بحرف (إن). القرآن إذن يتحدث عن إمكانية مادية لإنجاز ملموس. وهذا التمييز اللغوي يُبعد بشكل حاسم التفسير الصوفي الصرف الذي أراد البعض خطأ إعطاءه لهذه الآية.

ب ـ يخاطب الله الجن والإنس جوهرياً، ليس في هذا التعبير استعارة رمزية.

جـ ـ (نفذ من)، كما يقول قاموس كازميرسكي، تعني عَبرَ من جهة إلى جهة وخرج من الناحية الأخرى لجسم ما (ويقال ذلك عن السهم الذي خرج من الجهة المعاكسة مثلاً). تشير الآية إذن إلى ولوج عميق وخروج من جهة معاكسة للمناطق المعنية.

د ـ السلطان الذي سيكون للبشر في تحقيق هذا المشروع يبدو سلطاناً نابعاً من الله القدير[1].

---

(1) تلي هذه الآية دعوة إلى الاعتراف بخيرات الله وذلك هو موضوع كل السورة.

وليس من شك في أن هذه الآية تشير إلى إمكانية البشر ذات يوم بأن يحققوا ما نسميه في عصرنا، ربما بشكل غير مخصص، بـ(غزو الفضاء). ويجب ملاحظة أن النص القرآني لا يتنبأ فقط بالنفاذ عبر مناطق السماوات وإنما يتحدث أيضاً عن النفاذ عبر مناطق الأرض، أي استكشاف الأعماق.

2 ـ أما الآيتان الأخريان فهما من سورة الحجر 15 والآيتان هما 14و15:

وفيهما يحدث الله كفار مكة كما يشير إلى ذلك سياق السورة، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

ذلك تعبير الدهشة أمام مشهد غير منتظر يختلف عن ذلك الذي ما كان يمكن للإنسان أن يتخيله.

ويعبر الامتناع بحرف (لو) الذي يدخل على فرض لن يتبعه أي إنجاز بالنسبة إلى هؤلاء الذين تعنيهم هذه الآية.

وعليه وفيما يخص غزو الفضاء فإننا نجد أنفسنا في مواجهة فقرتين من القرآن تشير إحداهما إلى ما سيتحقق بفضل السلطات التي سيخولها الله للفطنة والعبقرية البشريتين. في حين تشير الفقرة الثانية إلى حدث لن يشهده من كفر بمكة، ومن هنا كانت سمة هذا الفرض الذي لن يتحقق. ولكن هناك آخرين سيعيشون هذا الحدث، كما تترك الآية الأولى ذلك للفرض، إنها تصف رد الفعل الإنساني أمام المشهد غير المنتظر الذي سيوهب لمسافري الفضاء: نظرات مضطربة وشعور بالانسحار.

كذلك تماماً عاش رواد الفضاء تلك المغامرة الخارقة منذ 1961م، وهو تاريخ أول طيران للإنسان حول الأرض. ومعروف في الواقع أننا عندما نكون

خارج طبقة الجو المحيطة بالأرض لا تبدو السماء مطلقاً في صورتها اللازوردية الموهوبة لسكان الأرض. وذلك نتيجة لظواهر امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسي.

إن الإنسان المشاهد الموجود في الفضاء أبعد من الطبقة الجوية المحيطة بالأرض يرى السماء سوداء وتبدو له الأرض محاطة بهالة لونية زرقاوية؛ وذلك لنفس سبب ظواهر الامتصاص الضوئي لطبقة الجو الأرضية، على حين القمر الذي لا يحيط به جو فإنه يبدو في ألوانه الخاصة به على خلفية سوداء من السماء. هو إذن مشهد جديد تماماً ذلك الذي يراه الإنسان في الفضاء، مشهد أصبحت صوره كلاسيكية بالنسبة للناس في عصرنا.

هنا أيضاً، عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة، نقف مبهورين بتلك التحديات الدقيقة التي لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرناً تقريباً؟

الأرض

تتوزع الآيات الواردة عن الأرض في كل القرآن، مثلما هو الحال بالنسبة للموضوعات التي عالجنا من قبل. ويصعب ترتيبها، فالتصنيف الذي نقدم هنا شخصي تماماً.

وحتى يكون العرض واضحاً، يمكن بداية، استخراج عدد من الآيات التي كثيراً ما تعالج موضوعات كثيرة وترمي، فوق كل شيء إلى مرمى عام، وهي تدعو الإنسان لأن يتأمل في إحسان الله وذلك من خلال الأمثلة المقدمة.

توجد أيضاً مجموعات أخرى من الآيات التي يمكن عزلها، فهي تعود على موضوعات أكثر تخصصاً، وهي:

ـ دورة الماء والبحر.

ـ تضاريس الأرض.

ـ الطبقة الجوية المحيطة بالأرض.

1ـ آيات ذات مغزى عام:

في نفس الوقت الذي تهب فيه هذه الآيات حججاً من شأنها أن تقود الناس إلى التأمل في خير الله على مخلوقاته فإنها تحتوي هنا وهناك على دعاوى من المهم مقابلتها بمعطيات العلم. ومن وجهة النظر هذه فربما كانت هذه الآيات أكثر أهمية؛ حيث إنها لا تعبر عن كل أنواع المعتقدات الخاصة ببعض الظواهر الطبيعية والتي كانت تحظى بالتاييد بين الناس في عصر تنزيل القرآن، إنها معتقدات متنوعة أثبتت المعرفة العلمية فيما بعد خطأها.

وتعبر هذه الآيات من جهة عن أفكار بسيطة يسهل إدراكها على فهم هؤلاء الذين كان القرآن موجهاً إليهم لأسباب جغرافية، أي كان سكان مكة والمدينة وبدو شبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى فهي تعبر عن تأملات عامة يستطيع الجمهور الأكثر ثقافة في كل مكان وزمان أن يستخرج منها تعاليم، إذا ما كَبّد نفسه عناء التأمل، تلك هي السمة الكونية الشاملة للقرآن.

وبما أنه ليس في القرآن أي ترتيب ظاهر لهذه الآيات، فإننا نقدمها على حسب الترتيب العددي للسور:

سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

والآية الأخرى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾.

سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾.

سورة الحجر: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾.

سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾.

سورة النمل: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾. المشار إليه هنا هو الاستقرار العام الذي تتسم به القشرة الأرضية، فمن المعروف أن القشرة السطحية للأرض لم تكن مستقرة في العصور الأولى لتكونها قبل أن تبرد، ومع ذلك فليس استقرار القشرة الأرضية مطلقاً بالتدقيق، إذ توجد مناطق تحدث بها زلازل بشكل متقطع، أما فيما يخص الحاجز بين البحرين فتلك صورة لتبيين عدم اختلاط مياه الأنهار بماء البحر في بعض كِبار مصاب الأنهار كما سنرى ذلك فيما بعد.

سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾.

سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾.

وفي كثير من هذه الآيات نرى تاكيداً على أهمية الماء والنتيجة العلمية لوجودها على تربة الأرض، أي خصوبة التربة. ولا شك أن الماء في البلاد الصحراوية يمثل العنصر الأول الذي عليه بقاء الإنسان، ولكن ذكر القرآن لهذا يتخطى تلك الخاصية الجغرافية. إن الآية تبرز ميزة ثراء الكوكب بالماء، تلك الميزة الفريدة في النظام الشمسي على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتاً؛ فلولا الماء لكانت الأرض كوكباً ميتاً مثل القمر. إن القرآن يعطي الماء الأهمية الأولى في ذكر الظواهر الطبيعية للأرض، ودورة الماء موصوفة بدقة محكمة.

2 ـ دورة الماء والبحار:

في عصرنا، عندما نقرأ، المرة بعد الأخرى، الآيات القرآنية الخاصة بدور المياه في حياة الإنسان، فإنها تبدو لنا معبرة عن أفكار واضحة تماماً. والسبب في ذلك بسيط: ففي عصرنا نعرف كلنا ـ بدقة قد تقل أو قد تكثر ـ كيف تتم دورة الماء في الطبيعة.

أما إذا أخذنا في اعتبارنا ما كان عليه مختلف المفاهيم القديمة في هذا الموضوع، فإننا ندرك أن المعطيات القرآنية لا تحتوي على عناصر نابعة من المفاهيم الأسطورية التي كانت سائدة في ذلك العصر والتي كان للتفكير النظري فيها دور أكبر من المعطيات اللاحقة. وإذا كان الناس قد نجحوا بالتجربة في اكتساب معارف علمية مفيدة على مستوى محدود لتحسين ري الأراضي، فعلى العكس فإن مفاهيمهم عن دورة الماء عموماً غير مقبولة في عصرنا.

وقد كان يمكن أن تتخيل أن المياه الجوفية تأتي من تسرب مياه الأمطار داخل الأرض. ولكن ذلك لم يحدث والمذكور كاستثناء في تلك العصور القديمة هو مفهوم رجل يُدعى Vitruve أيّد هذه الفكرة في روما في القرن

الأول قبل الميلاد، وعلى هذا وطيلة قرون طويلة، يقع بينها عصر تنزيل القرآن، كان للناس مفاهيم مغلوطة تماماً عن جريان المياه في الطبيعة.

وفي مقال الهيدروجيولوجيا Hydrogeologic بدائرة معارف أونيفرساليس Encyclopedia Universalis ج. كاستاني G.Castany و ب. بلافو B.Blavoux وهما كاتبان متخصصان في هذه المسائل، يقدمان عن هذه المسألة اللمحة التاريخية المعبرة التالية:

عند تاليس دي ميلات Thales de Milat وكان ذلك في القرن السابع قبل الميلاد. كانت النظرية هي اندفاع مياه المحيطات بتأثير الرياح إلى داخل القارات ثم سقوطه على الأرض ثم ولوجه إلى التربة. وكان أفلاطون يقاسم هذه الأفكار ويعتقد أن عودة المياه إلى المحيط تتم بواسطة هوة سحيقة اسمها (تاتار Tatare). وقد كان لهذه النظرية أتباع عديدون حتى القرن الثامن عشر ومنهم ديكارت. أما أرسطو فقد افترض أن بُخار ماء التربة يتكاثف في التجاويف الباردة للجبال وتشكل بحيرات تحت الأرض تغذي الينابيع. وقد تبعه سنيكا (القرن الأول الميلادي) في ذلك الرأي وكان له أتباع كثيرون حتى عام 1877 ومنهم: أ. فولجر O.Volger. ويعود أول مفهوم صحيح عن دورة الماء إلى برنارد باليسي عام 1580، الذي أكد أن المياه الجوفية تأتي من تسرب ماء المطر في التربة. وقد صادق أ. ماريوت E.Mariotte، و ب. بيرو P. Perraut في القرن السابع عشر هذا الرأي.

أما المفاهيم غير الصحيحة السائدة في عصر محمد ﷺ فإننا لا نجد لها أي صدى في عبارات القرآن التالية ولا في أي موضع آخر:

سورة ق: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١ ﴾.

سورة المؤمنون: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

سورة الحجر: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

بالنسبة لهذه الآية الأخيرة فهناك إمكانيتان للتفسير: يمكن اعتبار الرياح مُخصبة للنباتات بواسطة نقل اللقاح، ولكن قد يكون المقصود هو صورة تعبيرية تذكر قياساً دور الريح الذي يجعل من سحابة لا تعطي مطراً سحابة تفك المطرة الفجائية، وكثيراً ما يذكر هذا الدور مثلما نرى في الآيات التالية؛

سورة فاطر: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.

ويلاحظ أن الأسلوب في الجزء الأول من الآية هو أسلوب القصة ويليه دون تمهيد تصريح من الله. وهذه التعديلات الفجائية في شكل الخطاب تتردد كثيراً في القرآن.

سورة الروم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

سورة الأعراف: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

سورة الجاثية: ﴿. . . وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

والرزق المقصود في الآية الأخيرة هو الماء الذي ينزل من السماء، كما يشير السياق إلى ذلك. ثم إن نبرة الآية تؤكد على تغير الريح فهي التي تعدل نظام سقوط الأمطار:

سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا. . . ﴿١٧﴾﴾.

سورة الملك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ. . . ﴿٢١﴾﴾.

سورة يس: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

تؤكد الايات الثلاثة الأخيرة على أهمية العيون المائية وتموينها بماء المطر الذي يتجه إليها. ويستحق الأمر وقفة. لنذكر بهيمنة بعض المفاهيم في القرون الوسطى، كمفهوم أرسطو الذي كان يرى أن الينابيع المائية تتمون بواسطة بحيرات جوفية. ويصف ر. اَمينيرَاس R. Remenieras الأستاذ بالمدرسة الوطنية للهندسة الزراعية والمياه والغابات في مقاله «الهيدرولوجيا Hydrologie» بدائرة معارف أونيفير.ساليس، يصف المراحل الرئيسة في علم المياه ويستشهد بأعمال الري القديمة الرائعة، وخاصة تلك التي أُنجزت في الشرق الأوسط، وهو يُلاحظ أن المعرفة العملية قد سادت كل هذه الإنجازات،

على حين كانت الأفكار صادرة عن مفاهيم مغلوطة. ويردف المؤلف قائلاً: «ويجب أن ننتظر حتى عصر النهضة (ما بين 1400 و 1600) تقريباً حتى تُخلي المفاهيم الفلسفية الصرف المكان لأبحاث تعتمد على الملاحظة الموضوعية للظاهرات الهيدرولوجية. فقد ثار ليونارد دافنشي Leonard de Vinci (1452 – 1519) على دعاوى أرسطو. ويُعطي برنارد باليسي Bernard Palissy في بحث له بعنوان «خطاب في روعة طبيعة المياه والعيون الطبيعية منها والصناعية» (باريس 1570). يعطي تفسيراً صحيحاً عن دور الماء، وخاصة تموين الأمطار للينابيع».

أليست هذه بالتحديد هي الإشارة التي نجدها في الآية 21 من سورة الزمر 39 التي تذكر اتجاه الأمطار نحو الينابيع في الأرض.

إن المطر والبرد موضوع الآية (43) من سورة النور: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وتستحق العبارة التالية تعليقاً: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة].

الاستشهاد بأن الله كان يستطيع أن يجعل الماء الطيب بطبيعته مالحاً شديد الملوحة هو طريقة في التعبير عن القدرة الإلهية، وطريقة أخرى في التعبير عن هذه القدرة نفسها؛ تَحدّي الإنسان أن يُنزل الماء من السحاب. ولكن، إذا كانت الطريقة الأولى مجرد قول بَديهي، أفلا تكون الثانية كذلك في العصر الحديث؛ حيث سمحت التكنولوجيا بإطلاق المطر صناعياً...؟ أيمكن معارضة دعوى القرآن بطاقة البشر على إنتاج المطر؟

ليس الأمر كذلك، إذ يبدو أنه لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار بحدود إمكانيات الإنسان في هذا الميدان. وقد كتب م. أ. فاسي M.A.Facy مهندس عام الأرصاد الجوية الوطنية في مقالة «الهواطل» بدائرة معارف أونيفرساليس ما يلي: «لن يمكن أبداً إسقاط المطر من سحابة لا تحتوي على سمات السحابة القابلة للهطول، أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور (أو النضج)». وبالتالي فإن الإنسان لا يستطيع إلا أن يُعجّل بعملية الهطول مستعيناً في ذلك بالوسائل التقنية الملائمة، على شرط أن تكون الظروف الطبيعية لذلك جاهزة سلفاً، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان الجفاف عمليّاً، وهذا غير حادث. كما هو واضح التحكم في المطر والطقس الجميل ما زال حتى اليوم حلماً.

لا يستطيع الإنسان أن يقطع كيفما يشاء الدورة الثابتة التي تضمن حركة المياه في الطبيعة، وعلى حسب تعليمات الهيدرولوجيا الحديثة فيمكن تلخيص هذه الدورة كما يلي:

يثير الإشعاع الحراري للشمس تبخر الماء في المحيطات وكل السطوح الأرضية المغطاة أو المشبعة بالماء، يتصاعد بخار الماء بهذا الشكل نحو الجو ويُشكل سُحباً عن طريق تكاثفه، عندئذ تدخل الرياح لتؤدي دورها في نقل السُحب بعد تشكلها إلى مسافات متنوعة، وقد تختفي السُحب دون أن تعطي مطراً. كما يمكن أن تلتقي كُتل السحاب مع كُتل أُخرى لتعطي بذلك سُحباً ذات كثافة كبرى، وقد تتجزأ لتعطي مطراً في مرحلة من تطورها. وسرعان ما تتم الدورة بوصول المطر إلى البحار (التي تشكل 70٪ من سطح الكرة الأرضية). أما المطر الذي يصل إلى الأرض فقد يُمتص جزئياً بواسطة النباتات، مساهماً بذلك في نموها، وهذه بدورها تقوم من خلال ترشحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجو. أما الجزء الآخر فإنه يتسلل بمقدار قد يقل أو

يكثر إلى التربة ليتجه نحو المحيطات عبر مجاري الماء أو قد يتسرب في التربة ليعود نحو الشبكة السطحية عن طريق الينابيع أو الأماكن الأخرى التي يخرج منها الماء إلى السطح.

ولنقارن معطيات علم الهيدرولوجيا الحديث بتلك التي نجدها في كثير من الآيات القرآنية المذكورة في هذه الفقرة، سنلاحظ وجود توافق رائع بين الاثنين.

البحـــار

إذا كانت الآيات القرآنية تُعطي بهذا الشكل مادة للمقارنة مع المعارف الحديثة فيما يخص دورة الماء في الطبيعة عامة، فليس الأمر كذلك فيما يخص البحار؛ إذ ليس هناك جملة قرآنية واحدة عن البحار تدعو إلى المقابلة مع المعطيات العلمية حصرياً المعنى. ومع ذلك فلا يقلل هذا من ضرورة التأكيد على أنه ليس في القرآن أية جملة عن البحار تحتوي على مرجع إلى معتقدات أو أساطير أو خرافات كانت سائدة في عصره.

وهناك عدد من الآيات تتصل بالمحيطات وبالملاحة وتقدم للتأمل علامات للقدرة الإلهية، تنبع من أمور الملاحظة العامة وهذه الآيات هي:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان].

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يس].

وكما هو واضح فالمقصود هنا السفينة التي تحمل الناس على البحر كما حمل الفلك من قبل نوحاً والركاب بما سمح له بالوصول إلى البر.

وهناك أمر آخر للملاحظة خاص بالبحر يمكن فصله عن كل آيات القرآن الخاصة بهذا الموضوع، وذلك لأن له صفة خاصة، فهناك ثلاث آيات تشير إلى بعض صفات الأنهار الكبيرة عندما تصب في المحيطات.

نخن نعرف تماماً الظاهرة التي كثيراً ما تُشاهد عن عدم الاختلاط الفوري لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة. ويرى البعض أن القرآن يُشير إليها لعلاقتها بمصب نَهري دجلة والفرات اللذين يشكلان بالتقائهما بحراً، إذا جاز القول، طوله أكثر من 150 كم، هو شط العرب. وفي الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة جيدة هي انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضي، وذلك يضمن ريّاً جيداً. وحتى يُفهم النص جيداً لا بد من معرفة أن كلمة بحر تعني كمّاً كبيراً من الماء وتنطبق على المحيطات كما تنطبق على الأنهار الكبيرة مثل النيل ودحلة والفرات.

وهذه هي الآيات التي تتحدث عن تلك الظاهرة:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ ﴾ [الرحمن].

وبالإضافة إلى ذكر الأمر الرئيسي تُشير هذه الآيات إلى الثروات المستخرجة من المياه العذبة والمياه المالحة، أي الأسماك وحُلي الملبس من مرجان ولؤلؤ. أما عن ظاهرة عدم اختلاط المياه النهرية بماء البحر عند المصب فيجب أن تعرف أن هذا لا يخص دجلة والفرات وحدهما اللذين لا يذكرهما النصُّ، وإن كان من المعتقد ان يُشير إليهما. إن بعض المجاري النهرية التي تتميز بمخزون مائي كبير مثل: المسيسبي، ونهر يَانج تسي تتميز أيضاً بهذه الخاصية، فاختلاط المياه لا يتم أحياناً إلا في عرض البحر.

ج ـ تضاريس الأرض

إن تركيب الأرض معقد، يمكن تخيلها متكونة من طبقة عميقة تسودها درجات حرارية مرتفعة جداً مع جزء مركزي منها تنصهر فيه الصخور على وجه خاص وطبقة سطحية، أي القشرة الأرضية، باردة وصلبة. وهذه القشرة رقيقة جداً فسمكها يتراوح من عدة كيلومترات إلى عدة عشرات من الكيلومترات على أقصى تقدير، على حين يزيد نصف قطر الأرض بقليل على 6000 كم؛ وذلك يعني أن متوسط قشرة الأرض لا يمثل واحداً من مائة من نصف قطر الأرض. لقد وقعت الظواهر الجيولوجية على هذه القشرة الرقيبة إن جاز القول. وأساس هذه الظواهر هو التعرجات وهي أصل سلسلة الجبال، ويسمى تشكلها في علم الجيولوجيا بالـ Orogenese (أي: تكون الجبال). ولهذه العملية أهمية بالغة، لظهور البروز الذي سيشكل جبلاً مرتبطاً به في العمق بانغراز نسبي للقشرة الأرضية التي تؤكد قاعدة للطبقة التحتية.

إن تاريخ توزع البحار والأراضي على سطح الكرة لم يُعرف إلا حديثاً، وهو غير كامل حتى بالنسبة إلى العصور الأقل قدماً التي تعرف أحسن من غيرها. ويحتمل أن يرجع ظهور المحيطات المشكلة للسطح المائي للكرة Hydrosphere إلى نصف مليار سنة تقريباً. أما القارات التي كانت تشكل كتلة واحدة في نهاية العصر الأول تفرقت بعد ذلك. فإن القارات أو قِطعاً من القارات قد ظهرت بواسطة عملية تشكل الجبال في المنطقة المحيطية (حالة قارة شمال الأطلنطي وجزء من أوروبا مثلاً).

وعلى حسب الأفكار الحديثة فإن ظهور سلاسل الجبال هو الذي يسود تاريخ تشكل الأراضي التي برزت. ويُصنف كل تطور الأرض من العصر الأول إلى العصر الرابع على حسب مراحل تكون الجبال Phases Orogeniques، وتجمع هذه في دورات لها نفس الاسم كي تشكل لبروز جبلي كان له رد فعل على التوازن بين البحار والقارات. ففي عملية التطور هذه اختفى بعض أجزاء من الأرض كانت قد ظهرت من قبل، وظهرت أجزاء أخرى. وقد تعدّل منذ مئات من ملايين السنين توزيع المناطق القارية والمحيطية: ولا تحتل المناطق القارية الآن إلا ثلاثة أعشار الكرة الأرضية.

هكذا تتلخص بشكل ناقص وغير مكتمل التحولات التي حدثت في مئات ملايين السنوات الماضية.

فيما يخص تضاريس الأرض فلا يكاد القرآن يتحدث إلا عن تشكل الجبال. في الواقع ليس هناك الكثير مما يمكن ان يُقال من وجهة النظر التي تهمنا عن الآيات التي تُعبّر فقط عن عناية الله بالإنسان وذلك بالنسبة لتشكل الأرض كما في الآيات التالية:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح].

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات].

هذا البساط الذي مُد وفُرشَ هو القشرة الأرضية، أي تلك الصدفة التي تصلبت والتي نستطيع الحياة عليها، أما الطبقات التحتية للكرة فهي ساخنة جداً وسائلة وغير صالحة لأي نوع من أنواع الحياة.

مهمة جدّاً تلك الجمل القرآنية الخاصة بالجبال وإشارتها إلى ثباتها نتيجة لظاهرات التعرج: ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية]. ويدعو السياق هنا الكافرين لأن ينظروا نحو بعض الظاهرات الطبيعية. وتتضح بجلاء في هذه الآية فكرة الحذر الكائن داخل الأرض، وتُحدد الآيات التالية أيضاً هذا المعنى:

﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ].

والأوتاد المشار إليها هنا هي تلك التي تُستخدم في تثبيت الخيام في الأرض (أوتاد، والمفرد: وتد).

ويصف علماء الجيولوجيا الحديثون تعرجات الأرض بأنها تثبت الأجزاء البارزة التي تتنوع أبعادها من الكيلو متر إلى عشرة كيلومترات، ومن ظاهرة التعرج هذه ينتج ثبات القشرة الأرضية. وعليه فإننا نقرأ في بعض عبارات القرآن بعض تأملات عن الجبال مثل العبارت الآتية:

﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات].

﴿ . . . وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ . . . ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان].

وتتكرر نفس الجملة في الآية (15) من سورة النحل ونفس الفكرة معبرة عنها بشكل لا يختلف كثيراً في الآية (31) من سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ . . . ﴿٣١﴾ ﴾.

وتقول هذه الآيات إن الطريقة التي خُلقت بها الجبال موائمة للثبات، وذلك يتفق تماماً مع معطيات علم الجيولوجيا.

د. الجو الأرضي:

إلى جانب بعض الجوانب التي تخص السماء بالتحديد والتي دُرست في الفصل السابق، فإن القرآن يحتوي على بعض عبارات متعلقة بالظاهرات التي تحدث في الجو. أما فيما يخص مقابلتها بمعطيات العلم الحديث فسنلاحظ فقط أن هذا أيضاً لا يوجدُ تناقضاً مع المعارف الحديثة التي نملكها اليوم عن الظاهرات المذكورة.

الارتفاع:

الواقع أن الآية (125) من سورة الأنعام تعبر عن فكرة عادية تماماً عن الضيق الذي نشعر به في الأماكن المرتفعة والذي يزداد كلما ارتفعنا في الجو، تقول الآية:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١٢٥﴾﴾.

ويدعي البعض أن فكرة ضيق التنفس كانت غير معروفة عند العرب في عصر محمد ﷺ، ولكن يبدو أن الأمر غير ذلك، فوجود مرتفعات عالية تربو على 3500م، في شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطق القول بجهل صعوبة التنفس عن الارتفاع[1]. كما أن هناك من المعلقين من أراد أن يرى في

---

(1) تقع مدينة صنعاء عاصمة اليمن التي كانت مأهولة بالسكان في عصر محمد ﷺ على ارتفاع قدره 2400م، تقريباً.

تلك الآية إشارة لغزو الفضاء، ولكن يبدو أنه لا بد من استبعاد هذا تماماً، على الأقل فيما يتعلق بهذه الآية.

الكهرباء الجوية:

الكهرباء الجوية ونتائجها الصواعق والبرد مشار إليها في الآيات التالية:

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور].

وفي هاتين الآيتين تعبير عن علاقة واضحة بين تشكُّل سُحب المطر الثقيلة أو البرد ووقوع الصاعقة: فالأولى موضوع اشتهاء لما تمثله من خير، على حين تخشى الثانية وهي خاضعة لقرار القادر تعالى. إن العلاقة بين الظاهرتين تتفق مع المعارف التي نملكها اليوم عن الكهرباء الجوية.

الظـــل:

أما ظاهرة الظل وانتقاله، تلك التي نجد تعليلها عادياً في عصرنا، فإنها موضوع تأملات في الآيات التالية:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا . . . ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان].

يشير النص القرآني إلى العلاقات بين الظل والشمس، وذلك خارج كل ما يتصل بخشوع كل شيء مخلوق أمام الله بما في ذلك ظلال كل شيء واسترداد الله كما يريد لكل دليل على قدرته. وفي هذا الشأن لا بد أن نذكر أن الناس كانوا يعتقدون في عصر محمد ﷺ أن انتقال الظل مشروط بانتقال الشمس من الشرق إلى الغرب. وكان تطبيق هذا في المزولة الشمسية لقياس الزمن بين شروق الشمس وغروبها. أما هنا فيشير القرآن إلى الظاهرة دون إشارة إلى تعليلها الجاري في عصر تنزيله: وقد كان يمكن لهذا التعليل أن يلقى استحسان الناس طيلة القرون التي تلت عصر محمد ﷺ، وكان ذلك يصبح خاطئاً في نهاية الأمر. أيضاً فإن القرآن يتحدث فقط عن دور الشمس كمؤشر للظل، ويُلاحظ هنا الغياب التام لأي عدم اتفاق بين الطريقة التي يذكر بها القرآن للظِل وبين ما نعرف عن هذه الظاهرة في العصر الحديث.

عالم النبات وعالم الحيوان

يجمع هذا الفصل كثيراً من الآيات التي تتحدث عن أصل الحياة وبعض جوانب عالم النباتات وموضوعات أُخرى عامة أو خاصة متعلقة بعالم الحيوان. إن تجميع الآيات الموزعة في كل القرآن في تصنيف عقلاني قادر على أن يُعطي فكرة شاملة عن المعطيات القرآنية في كل هذه الأمور.

وبالنسبة لموضوعات هذا الفصل وموضوعات الفصل التالي فستكون دراسة النص القرآني في بعض الأحيان عسيرة بشكل خاص، وذلك يرجع إلى صعوبات ملازمة للمفردات. ولم يمكن التغلب على هذه المصاعب إلا بعد

التبصر بالمعطيات العلمية الخاصة بالموضوع المعالج. وتتضح ضرورة المقابلة مع معطيات العلم بشكل يعني على وجه الخصوص الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان، ذلك لكي نكتشف معنى بعض المقولات القرآنية في هذه الميادين.

ومن هنا سنُدرك لِمَ يحكم رجل العلم على عدد من ترجمات هذه العبارات القرآنية بعدم الصحة؟ كذلك الأمر بالنسبة للتفسيرات عندما لا يملك أصحابها المعارف العلمية اللازمة لفهم النص.

أ ـ أصل الحياة

شغلت هذه المسألة في كل العصور الإنسان، سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات الحية المحيطة به. وسندرسها هنا من وجهة نظر عامة. أما الفصل التالي فسيعالج حالة الإنسان الذي يشكل وصوله على الأرض وتناسله موضوع دراسات مستفيضة على جانب كبير من الأهمية.

وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تماماً، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ في آية تخص أيضاً عملية تشكل الكون التي ذكرناها وعلقنا عليها سابقاً.

1- سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾.

ليس هناك شك في مفهوم المصدر. فالعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية، أو أن أصل كل شي حي هو الماء. ويتفق هذان المعنيان تماماً مع العلمية: فالثابت بصورة حاسمة أن أصل الحياة مائي، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء، وإذا

ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو: أيحتوي هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه؟

وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات؛ فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري أي في أقدم الأراضي المعروفة. ولا بد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل، وقد أتت أيضاً من المحيطات.

وتشير كلمة ماء إلى ماء السماء، كما تعني ماء المحيطات أو أي سائل آخر، وبالمعنى الأول فالماء العنصر اللازم لأي حياة نباتية.

2- سورة طه: ﴿... وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

وتلك أول عبارة عن «الزوجية» في النباتات، وسنعود فيما بعد إلى هذا المفهوم.

إن الكلمة بمعناها الثاني، أي ذلك الذي يعني «كوسائل» دون أي تحديد مستخدمة في شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكّل أي حيوان.

3- سورة النور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ... ﴿٤٥﴾﴾.

وسنرى فيما بعد أن الكلمة تنطبق أيضاً على السائل المنوي[1].

وإذن فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً أو العنصر الذي يجعل النباتات تولد في التربة، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان فإن كل عبارات القرآن تتفق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة، ولا مكان مطلقاً في نص القرآن لأي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن.

---

(1) سائل مفروز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل وهو يحتوي على الحيوانات المنوية.

ب ـ عالم النبات

لا نستطيع هنا أن نذكر بشكل كلي العبارات الكثيرة في القرآن التي تتحدث عن نِعم الله فيما يتعلق بالطابع النفعي للمطر الذي ينبت النبات؛ لنختار إذن ثلاث آيات من هذا الموضوع:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق].

ويضيف القرآن إلى هذه الاعتبارات العامة اعتبارات أخرى تنصب على جوانب أكثر تحديداً.

التوازن الذي يتحكم في عالم النبات

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر].

تنويع المآكل:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

ومما هو جدير بالملاحظة وجود هذه الآيات، ذلك حتى نبرز بساطة ورزانة الألفاظ المستخدمة، وغياب ذكر معتقدات العصر المناقضة للحقائق الأساسية التي تم إثباتها في عصرنا. ولكن أكثر ما يثير الانتباه هو العبارات القرآنية الخاصة بالتناسل في عالم النبات.

تناسل النبات:

يجب أن نذكر بأن التناسل يتم في عالم النبات بطريقتين: طريقة جنسية وأخرى لا جنسية. والحقيقة أن الطريقة الأولى هي فقط التي تستحق اسم التناسل، فهي التي تحدد العملية البيولوجية التي تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذي أولده.

أما التناسل اللاجنسي فهو مجرد تكاثر، ذلك أنه ينتج عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلي نمواً يجعله شبيهاً بذلك الذي خرج منه، ويعتبر جيارمون Guilermond ومانجينو Mangenot؛ هذا التكاثر (حالة نمو خاصة). والمثال البسيط على ذلك هو الشتل،أي: قطع غصن من نبات ما ووضعه في التربة وسقايته بالشكل الملائم ليتجدد بواسطة جذور جديدة. ولبعض النباتات أعضاء خاصة لهذا الغرض والبعض الآخر يصدر غبيرات تتصرف، إذا جاز القول، كما لو كانت حبيبات. (ولنذكر مرة أخرى أن الحبوب هي ناتج عملية التناسل الجنسي).

ويتم التناسل الجنسي بواسطة تزاوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية تنتمي إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصل. والقرآن لا يذكر إلا هذه العملية.

﴿. . . وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه].

زوج (الجمع: أزواج): هو ما يتكون من اثنين. وتنطبق الكلمة على زوج من الأحذية، كما تنطبق على وحدة تتكون من ذكر وأنثى.

﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج].

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان].

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۝٣﴾ [الرعد].

المعروف أن الثمرة هي نتاج عملية تناسل النباتات العليا التي تمتلك نظاماً مركباً. والمرحلة التي تسبق الثمرة هي مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الإبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات). وبعد نقل اللقاح تعطي هذه الأخيرة الثمار التي تعطي هذه الحبوب بعد النضج. إن كل ثمرة إذن تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة. وذلك ما تريد الآية القرآنية أن تقول.

ومع ذلك فيجب أن نلاحظ أن الثمرات في بعض الأنواع تستطيع أن تنتج عن زهور غير ملقحة. (وهي الثمار عذرية التولد Parthenocarpiques، كما هو الحال بالنسبة لثمار الموز وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والأعناب. ولا يعني هذا أن هذه الثمار لا تأتي من نباتات ذات نشاط جنسي).

ويتم التناسل عندما تنبت الحبة بعد أن ينفتح غطاؤها الخارجي (وعندما يصبح غطاء الحبة صلباً تتكون النواة). ويسمح هذا الانفتاح بخروج الجذور التي تنهل من التربة ما يلزم لنباة بطيء الحياة، أي الحبة، وذلك حتى تنمو وتعطي فرداً جديداً.

وتشير إحدى الآيات إلى هذا الإنبات:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۝٩٥﴾ [الأنعام].

وإذا كان القرآن يكرر كثيراً وجود عنصري الزوجية هذه في عالم النبات، فإنه يسجل مفهوم التزاوج في إطار أكثر عمومية لا يُعين حدوده.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس].

ويمكن تقديم افتراضات عديدة عن معنى الأشياء التي لم يكن الناس يعرفونها في عصر محمد ﷺ، والتي يمكن أن نرى اليوم لها بنيات Structures أو وظيفة تزاوج، سواء كان ذلك فيما يخص العالم المتناهي في الصغر أو المتناهي في الكبر أو عالم الأحياء أو عالم الجماد. المهم هو أن تحفظ المفاهيم المعبر عنها بشكل واضح وأن تلاحظ مرة أخرى أننا لا نجد في القرآن تنافراً مع علم اليوم.

ج ـ عالم الحيوان

في القرآن عدة مسائل متعلقة بعالم الحيوان، وهي موضوع ملاحظات تتطلب أن نقوم بمقابلة مع المعارف العلمية الحديثة فيما يتعلق بهذه النقاط الخاصة. هنا أيضاً نخاطر بأن نعطي عرضاً غير كامل لما يحتويه القرآن بالنسبة لهذا الموضوع ما لم تُذكر عبارة كالتالية، حيث يشير الله إلى خلق بعض عناصر عالم الحيوان بهدف أن يجعل الناس يتأملون في نعمة الله عليهم. ونقدم هذه العبارة أساساً لإعطاء مَثَل عن الطريقة التي يذكر بها القرآن تكيف الخلق الذي يتناغم مع احتياجات الإنسان خاصة في حالة الفلاحين؛ حيث لا يشكل هذا المثل مادة لدراسة من نوع آخر.

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

ﭐلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل].

وإلى جانب هذه الاعتبارات ذات الطابع العام فالقرآن يعرض لبعض المعطيات عن موضوعات شديدة التنوع منها:

ـ التناسل في علم الحيوان.

ـ ذكر وجود الجماعت الحيوانية.

ـ تأملات في النحل والعناكب والطيور.

ـ مقولة عن أصل لبن الحيوان.

1-التناسل في عالم الحيوان

يذكر التناسل بشكل شديد الإيجاز في الآيتين 45، 46 من سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾.

الزوج، عنصر التزاوج هو نفس التعبير الذي وجدناه في الآيات الخاصة بتناسل التباتات. الجنسان مدلول عليهما هنا، ولكن التفصيل الرائع يكمن في التحديد المُعطى عن الكم الضئيل من السائل اللازم للتناسل. وبما أن الكلمة الدالة على السائل المنوي مستخدمة فيما يخص الإنسان، فإننا سنقدم في الفصل التالي تعليقاً على أهمية هذه الملاحظة.

2-وجود الجماعات الحيوانية

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام].

في هذه الآية عدة نقاط يجب تفسيرها. أولاً يبدو أن القرآن يذكر مصير

الحيوانات بعد موتها؛ بالنسبة لهذه النقطة فليس للإسلام أي مذهب فيما هو واضح. إن المصير العام[1]، الذي يبدو أنه الموضوع هنا، يمكن تصوره باعتباره مصيراً مطلقاً أو مصيراً نسبياً محدوداً ببنيات Structures ونظاماً وظيفياً تتحكم في طريقة ما للسلوك، فالحيوان يستجيب لدوافع خارجية متنوعة وهو يخضع وظيفياً في ذلك لشروط خاصة.

وحسب بلاشير Blachere فإن مفسراً قديماً مثل الرازي كان يرى أن هذه الآية لا تعني إلا أفعالاً غريزية تحمد بها الحيوانات الله. أما الشيخ أبو بكر حمزة فإنه يتحدث في تعليقات ترجمته للقرآن عن «الغريزة التي تدفع، على حسب الحكمة الإلهية، كل الكائنات لكي تجتمع للتناسل وللتنظيم في جماعات تطلب أن يكون عمل كل فرد مفيداً للجماعة».

لقد درست هذه السلوكيات الحيوانية بدقة في العقود الأخيرة، وانتهى الدارسون إلى أن اكتشفوا وجود جماعات حيوانية حقيقية. ولا شك أن دراسة نتيجة عمل جماعة ما قد جعل الدارسين يقبلون منذ زمن طويل ضرورة التنظيم الجماعي. ولكن لم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات، بالنسبة لبعض الأنواع، إلا منذ عهد قريب. إن أحسن مثال مدروس وأكثر مثال معروف هو بلا جدال مثال النحل الذي ترتبط بسلوكه أسماء فون فريش Von Frisch ولورنز Lorenz وتنبرجن Tinbergen الذين حازوا لهذا السبب على جائزة نوبل في عام 1973م.

---

(1) رأينا في مقدمة الجزء الثالث من هذا الكتاب ما يجب أن نرى في معنى المصير بالنسبة لما يختص بالإنسان.

3- تأملات تتعلق بالنحل والعناكب والطيور

عندما يريد أخصائيو الجهاز العصبي أن يعطوا أمثلة معبرة عن النظام المعجز الذي يتحكم في السلوك الحيواني، فإن الحيوانات التي ربما تذكر أكثر الأمر هي النحل والعناكب والطيور (وخاصة الطيور المهاجرة). وعلى أي حال فيمكن التأكد بأن هذه الجماعات الثلاثة تشكل أمثلة غاية في الجمال عن النظام الراقي.

وإذن فذكر النص القرآني لهذه الثلاثية المثلى في عالم الحيوان يستجيب تماماً للطابع الهام بشكل فريد من وجهة النظر العلمية لكل حيوان من تلك الحيوانات المذكورة هنا.

النحل:

النحل موضوع أطول تعليق في القرآن: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ[1] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل].

من العسير أن نعرف ما المقصود بالتحديد بالأمر باتباع سبل الله بتواضع، ما لم يكن ذلك من وجهة نظر عامة. وكل ما يمكن أن يُقال، بالاعتماد على المعرفة التي نملك اليوم عن سلوك النحلة، هو أن هناك نظاماً عصبياً رائعاً هو

---

(1) هذه الآية الأخيرة هي الآية الوحيدة التي تشير إلى إمكانية دواء الإنسان. الواقع أن العسل مفيد في بعض الأمراض، ولا يشير القرآن في أي موضوع آخر إلى أي فن تطبيب من أي نوع على العكس من كل ما قيل.

قاعدة السلوك، يمثل ما في حالات الحيوان الثلاثة المذكورة في القرآن كمثل. المعروف أن النحل يملك وسيلة للتخاطب وذلك عن طريق الرقص، إن النحل قادر على أن يعرف ـ بهذا الشكل ـ الاتجاه الذي يجب أن يتخذه والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيمتص رحيقها، وتثبت تجربة فون فريش الشهيرة دلالة حركات الحشرة التي يقصد بها نقل المعلومات بين النحل العامل وبعضه.

العنكبوت:

يشير القرآن إلى العنكبوت للتأكيد على دقة مسكنه، فهو من بين كل المساكن أكثرها وَهَناً. يقول النص القرآني إنه ملجأ غير مأمون، كذلك الذي يتخذه الناس ممن اختاروا إلهاً من دون الله.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت].

الواقع أن نسيج العنكبوت يتكون من خيوط حريرية تفرزها غدد الحيوان وعيار هذه الخيوط ضئيل متناه في الضآلة. ولا يستطيع الإنسان أن يُقلد دقة هذا النسيج.

ويتسائل علماء الطبيعيات عن خطة العمل الخارقة التي سجلتها الخلايا العصبية للحيوان والتي تسمح له بتكوين نسيج ذي هندسة كاملة، ولكن القرآن لا يتحدث عن هذا.

الطيـور:

الطيور موضوع إشارات متعددة في القرآن، وهي تدخل تحت حوادث حياة إبراهيم ويوسف وداود وسليمان والمسيح عليهم السلام وليس لهذه الإشارات صلة مع الموضوع المعالج هنا.

وقد رأيت أعلاه الآية الخاصة بوجود جماعات الحيوانات الأرضية والطيور.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وهناك آيتان أُخريان تبرزان خضوع الطيور المطلق لسلطان الله:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ... ﴿١٩﴾ ﴾[الملك].

إن تفسير كل كلمة لكل من تلك الآيات أمر عسير، والتفسير الذي أعطينا يعبر عن فكرة أن الله يملك الطيور تحت سلطانه، ويعني المعنى الأول لفعل أَمسك: وضع يده على الشيء، قبض، احتفظ في يده بشيء.

ويمكن تماماً أن نقرب بين هذه الآيات التي تبرز الارتباط الوثيق جداً لسلوك الطائر في علاقته مع سلطان الله وبين المعطيات الحديثة التي أوضحت درجة الكمال التي وصل إليها بعض أنواع الطيور في التخطيط لبرامج تنقلاتها. فوجود برنامج هجرة مسجل على الجدول الجنيطقي Code Genetique للحيوان هو وحده الذي يستطيع أن يُعلل تلك المسارات المعقدة والطويلة جداً التي تقوم بها طيور صغيرة السن ودون تجربة سابقة وبلا أي قائد لتعود بعد ذلك إلى نفس المنطلق في تاريخ محدد. ويذكر الأستاذ هامبورج Hamburger على سبيل المثال في كتابه «القوة والوهن»[1] La Puissance et la Fragilite المثل الشهير لطائر المحيط الهادىء المعروف باسم Mutton-bird ورحلته على

---

(1) Flammarion, Editeur, Paris, 1972.

شكل ∞ والتي تبلغ 25000 كم[1] ومن المقبول الآن أن التوجيهات المعقدة جداً لمثل هذه الرحلة مسجلة بالضرورة على خلايا الطائر العصبية، ولا شك أنها خُططت في برنامج.

فَمَن المُخطط إذن؟

أصول مكونات لبن الحيوان:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل].

يتفق تعريف القرآن لأصل مكونات لبن الحيوان مع معطيات المعرفة الحديثة اتفاقاً تاماً. والطريقة التي تُفسر بها الآية شخصية، فالتفسيرات التي تُعطى لها عادة، حتى الحديثة منها، لم تعد مقبولة في رأيي. وإليكم مثالين على ذلك:

ـ تفسير ر. بلاشير (1966)[2].

«الحقيقة أن لكم في أنعامكم موعظة لا شك فيها، نسقيكم من لبن نقي لذيذ لمن يشربه، يأتي مما في جوفها بين الطعام المهضوم والدم».

ـ تفسير الأستاذ حميد الله (1971)[3].

«ولا شك أن في الحيوانات موضوعاً للتأمل، فما في جوفها بين الفضلات والدم، نجعلكم تشربون لبناً صافياً، سهل المشرب على الشاربين».

---

(1) يقوم الطائر بهذه الرحلة في ستة أشهر ليعود إلى المكان الذي انطلق منه بتأخير أسبوع بأقصى حد.

(2) Le coran, G.P. Maisonneuve et Larose, 1966.

(3) Le Coran, Club Francais du Liver, 1971.

ولو قدمنا مثل هذه النصوص لأي أخصائي في وظائف الأعضاء فسيقول بأنها غامضة شديدة الغموض؛ إذ لا يتضح بتاتاً أي توافق مع خبرات المعرفة الحديثة حتى الأولية منها. ومع ذلك فهذه السطور من كُتب مستعربين بارزين، ولكنه شيء معروف جداً: إن أي معلق، مهما يكن خبيراً، عرضة للوقوع في خطأ التعليق على المقولة العلمية ما لم يكن متخصصاً في المادة المعينة.

أما التفسير الذي يبدو لنا صحيحاً فهو:

«الحقيقة أنكم تجدون علماً في حيواناتكم الماشية: إننا نعطيكم شراباً مما يوجد في أجسامها، أي: ما يأتي من التلاحم بين محتوى الأمعاء والدم، لبناً صافياً يسير الابتلاع على مَن يشربونه».

هذا التفسير مقارب للذي يعطيه المنتخب في تفسير القرآن الكريم (الطبعة الثالثة عام 1973) الذي نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، فهو يعتمد على معطيات علم وظائف الأعضاء الحديث.

ونعلل لهذا التفسير، فيما يختص بالمفردات بما يلي:

لقد قلت: «مما في داخل أجسامها» وليس في جوفها كما قال ر. بلاشير أو الآستاذ حميد الله، لأن كلمة «بطن» أيضاً تعني وسطاً أو داخل شيء وليس لهذه الكلمة معنى تشريحي معين. وبالتالي نقول: «مما في داخل أجسامها يبدو لنا متوائماً تماماً مع السياق.

أما مفهوم مصدر مكونات اللبن فنجد تعبيره في حرف الجر «من» ولفظة الربط «بين» ولا يدل فقط الحرف الأخير على فكرة وجود شيء من بين أشياء أخرى أو داخلها، مثلما نرى ذلك في ترجمتي بلاشير وحميد الله الفرنسيين، وإنما تدل أيضاً على مواجهة شيئين أو شخصين.

ولكي نفهم معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية فلا بد من الاستعانة بمعلومات علم وظائف الأعضاء.

تأتي المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية. وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة. ويتم هذا الانتقال بطريقتين: إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية الليمفاوية وإما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد، حيث تقع عليها بعض التعديلات، ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيراً إلى الدورة الدموية. بهذا الشكل إذن يمر كل شيء بالدورة الدموية.

والغدد الثديية هي التي تفرز مكونات اللبن، وتتغذى هذه الغدد ـ إذا جاز القول ـ بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي إليها بواسطة الدم الدائر، الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يتغذى أي عضو آخر.

كل شيء يحدث هنا، إذن ابتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه. هذه المعلومة المحددة تُعد اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم. وكانت غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد ﷺ. إن معرفتها ترجع إلى العصر الحديث، أما اكتشاف الدورة الدموية فهو من عمل هارفي Harvey وقد تم هذا الاكتشاف بعد عشرة قرون تقريباً من تنزيل القرآن.

إني أعتقد أن وجود الآية القرآنية التي تشير إلى تلك المعلومات لا يمكن تفسيره وضعياً، وذلك بالنظر إلى بُعد العصر الذي صيّغت فيه هذه المعلومات.

التناسل الإنساني:

التناسل موضوع تفلت أي كتابات قديمة عنه من إصدار مفاهيم خاطئة ما إن تدخل في تفاصيله ولو قليلاً. ففي القرون الوسطى، بل حتى في عصر لا يبعد عنا كثيراً، كانت ضروب كثيرة من الخرافات تُحيط بالتناسل. وكيف لا وخاصة أن فهم عملياته المعقدة تطلبت من الإنسان أن يعرف علم التشريح وأن يكتشف المجهر وأن يضع العلوم الأساسية التي تنهل منها علوم وظائف الأعضاء والأجنة والتولد وغير ذلك؟

ولكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى القرآن، فهو يذكر في مواضع عديدة العمليات للتناسل. القرآن يصف مراحله بالدقة ولا تحديد دون أن يكون في قراءتها أي مقولة مشوبة بالخطأ. إنه يعبر عن ذلك في عبارات بسيطة، يسهل على فهم الإنسان إدراكها، وتتفق تماماً مع ما سيُكتشف بعد ذلك بكثير.

وإذا كان التناسل الإنساني مذكوراً في عشرات من الآيات القرآنية دون أي ترتيب واضح، فإن القرآن يعرض له مستعيناً بمقولات ينصب كل منها على نقطة أو عدة نقاط خاصة، ولا بد من تجميع هذه الآيات حتى تكون لدينا فكرة شاملة، فذلك ييسر التعليق مثلما فعلنا بالنسبة للموضوعات الأخرى التي عالجناها.

إعادة بعض المعلومات

يجب أن نُعيد بعض المعلومات التي كانت مجهولة في عصر تنزيل القرآن وفي القرون التالية.

التناسل البشري مكفول بواسطة سلسلة من عمليات مشتركة بين كل الثدييات. وبداية هذه السلسلة الإخصاب في البوق لبويضة انفصلت عن

المبيض في منتصف الدورة الحيضية، والعامل المخصب هو مني الذكر أو بالتحديد الحيوان المنوي، فخلية منتجة واحدة منه تكفي للإخصاب: إذن، فلكي يتم الإخصاب يكفي له كمية ضئيلة جداً من هذا السائل المنوي الذي يحتوي على حيوانات منوية بعدد ضخم (لعملية قذف واحدة عشرات من ملايين الحيوانات المنوية). وينتج السائل المنوي بواسطة الخصيتين ويخزن مؤقتاً في جهاز للتخزين وفي القنوات التي تؤدي في النهاية إلى المسالك البولية، وتوجد غدد ملحقة متفرقة على طول هذه المسالك تضيف إلى السائل نفسه إفرازاً إضافياً، لكنه لا يحتوي على عناصر مخصبة.

وفي نقطة معينة من جهاز الأنثى التناسلي تعشش البيضة المخصبة؛ فهي تهبط عبر بُوقٍ من البوقين إلى الرحم وتعشش بالرحم نفسه، حيث ما تلبث أن تعلق به حرفيّاً وتدخل في سمكهِ ثم في عضلته بعد تشكل المشيمة وبالاستعان بها. وإذا تم، على سبيل المثال، تثبيت البيضة المخصبة في البوق بدلاً من الرحم فإن الحمل سينقطع.

ويبدو الجنين، عندما يمكن رؤيته بالعين المجردة، على شكل كتلة لحمية صغيرة لا يمكن في البداية أن نميز فيها مظهر الكائن الإنساني، ويتم في هذه الكتلة تدريجياً وعبر مراحل متوالية معروفة اليوم جيداً، ما سيكون بعد ذلك الهيكل العظمي تحيط به العضلات والجهاز الدوري والأحشاء إلى غير ذلك.

تلك هي المعلومات التي ستستخدم للمقارنة مع ما نقرأ في القرآن عن التناسل.

التناسل الإنساني في القرآن:

إن تكوين فكرة عن محتوى القرآن في هذا الموضوع ليس أمراً يسيراً.

وتكمن الصعوبة الأولى في أن المقولات الخاصة بالتناسل الإنساني متفرقة في كل الكتاب مثلما أشرنا، ولكن ليست هذه هي الصعوبة الكبرى. فأكثر ما قد يضل الباحث، هنا أيضاً، هو مشكلة المفردات.

فالواقع أن ترجمات وتفسيرات بعض الفقرات التي ما زالت منتشرة في عصرنا تُعطي لرجال العلم الذين يقرءونها فكرة مغلوطة تماماً عن الآيات الخاصة بهذا الموضوع، على سبيل المثال تقول معظم هذه التفسيرات بتشكّل الإنسان ابتداء من «جلطة دم» أو ابتداء من «التحام». وهذه المقولة لا يقبلها مطلقاً العالم المتخصص في هذا الميدان: فلم يكن أصل الإنسان أبداً شيئاً من هذا.

وسنرى في الفقرة التي تعالج تعشيش البويضة في روح الأم الأسباب التي من أجلها يقع مستعربون بارزون في مثل تلك الأخطاء، لافتراهم إلى الثقافة العلمية.

مثل هذه الملاحظة تجعلنا نتصور الأهمية الكبرى لاقتران المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى إدراك معنى المقولات القرآنية عن التناسل.

يركز القرآن أولاً على التحولات المتوالية التي يمر بها الجنين في رحم الأم حتى نهاية الحمل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار].

﴿ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح].

وإلى جانب هذه الملاحظة العامةيلفت نص القرآن الانتباه نحو نقاط عدة خاصة بالتناسل البشري، ويمكن تصنيفها كما يلي:

1ـ يتم الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً.
2ـ طبيعة السائل المخصب.
3ـ تعشش البيضة المخصبة.
4ـ تطور الجنين.

1ـ تمام الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً

يكرر القرآن هذه المعلومة 11 مرة مستخدماً التعبير الذي نجده في: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ . . . ﴿٤﴾ ﴾ [النحل].

نطفة: تأتي الكلمة من فعل يعني: سال، ونضّ، وتستخد في الإشارة إلى ما يمكن أن يتبقى في دلو بعد تفريغه. وهي إذن تشير إلى كمية من سائل ضئيلة جداً، ومن هنا كان المعنى الثاني «قطرة ماء». المقصود هنا قطرة مَنِيّ. ذلك أن نفس هذه الكلمة تقترن بكلمة منّي في آية أخرى هي: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القيامة].

وهناك آية أخرى تشير إلى النطفة المقصودة توضع في «قرار». وهذا القرار كما هو واضح تماماً يدل على الجهاز التناسلي: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون].

وتعبر صفة «مكين» التي يصف بها النص القرار عن فطرة مكان متقرر. وعلى أي حال فالمقصود هو المكان الذي ينمو فيه الإنسان في جهاز الأم. ولكن ما يهم التأكيد عليه بوجه خاص وهو تلك المعلومة عن الكمية الضئيلة جداً اللازمة للإخصاب وهي تتفق تماماً مع ما نعرف اليوم.

2ـ طبيعة السائل المخصب

يذكر القرآن هذا السائل الذي يضمن الإخصاب بصفات تستحق الدراسة:

(أ) « مَنِيّ » كما حددنا لتونا ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القيامة].

(ب) «ماء دافق»: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾[الطارق].

(جـ) «ماء مهين» ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المرسلات]، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة].

يمكن تفسير صفة مهين، فيما يبدو، ليس على أنها للسائل نفسه وإنما بسبب خروجه من نهاية الجهاز البولي، فهو إذن يتخذ الطريق الذي يخرج منه البول.

(د) «أمشاج»، أي: المخاليط أو ما هو مخلوط: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ... ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان].

ويرى الكثير من المفسرين مثل الأستاذ حميد الله، أن المقصود بهذا المخلوط هو عنصر الذكر، وعنصر الأنثى، وكذلك الأمر بالنسبة للكُتّاب القدماء؛ إذ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن فسيولوجيا الإخصاب ولا عن ظروف الإخصاب البيولوجية من ناحية الأنثى، وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير لمجرد اجتماع عنصرين.

أما المفسرون المحدثون، مثل صاحب المنتخب الذي نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، فإنهم يعدِلون عن هذه الطريقة ويميزون هنا أن نقطة المنِيّ «ذات عناصر شتى». ولا يعطي تفسير المنتخب تفصيلات أخرى عن ذلك ولكن ملاحظته، في رأيي، سديدة تماماً.

ما هي إذن عناصر المَنِيّ المختلفة؟

يتشكل السائل المنوي من إفرازات مختلفة تأتي من الغدد التالية:

أ ـ الخصيتان: (يحتوي إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية، وهي خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل، وتسبح في سائل مصلي.

ب ـ الحويصلات المنوية: تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية وتقع على مقربة من البروستاتا وتفرز إفرازاً خاصاً لكنه لا يحتوي على عناصر مخصبة.

جـ ـ البروستاتا: وتفرز سائلاً يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة.

د ـ الغدد الملحقة بالمسالك البولية: وهي الغدد المعروفة باسم كوبر Cooper أو ميري Mery وتفرز سائلاً جارياً، وغدد ليتري Littre وتفرز المخاط.

تلك هي أصول هذه المخاليط «الأمشاج» التي يبدو فعلاً أن القرآن يتحدث عنها.

بل هناك أكثر من هذا: إذا كان القرآن يتحدث عن سائل مخصب يتكون من عناصر مختلفة، فإنه يلفت نظرنا إلى أن نسل الإنسان يستمر بواسطة شيء يمكن استخراجه من هذا السائل. وذلك هو معنى الآية: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة].

سلالة: تدل الكلمة على شيء مستخرج أو خرج من شيء آخر، أو هو أحسن جزء من شيء. وأياً كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل.

إن ما يتسبب في إخصاب البويضة ويكفل التناسل هو خلية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس 1: 10,000 ملم. إن عنصراً واحداً من بين عشرات الملايين الصادرة من رجل في ظروف عادية[1] يصل إلى الولوج في البويضة. ويتبقى عدد كبير في الطريق ولا ينجح في قطع المسافة التي تؤدي

---

(1) يمكن تقدير أن 1 سم3 من السائل المنوي يتحوي على 25 مليون حيوان منوي في الظروف العادية لعملية قذف قدرها عدة سنتيمترات مكعبة.

من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم والبوق (بوق فالوب). إنه إذن جزء متناهٍ في الصغر صادر من السائل معقد التركيب هو الذي يحقق نشاطه.

فكيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآني والمعرفة العلمية التي اكتسبناها من هذه الظاهرات.

3ـ استقرار البويضة في جهاز الأنثى التناسلي:

تنزل البويضة لتعشش في التجويف الرحمي بعد أن تخصب وذلك ما يسمى بتعشش البويضة. ويسمي القرآن الرحم الذي تتخذ فيه البويضة مكاناً.

﴿. . . وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى. . . لِتَبْلُغُوا ﴿٥﴾﴾ [الحج].

ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية، وكما لو كانت بذوراً تضرب في الأرض، فإنها تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين. وهذه الامتدادات هي التي تجعل البويضة تتعلق بالرحم. ويرجع تاريخ معرفتها إلى العصور الحديثة.

ويشير القرآن خمس مرات إلى هذا التعلق:

أولاً: في الآيتين: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق].

علق: تشير الكلمة إلى ما يَعلق (ما يتشبث بشيء). ذلك هو المعنى الأول. وجلطة الدم معنى مشتق من هذا المعنى. وكثيراً ما نراه في التفاسير، غير أن هذا أمر غير صحيح ينبغي التحذير منه: فالإنسان لا يمر مطلقاً بمرحلة جلطة الدم. وينطبق نفس الأمر على تفسير آخر وهو «التصاق». تلك لفظة غير صحيحة. والمعنى الأول للكلمة، أي شيء يعلق ويتشبث، هو المعنى الذي يستجيب تماماً للواقع الثابت اليوم.

ويذكر القرآن تلك المعلومة في أربع آيات أخرى تتحدث عن التحولات المتوالية ابتداء من قطرة المَنِيّ حتى نهاية الحمل.

ثانياً: ﴿. . . فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ. . . ۝٥﴾ [الحج].

ثالثاً: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً. . . ۝١٤﴾ [المؤمنون].

رابعاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ. . . ۝٦٧﴾ [غافر].

خامساً: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة].

يصف القرآن العضو الذي يقع الحمل به بكلمة في العربية تدل اليوم على الرحم كما رأينا ذلك. وفي بعض الآيات يسميه قراراً (الآية 13 من سورة المؤمنون المذكورة أعلاه، والآية 21 من سورة المرسلات)[1].

٤ـ تطور الجنين في الرحم:

تطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم

---

(1) تذكر آية أخرى (سورة الأنعام، الآية 98) مكاناً يمكث به الإنسان. وتعبر الآية عن هذه المكان بكلمة قريبة جداً من الكلمة السابقة: هي كلمة «مستقر» وهي تشير إلى رحم الأم؛ وأنا شخصياً أعتقد أن هذا هو معنى الآيات ولكن تفسيرها بالتفصيل يستتبع إفاضات لا محل لها في هذه الدراسة.

والآية التالية أيضاً تطلب تفسيراً عسير جداً: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ. . . ۝٦﴾ [الزمر].

ويرى مفسرون محدثون في هذه الآيات الثلاثة المستويات التي تحمي الطفل في أثناء الحمل، أي: جدار البطن والرحم نفسه وأغشية الجنين (وهي المشيمة والأغلفة الرقيقة والسائل الأمنيوسي). وأرى من واجبي أن أذكر هذه الآية حتى أُحيط القارئ بكل جوانب الموضوع ولا أظن أن التفسير المُعطى هنا قابل للجدل من وجهة نظر علم التشريح. ولكن السؤال هو: أهذا هو بالفعل ما يريد النص القرآني أن يقول..؟

عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصف على أي مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقذها.

إذ يقول القرآن إن الجنين، بعد مرحلة التشبث، وهو التعبير الذي رأينا إلى أي حد هو مؤسس على الحقيقة، يمر بمرحلة «المضغة» (أي اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يُغلّف باللحم ويعني لحماً نضراً).

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا. . . ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

المضْغَة: تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ، أما اللحم فيعني اللحم النضر، ويستحق هذا التمييز الالتفات؛ إذ إن الجنين في مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ. ويتطور الهيكل العظمي في هذه الكتلة، وبعد أن تُشكّل العظام، تتغطى بالعضلات، وعلى العضلات توافق كلمة لحم.

والمعروف أن بعض الأجزاء، في أثناء مدى تطور الجنين، تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد في المستبقل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة.

ذلك هو معنى كلمة «مُخلّق»؛ هي تعني مُشكّل بنسب وقد جاءت في الآية 5 من سورة الحج؛ لتشير إلى هذه الظاهرة: ﴿. . . فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم. . . ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ. . . ﴿٥﴾ ﴾.

ويذكر القرآن أيضاً ظهور الحواس والأحشاء: ﴿. . . وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ. . . ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة].

ويشير أيضاً إلى تشكل الجنس: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم].

وتذكر الآية 11 من سورة فاطر، والآية 39 من سورة القيامة، تَشكُّل الجنس أيضاً.

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التي ثبتت في العصر الحديث، إن توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح. ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة في هذا الموضوع والتي كانت سائدة في عصر تنزيل القرآن؛ حتى ندرك إلى أي حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التي يعرضها القرآن في هذه المسائل. وليس هناك أدنى شك في أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا في ذلك العصر تفسير هذا الوحي مثلما ندركه نحن اليوم، ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره. الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر.

فخلال القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التي لا تتمتع بأي أساس هي قاعدة مختلف المعتقدات في هذا الموضوع، بل لقد سادت أيضاً لقرون عديدة حتى بعد العصور الوسطى. إن المرحلة الحاسمة في تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى هارفي Harvey الذي قال، في عام 1651، بأن كل شيء حي يأتي أولاً من بويضة، وأن الجنين يتخلّق تدريجياً جزءاً بعد جزء. في هذا العصر كان العلم الوليد قد أفيد كثيراً، في الموضوع المعني هنا، باختراع المجهر الذي كان قد تم في عصر سابق بقليل، وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دَوري كل من البويضة والحيوان المنوي. وكان بوفون Buffon عالم الطبيعيات الكبير ينتمي إلى أشياع فكرة البويضة. وكان من بينهم أيضاً بوني Bonnet الذي كان يدافع عن نظرية اندماج البذور القائلة بأن مبيض المرأة، أو الجنس البشري، كان يحتوي على بذور كل الكائنات الإنسانية متداخلة كل في الآخر. وقد حظيَ هذا الفرض ببعض التأييدات في القرن الثامن عشر.

عرف الناس القرآن بما يربو على ألف عام من قبل هذا العصر الذي كانت المعتقدات الوهمية تسوده. إن مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها.

القرآن والتربية الجنسية

يعتقد عصرنا أنه قام بمكتشفات كثيرة في كل الميادين. ويظن أنه قد قدم جديداً فيما يتعلق بالتربية الجنسية وأن فتح أبواب الشباب لمعرفة مشاكل الحياة هو من مكتسبات العصر الحديث، وأن القرون الماضية كانت تتميز، فيما يخص هذا الموضوع، بظلام دامس يقول الكثيرون إن الأديان، دونما تحديد، هي المسؤولة عنه.

غير أن كل ما عرضنا لهو دليل على أنه، منذ أربعة عشرة قرناً تقريباً، سيقت إلى معرفة الناس مسائل نظرية، إذا جاز القول، عن التناسل الإنساني، وذلك بقدر المستطاع؛ حيث أنه لم تكن هناك معلومات تشريحية وفسيولوجية تسمح بالإفاضة. كان استخدام لغة بسيطة في متناول فهم مستمعي الرسالة ضرورياً حتى يمكن أن يفهموا ما يقال.

لم تمر الرسالة على الجوانب العلمية مر الكرام، بل إننا نجد في القرآن حشداً من التفاصيل عن الحياة العملية، وفيما يختص بالسلوك الذي يتبعه الناس في عديد من ظروف حياتهم، ولم يستبعد القرآن الحياة الجنسية.

هناك آيتان قرآنيتان تخصان العلاقة الجنسية. ويذكر القرآن ذلك بألفاظ تربط بين الرغبة في الدقة والاحتشام اللازم. وعندما نرجع إلى ترجمات وتفسيرات هاتين الآيتين فإن الاختلاف بينهما هو أول ما يسترعي الانتباه. ولقد ترددت طويلاً أمام تفسير هاتين الآيتين وإني مدين بالتفسير الذي أقدمه للدكتور عبد الكريم جيرو، الأستاذ السابق بكلية الطب ببيروت.

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾ [الطارق].

يشير النص القرآني إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة «صلب». أما المنطقة الجنسية للأنثى فيشير إليها بكملة «ترائب» (وهي جمع).

ويختلف هذا التفسير عن ذلك الذي كثيراً ما يعطيه المعلقون الفرنسيون والإنجليز؛ إذ يقولون: «خلق الإنسان من سائل منتشر يخرج بين العمود الفقري وعظام الصدر» وليس هذا التفسير مفهوماً بشكل كاف.

وتشير عبارات قرآنية إلى سلوك الرجال في علاقتهم الأثيرة مع نسائهم في ظروف متنوعة.

فأولاً هناك التوجيه بالسلوك اللازم في مدة الحيض، وتشير إلى ذلك الآيتان:
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ . . . ۝ ﴾ [البقرة].

ولبداية هذه العبارة معنى واضح تماماً: فتحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض أمر قاطع. أما الجزء الثاني فيشير إلى الحرث الذي يسبق، عند الباذر، وضع البذور التي ستنبت زرعاً جديداً؛ إذن العبارة تؤكد بشكل غير مباشر، عبر الصورة المجازية، على أهمية أن يكون واضحاً لدى الإنسان أن الهدف النهائي للعلاقة الجنسية هو الإنجاب؛ والجملة الأخيرة تحتوي على توصية يبدو أنها تخص مقدمات للعلاقة الجنسية.

والتوجيهات المعطاة هنا ذات طابع عام ـ ولقد تساءل البعض بمناسبة هذه الآيات عن مشكلة منع الحمل: ولا يحتوي القرآن هنا ولا في أي موضع آخر على أية إشارة إلى ذلك.

كذلك فلا إشارة في القرآن عن الإجهاض، ولكن العبارات العديدة المذكورة أعلاه عن التحولات المتوالية للجنين واضحة بما يكفي لاعتبار أن الإنسان يتشكل ابتداء من مرحلة يميزها وجود «العلقة»؛ وإذن ففي هذه الظروف يفرض الاحترام للشخص الإنساني، هذا الاحترام الذي يؤكده القرآن كثيراً، إدانة الإجهاض جذرياً، وهذا الموقف وهو موقف كل أديان التوحيد في عصرنا.

والعلاقات الجنسية مسموح بها في الليل فقط طيلة فترة الإفطار من شهر رمضان. والآية الخاصة بشهر رمضان هي: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ... فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة].

وعلى العكس من ذلك فليس أي استثناء للحجاج في أثناء أيام الحج الرسمية: ﴿... فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ... ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

التحريم إذن قاطع كتحريم الصيد والخصام وغير ذلك في نفس هذه الفترة. ويشير القرآن مرة أخرى إلى الحيض بمناسبة الطلاق: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ... ﴿٤﴾﴾ [الطلاق].

والفترة المشار إليها هنا هي تلك التي تمر من إعلان الطلاق وحتى يصير فعلياً. والنساء اللائي يقول القرآن عنهن «يئسن من المحيض» هن اللاتي بلغن سن اليأس، وقد خصص القرآن لها، احتياطاً، فترة من ثلاثة أشهر، وبعد هذه الفترة تستطيع تلك النساء المطلقات اللائي انقطع طمثهن أن يتزوجن.

أما بالنسبة إلى الناسء اللاتي لم يحضن بعد فلا يكون الطلاق فعلياً إلا بعد الوضع.

كل هذه التشريعات تتفق تماماً مع المعطيات الفسيولوجية. وبالإضافة إلى هذا فنستطيع أن نجد في القرآن، في النصوص الخاصة بالترمل، نفس الأحكام القانونية السديدة.

وبناء على كل هذه فالمقولات النظرية الخاصة بالتناسل والتوجيهات العلمية التي يصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية، نلاحظ أنه ليس هناك أي مقولة من المقولات التي سقناها أعلاه تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقياً عنها.

الروايات في القرآن والروايات في التوراة

نبذة توضيحية

يجد قارئ القرآن عدداً مهماً من الموضوعات عرضتها التوراة. هي قبل كل شيء روايات خاصة بالأنبياء: نوح وإبراهيم وإيليا ويونس وأيوب وموسى، وبملوك إسرائيل: طالوت وداود وسليمان، ولا نذكر إلا الروايات الرئيسية المشتركة، ولنستبعد ما لا يتعدى حدود الإشارة العابرة، ثم تأتي بعد ذلك بشكل نوعي روايات لأحداث كبرى تدخلت الخوارق في مجراها، هناك مثلاً: خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، والطوفان وخروج موسى. ثم أخيراً هناك كل ما له صلة بالمسيح وأمه مريم وذلك في إطار العهد الجديد.

ما هي التأملات التي يمكن أن توحي بها هذه الموضوعات المُعالجة في الكتب المقدسة في ارتباطها بالمعارف الحديثة التي قد تكتسبها خارج إطار النصوص المقدسة؟

موازنة بين القرآن والأناجيل والمعارف الحديثة

فيما يختص بالموازنة بين القرآن والأناجيل يجب أولاً أن نلاحظ أنه ليس هناك أي موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن نجده في القرآن ـ وقد أشرنا إليها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

والمسيح في القرآن موضوع إشارات عديدة. منها ـ على سبيل المثال ـ إعلان ميلاد مريم إلى أبيها، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم، وطبيعة المسيح، فهو نبي يحتمل المكانة الأولى من بين كل الأنبياء، وصفته كمسيح، والوحي الذي توجه به للبشر مؤكداً ومعدلاً التوراة، وتبشيره، وتلامذته الحواريون،

والمعجزات وصعوده الأخير إلى جانب الله، ودوره في اليوم الآخر. . . إلخ.

إن سورة آل عمران، وسورة مريم، تخصص فقرات طويلة لأسرة المسيح. وهما ترويان مولد أمه، مريم، وصباها، وإعلانه بأمومتها الخارقة والمسيح يسمى دائماً في القرآن «ابن مريم». والقرآن يعطي نسب المسيح من جهة أمه أساساً، وذلك أمر منطقي تماماً؛ إذ ليس للمسيح أب بيولوجي. وهنا ينفصل القرآن عن إنجيلي متي ولوقا اللذين يعطيان المسيح، كما رأينا، نسبين من جهة الذكور وهي بالإضافة إلى ذلك، مختلفة.

إن القرآن يضع المسيح، من خلال نسب أمه، وفي سلسلة نوح وإبراهيم وأبي مريم (ويسمى في القرآن عمران): ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

المسيح إذن سليل نوح وإبراهيم من أمه مريم ومن أبيها، أي عمران. ولا يجد قارئ القرآن أخطاء في الأسماء كتلك التي يجدها في الأناجيل، ونعني الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب في العهد القديم التي درسناها في الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب.

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون، بلا أي أساس، إن محمداً ﷺ، مؤلف القرآن، قد نقل كثيراً من التوراة. ولو كان ذلك حقاً، لتساءلنا من الذي دفعه أو ما الحجة التي أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيداً عن أي مرمى نقدي تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة عن وجهة النظر هذه؟

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة

هناك فيما يخص العهد القديم بعض جوانب من هذه الموازنة قد عالجناه.

فعلى سبيل المثال عولج خلق العالم في دراسة نقدية في الجزء الخاص بالعهد القديم من هذا الكتاب، كما درس هذا الموضوع في الرواية التي يعطيها القرآن. وقد قمنا ببعض المقارنات؛ ولا داعي للرجوع إلى هذا الموضوع.

إن المعارف التاريخية الحديثة، فيما يبدو، شديدة الغموض ومعطيات علم الآثار على قدر من الفقر بحيث لا يمكن إقامة موازنات على ضوء المعارف الحديثة فيما يختص بالمشاكل المتعلقة بملوك إسرائيل، وهي موضوعات رويات مشتركة بين القرآن والتوراة.

بالنسبة للأنبياء، فهذه مواضيع يمكن أولاً التعرض لها بالاستعانة بالمعطيات الحديثة بقدر ما للأحداث المحكية (أو بقدر ما ليس لها) ترجمة تاريخية تركت آثاراً استطاعت أن تصل إلينا.

وهناك موضوعان لهما روايات مشتركة بين القرآن والتوراة وهما جديران بلفت انتباهنا ويستحقان الدراسة على ضوء معارف عصرنا. وهذان الموضوعان هما:

- الطوفان.
- خروج موسى من مصر.

والأول مهم لأنه لم يترك في تاريخ الحضارات الآثار التي تضمنتها رواية التوراة، على حين أن المعطيات الحديثة لا تثير أي نقد بالنسبة إلى رواية القرآن.

أما الثاني فهو مهم لأن رواية القرآن ورواية التوراة تبدوان متكاملتين في خطوطها العريضة؛ ولأن المعطيات الحديثة، على ما يبدو، تأتي لكل من الروايتين بدعم تاريخي ملحوظ.

الطوفان

عودة إلى رواية التوراة والانتقادات التي تثيرها

قادت دراسة رواية الطوفان على حسب العهد القديم في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى الملاحظات التالية: (ليس في التوراة رواية واحدة فقط عن الطوفان؛ بل هناك روايتان ولكنهما حررتا في عصور مختلفة):

- الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.
- الرواية الكهنوتية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد والتي اخذت هذا الاسم لأنها مؤلف لكهنة ذلك العصر.

ولا تأتي هاتان الروايتان الواحدة إلى جانب الأخرى وإنما تتشابكان وتتداخل عناصر إحداهما في عناصر الأخرى، وتتعاقب فقرات كل مصدر بالتبادل مع فقرات المصدر الآخر. وتشير جيداً تعليقات ترجمة سفر التكوين للأب ديفو، الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس، إلى هذا التوزيع للفقرات بين المصدرين: فالرواية تبدأ وتنتهي بفكرة يهوية: وهناك عموماً 10 فقرات يهوية، وبين كل فقرة منها توجد فقرة من النص الكهنوتي (فيكون المجموع 9 فقرات كهنوتية). هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث، فبين النصين توجد تناقضات صارخة. ويقول الأب ديفو: «إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التي أدت إلى الطوفان، كما يختلف زمن وقوعه ويختلف عدد الحيوانات التي شحنها نوح بالسفينة».

إن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة في إطارها العام وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة:

أ ـ يعطي العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

ب ـ وعلى حين لا تعطي فقرات المصدر اليهوي للطوفان تاريخياً، تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع.

والحجج التي يستند إليها هذا الحكم هي ما يلي:

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح 600 عام. غير أنه من المعروف، بحسب الأنساب المذكورة في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً قد ولد بعد آدم بـ 1056 عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هي أيضاً وقد ذكرناها في الجزء الأول من هذا الكتاب). وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد 1656 عاماً من خلق آدم.

ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذي يعطيه سفر التكوين (11، 10ـ 32)، على حسب نفس المصدر، يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ 292 عاماً. ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش في حوالي 1850 ق.م. فإن زمن الطوفان يتحدد إذن، على حسب التوراة، بـ(21 أو 22 قرناً) قبل المسيح. وهذا الحساب يتفق تماماً مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً حسناً قبل نص التوراة، وذلك في عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية في هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخي للأحداث مقبولة بلا جدل لدى قرائها[1]؛ حيث إنه لم يمكن هناك أيضاً أي حجج مضادة.

---

(1) منذ أن حصل المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الأحداث في العصور القديمة ومنذ كفت هذه الحوليات الوهمية لكُتّاب العهد القديم الكهنوتيين=

كيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن 21 أو22 ق.م...؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على عدة أماكن من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية. وبالنسة لمصر، على سبيل المثال، كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى. وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دَمّر في ذلك العصر كل الحضارات.

وعلى ذلك، ومن وجهة النظر التاريخية، فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان، مثلما تقدمها التوراة، تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة. إن وجود روايتين هو دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة.

رواية الطوفان في القرآن

يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية.

لا يقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة. فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذي وقع على شعب نوح. أما أكثر الروايات كمالاً فهي في سورة هود، الآيات: 25 – 49. أما سورة نوح فهي تذكر بشكل خاص موعظة نوح، كما تفعل ذلك الآيات: 105 – 115 من سورة الشعراء.

ولكن قبل أن ننظر في مجرى الأحداث بالمعنى الحقيقي علينا أن نحدد

= عن أن تكون موضع تصديق، سارع المسؤولون بحذفها من كتب التوراة. لكن المعلقين المحدثين على هذه الأنساب ـ التي أحتفظ بها ـ لا يلفتون انتباه قراء كتب التعليم الديني العامة نحو الأخطاء التي تحتويها.

الطوفان مثلما يخبر به القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التي أنزلها الله على جماعات أذنبت بشكل خطير بتعديها على وصايا الله.

على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة، يشير القرآن على العكس، إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة.

تشير إلى ذلك الآيات الآتية من سورة الفرقان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

أما سورة الأعراف فالآيات (59 – 93) فتقدم العقوبات التي أنزلت على شعب نوح وعاد وثمود وسدوم ومدين كل على حدة.

وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح؛ وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين.

أما الفرق الجوهري الثاني فهو أن القرآن، على عكس التوراة، لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

وأما أسباب السيل فهي نفسها تقريباً في الروايتين. وتذكر الرواية الكهنوتية للتوراة (التكوين 7، 11) سببين مقترنين، تقول: «في ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة وانفتحت هواويس السماء». أما القرآن فيحدد في الآيتان 11و12 من سورة القمر، ما يلي: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح. فقد أعطى الله أمراً لنوح

بأن يضع في السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان وقد أنجز نوح هذا الأمر بأمانة.
﴿ . . . ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود].

ومن سبق عليه القول هنا، أي: من استُبعد من الأسرة فهو ابن ملعون لنوح، تقول لنا عنه الآيتان 45 و46. من نفس هذه السورة إنّ تضرع نوح لربه لم يغير من الأمر شيئاً. والقرآن يشير إلى من يوجد على السفينة، بالإضافة إلى الأسرة التي قُطع منها هذا الابن المعون، وهم قليلون ممن آمنوا بالله.

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة. إن التوراة، في الواقع، تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة.

- على حسب الرواية الكهنوتية: نوح وأسرته دون أي استثناء وزوج من كل نوع.
- على حسب الرواية اليهوية، هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور، وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى. (والسفينة تحتوي على سبعة[1] أزواج من الفئة الأولى، ذكر وأنثى، وعلى زوج واحد فقط من الفئة الثانية).
- على حسب روايات يهوية معدَّلة (التكوين 7ـ 8): زوج من كل نوع طاهر أو نجس.

أما رواية الطوفان الفعلي التي تحتوي عليها سورة هود (الآيات: 41- 49)، وسورة المؤمنون (الآيات: 23 -30)، ورواية التوراة فلا تقدمان اختلافات ذات دلالة خاصة.

---

(1) ألم يكن العدد 7 يعني في اللغات السامية في ذلك العصر كثرة غير محددة؟

وتقول التوراة بأن المكان الذي جنحت إليه السفينة نحو جبل ارارات (التكوين 8 ـ 4)، أما القرآن فيقول إنه «الجودي» (سورة هود ـ الآية 44). وهذا الجبل هو قمة جبال ارارات بأرمينيا ولكن لا شيء يثبت أن البشر لم يغيروا من الأسماء للتوفيق بين الروايتين، ويؤكد ر. بلاشير Blacher هذا: وفي رأي هذا الكاتب أن هناك كتلة جبلية بهذا الاسم بالجزيرة العربية. لكن ربما كان اتفاق الأسماء أمراً مصطنعاً.

في نهاية الأمر، فالاختلافات بين روايات القرآن وروايات التوراة موجودة، وهي هامة. وبعض هذه الاختلافات يفلت من أي فحص نقدي؛ إذ هناك افتقاد للمعطيات الموضوعية. ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات الكُتب المقدسة، وذلك بمعونة معطيات أكيدة، يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة ـ في تقديمها للطوفان بزمنه ومدته ـ مع مكتسبات المعرفة الحديثة. وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي. فمن عصر رواية التوراة إلى عصر تنزيل القرآن هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تُلقي نوراً على حدث مثل هذا؟ بالتأكيد لا، فمن العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التي في حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة هي التوراة بالتحديد. وإذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيرات التي طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة فيجب أن نقبل شرحاً آخر وهو أن هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذي تحتوي التوراة عليه.

خروج موسى من مصر

مع خروج موسى وجماعته من مصر، وهي المرحلة الأولى نحو استقراره بأرض كنعان، نتعرض لحدث ذي أهمية كبرى، حدث تاريخي أكيد، يدخل في سباق معروف بالرغم من الادعاءات التي نجدها هنا وهناك والتي تنحو إلى إضفاء صيغة أسطورية عليه.

وتشكل رواية الخروج في العهد القديم، مع رواية مسيرة الصحراء بعد الخروج من مصر، ورواية التحالف الذي يقيمه الله بجبل سيناء، الكتاب الثاني من التوراة أو أسفار موسى الخمسة Pentateuque. والقرآن بالطبع يفرد مكاناً كبيراً لرواية الخروج؛ فسرد علاقات موسى وأخيه هارون مع فرعون، وسرد الخروج من مصر نجدهما في أكثر من 10 سور بروايات طويلة كتلك التي نقرؤها في السور: الأعراف (7)، يونس (10)، طه (20)، الشعراء أو بورويات أكثر تركيزاً أو بمجرد تذكرات بسيطة. ويتكرر اسم فرعون، وهو الشخصية المركزية من الجانب المصري 74 مرة في القرآن وفي 27 سورة (ما عدا السهو).

إن دراسة روايتي الخروج في القرآن والتوراة مشوقة بشكل خاص، فاختلافاً عما رأينا بالنسبة للطوفان، تتطابق الروايتان هنا فيما يختص بالعناصر الجوهرية. وهناك بالتأكيد بعض الاختلافات، ولكن لرواية التوارة قيمة تاريخية عظيمة، كما سنرى، حيث إنها تضعنا على طريق اكتشاف شخصية فرعون أو بالأحرى شخصية الفرعونيين المعنيين بالأمر، والقرآن في هذا الفرض الذي ينطلق من التوراة يأتي بمعلومات إضافية، إلى هذين المصدرين المكتوبين تُضاف المعطيات الحديثة التي يهبها علم دراسة الآثار المصرية. وبهذا وبمقابلة القرآن والتوراة ومعارف عصرنا نصل إلى تحديد الواقعة على حسب الكتب المقدسة في سياق تاريخي.

الخروج على حسب التوراة

تبدأ رواية التوراة بالتذكير بدخول اليهود إلى مصر مع يعقوب لملاقاة يوسف. «ثم صعد ملك جديد إلى الحكم في مصر ولم يكن يعرف يوسف» (الخروج 1، 8)، إنها فترة الاضطهاد، فقد فرض فرعون على اليهود بناء مدينتين تعطيهما التوراة اسمي بيتوم Pitom ورمسيس Ramses؛ ولكي يتجنب هذا الملك التزايد السكاني عند العبريين فقد فرض عليهم أن يلقوا إلى النهر بكل طفل ذكر. وبالرغم من ذلك فإن أم موسى قد احتفظت به طيلة ثلاثة أشهر بعد ميلاده، ولكنها تقرر في نهاية الأمر أن تضعه في سلة من الأسل على شاطئ النهر. وتكتشفه ابنة فرعون وتلتقطه لتضعه بالتحديد بين يدي أمه لترضعه، ذلك أن أخت موسى التي كانت تراقب السلة لتعرف من الذي سيلتقطها، تظاهرت بأنها لا تعرفه وأوصت إلى الأميرة بمرضعة، ولم تكن هذه المرضعة إلا أم الطفل الوليد. ويلقى الطفل معاملة أبناء الفراعنة ويعطى له اسم «موسى».

ويسافر موسى شاباً إلى أرض مدين، حيث يتزوج ويمكث طويلاً، وهناك تفصيلة هامة، إذ يقول سفر الخروج (2، 23): «وأثناء هذه الفترة الطويلة مات ملك مصر».

ويأمر الله موسى أن يذهب للقاء فرعون ليخرج إخوته من مصر (سرد هذا الأمر موجود في رواية حادثة شوك ـ النار). ويساعد هارون أخاه في إنجاز هذه المهمة. ولذلك وما إن يصل إلى أرض مصر يذهب موسى مع أخيه إلى فرعون الذي ورث ذلك الذي كان موسى قد ولد في عهده منذ زمن طويل.

ويرفض فرعون طلب خروج يهود طائفة موسى من مصر. ويظهر الله من جديد لموسى ويأمره أن يكرر الطلب مرة أخرى. وكان عمر موسى في ذلك الوقت 80 عاماً على حسب التوراة. ويثبت موسى لفرعون بالسحر أن له قوى خارقة

فوق الطبيعة، لكن هذا لا يكفي، وعندئذ ينزل الله على مصر الضربات المعروفة: مياه النهر التي تتحول إلى دم، وغزو الضفادع والناموس والنعرة وموت القطعان وظهور الأورام على جلود البشر والحيوانات، وسقوط البرد والجراد، والظلمات وموت المواليد الأولين وبرغم ذلك يظل فرعون يرفض خروج العبريين. عندئذ يهربون من مدينة رمسيس وكان عددهم 600,000 رجل[1] «دون حساب أسرهم» (الخروج 12، 37). وهناك «أسرج فرعون عربته الحربية وقاد جيشه. وأخذ 600 من أحسن مركباته وكل مركبات مصر الحربية يقودها الضباط. وانطلق ملك مصر مطارداً الإسرائيليين الخارجين مرفوعي الأيدي» (الخروج 14، 6ـ 8). ويلحق المصريون بجماعة موسى على شاطئ البحر. وعندما رفع موسى عصاه انفتح البحر أمامه ودخل رجاله إليه دون أن تبتل أقدامهم». وطاردهم المصريون ودخلت جياد فرعون ومركباته وفرسانه كلهم إلى البحر. (الخروج 14، 23) وارتد ماء البحر كما كان وغطى مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذي دخل إلى البحر وراءهم ولم يبق منهم رجل واحد» (الخروج 14ـ 28و29).

إن نص سفر الخروج واضح تماماً. كان فرعون على رأس المطاردين. وقد هلك؛ لأن سفر الخروج يحدد أنه «لم يبق منهم رجل واحد». ويضاف إلى ذلك أن التوراة تكرر هذه التفصيلة في مزامير داود: (المزمور 106 الآية 11، والمزمور 136 الآيات 13-15) وهما حمد «للذي شق بحر البوص شقين وجعل إسرائيل يمر في الوسط وألقى بفرعون وجيشه في بحر البوص». على حسب رواية التوراة لا شك إذن أن فرعون الخروج قد مات في البحر. ولا تقول التوراة كلمة عن مصير جثة هذا الفرعون.

---

(1) سنرى فيما بعد أن هذا العدد مبالغ فيه فعلاً.

الخروج على حسب القرآن

تشبه رواية القرآن عن الخروج رواية التوراة في الخطوط العريضة. ولابد من إعادة تركيب هذه الرواية فهي تتكون من عناصر منتشرة في فقرات عديدة من القرآن. ومثل التوراة، لا يذكر القرآن اسم أحد بما يسمح بتحديد شخصية الفرعون الذي كان يحكم مصر عند حدوث الخروج. وكل ما نعرف هو أن أحد أعضاء مجلسه كان اسمه «هامان»، وهو مذكور ست مرات في القرآن (سورة القصص - الآيات 6، 8، 38، سورة غافر الآيتان 24 و36، وسورة العنكبوت الآية 39).

فرعون مُضطهد اليهود:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم].

وتكرر الآية 141 من سورة الأعراف ذكر الاضطهاد بنفس الألفاظ. ولكن القرآن لا يشير، مثل التوراة، إلى اسم المدينتين اللتين بناهما اليهود في السخرة.

وأما حادثة وضع موسى على حافة النهر فهي مسرودة في سورة طه (الآيتان 39 و40)، وفي سورة القصص (الآيات 7 -13). وتقول رواية القرآن إن عائلة فرعون هي التي التقطت موسى. تقول الآيتان 8و9 من سورة القصص ما يلي: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ويقول التراث الإسلامي إن زوجة فرعون التي رعت موسى هي آسيا. أما القرآن فلا يقول بأن زوجة فرعون هي التي التقطته وإنما آله، أي: أهل بيته.

وأما شباب موسى ومكوثه بأرض مدين وزواجه فكل هذا مسرود في سورة القصص ـ الآيات من 13 – 28.

ويجد القارئ أيضاً حادثة شوك النار في الجزء الأول من سورة طه، وفي الآيات من 30 إلى35 من سورة القصص.

ولا يذكر القرآن ضربات مصر العشرة التي أنزلها الله عقاباً، مثلما تصفها التوراة بإنطاب، ولكنه يذكر بشكل موجز جداً خمس ضربات (سورة الأعراف ـ الآية 133) وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

ويقص القرآن الخروج من مصر دون التحديدات الجغرافية التي تعطيها رواية التوراة ودون التحديدات العددية الواردة في هذه الرواية والتي يصعب تصديقها. إذ لا نرى جيداً كيف استطاع 600,000 رجل بأسرهم أن يمكثوا طويلاً في الصحراء على حسب قول التوراة.

أما موت فرعون وهو يطارد العبريين فيسرده القرآن على الوجه التالي: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾. تقول هذه الآية من سورة طه: لقد هرب اليهود وهلك فرعون ولكن جثته وجدت وتلك تفصيلة هامة لا تُشير إليها رواية التوراة.

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس]. وتتطلب هذه الفقرة تحديدين:

أ ـ روح البغي والعدو المشار إليهما، وذلك بالنظر إلى محاولات الإقناع التي قام بها موسى تجاه فرعون.

ب ـ إن إنقاذ فرعون ينطبق على بدنه، وذلك أن الآية 98 من سورة هود تحدد أن الله قد حكم بعذاب النار على فرعون وآله. تقول الآية: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وإذن بالنسبة للأمور التي تحتمل المقابلة مع المعطيات التاريخية والجغرافية والأثرية يجب ملاحظة أن رواية القرآن تختلف عن رواية التوراة في النقاط التالية:

- لا يذكر القرآن أسماء أماكن سواء كان ذلك بالنسبة للمدن التي بناها العبريون من جماعة موسى أو بالنسبة لخط مسير الخروج.
- لا يذكر القرآن موت أحد الفراعنة في أثناء مكوث موسى بأرض مدين.
- لا يحتوي القرآن على إشارات عن عمر موسى عندما تحدث إلى فرعون.
- لا يحتوي القرآن على تحديدات عددية خاصة بجماعة موسى التي تضخم التوراة عددها وتصل بها إلى أعداد غير معقولة (فـ 600,000 رجل بأسرهم يكونون احتمالاً جماعة أكثر من مليونين من السكان).
- لا تحتوي التوراة على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد موته.

أما النقاط المشتركة التي يمكن التنويه بها فيما يختص بموضوعنا فهي:

- تأكيد القرآن لاضطهاد فرعون لليهود من جماعة موسى.
- عدم احتواء الروايتين على اسم ملك مصر.
- تأكيد القرآن لموت فرعون عند خروجه من مصر.

مقارنة بين معطيات الكتب المقدسة والمعارف الحديثة

روايات القرآن والتوراة الخاصة بمكوث بني إسرائيل بمصر وبخروجهم منها تقدم جوانب تستطيع أن تكون موضوع مقابلات مع المعارف الحديثة.

والحق يقال إن هذا ممكن ولكن بشكل غير متساو؛ حيث إن بعض الجوانب تثير كماً من المشاكل على حين أن هناك جوانب أخرى لا تهب أي مادة للبحث.

1ـ دراسة بعض تفاصيل الروايات

العبريون في مصر:

يبدو فعلاً أن بالإمكان القول بأن العبريون مكثوا بمصر طيلة 400 أو 430 عاماً دون المجازفة بالوقوع في خطأ كبير، وبحسب ما هو مكتوب في التوراة (التكوين 15، 13 والخروج 12، 40) ـ وأياً كان الأمر في عدم الاتفاق هذا بين التكوين والخروج، وهو قليل الأهمية، فإن مكوثهم قد بدأ باستقرار يوسف بن يعقوب وإخوته بمصر وكان ذلك بعد عصر إبراهيم بكثير. وفيما عدا التوراة التي تُعطي المعلومات التي ذكرناها والقرآن الذي يشير إلى هذا الاستقرار دون أن يعطي أقل إشارة زمنية لتسلسل الأحداث فإننا نكاد لا نملك أية وثيقة أخرى قادرة على إيضاح هذه النقطة لنا.

ومن ب. مونتي P.Montet إلى دانيل روبس Daniel Rops فإن المتخصصين يقولون حالياً، بعد النظر إلى كل الاحتمالات، بتواكب حركة الهكسوس نحو مصر في القرن الـ 17 ق.م. مع وصول يوسف وآله. وإنه في مدينة أفاريس، بالدلتا، استقبل عاهل هكسوسي يوسف وإخوته استقبالاً حسناً.

وهذا التقدير، بالتأكيد، يتناقض بوضوح مع ما يقول لنا كتاب الملوك الأول من التوراة (1،6) فهو يحدد الخروج من مصر بـ 480 سنة قبل بناء معبد سليمان (في 979 ق.م. تقريباً). هذا التقدير يحدد إذن الخروج من مصر بنحو 1450 عاماً قبل الميلاد تقريباً. وبالتالي يكون الدخول قد حدث فيما بين 1850 ـ 1880ق.م. ولكن هذه بالتحديد هي الفترة التي يُفترض حالياً أن

إبراهيم قد عاش بها وهو ينفصل بحوالي 250 سنة عن يوسف فيما يعتقد اليوم اعتماداً على معطيات أخرى في التوراة؛ وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من كتاب الملوك الأول من التوراة غير مقبولة من وجهة نظر التسلسل الزمني للأحداث[1]. وسنرى أن هذه النظرية التي ندافع عنها هنا لا يمكن الاعتراض عليها، فيما عدا المعارضة التي يمكن استخراجها من كتاب الملوك الأول هذا، ولكن عدم الدقة الواضحة فيه الخاصة بمعطيات التسلسل الزمني للأحداث تشجب أية قيمة لهذه المحاضرات.

إن ما تركه العبريون كآثار لمكوثهم بمصر غامض جداً إذا استثنينا معطيات الكتب المقدسة. ومع توجد بعض الوثائق الهيروغليفية التي تشير إلى أنه قد وجد بمصر فئة من العاملين تسمى ابيرو Apiru أو هابيرو Hapiur أو Habiru. رأى البعض، صحة أو خطأ، أنهم العبريون. وقد أشير بهذا الاسم إلى عمال البناء، والعمال الزراعيين وعمال قطف العنب. . .إلخ. من أين أتوا؟ عسيرة حقاً الإجابة عن هذا. وكما يقول الأب ديفو «فإنهم لا ينتمون إلى السكان المحليين ولا يجدون هويتهم في طبقة من المجتمع وليس لهم عمل واحد ولا وضع واحد».

هناك بردية من عصر تحتمس الثالث Tutmes III تذكرهم على أنهم «سياس». ومن المعروف أن أمنوفيس الثاني Amenophis II في القرن الخامس عشر قبل الميلاد قد أتى منهم بـ 3600 سجين من كنعان، فقد كانوا يشكلون جزءاً، لا بأس به، من سكان الشام (سوريا وفلسطين)، كما يقول الأب ديفو.

---

(1) سنعود فيما بعد إلى ما يجب الاعتقاد به، مع الأب ديفو R.P. de Vaux فيما يختص بالرجوع إلى هذا الكتاب الأول للملوك.

وفي نحو 1300 ق.م. وفي حكم سيتي الأول Sethi Ier دبر نفس هؤلاء الأبيرو بكنعان اضطرابات بمنطقة بيت ـ شيان Beth-Shean. وفي حكم رمسيس الثاني كان منهم من يعمل بالمحاجر أو في نقل الأوتاد لأعمال فرعون (بوابات رمسيس ميامون الكبيرة). ومعروف من التوراة أن العبريين، في حكم رمسيس الثاني، قد بنوا عاصمة الشمال مدينة رمسيس (رع ـ مسيس) وتشير الكتابات المصرية مرة أخيرة إلى هؤلاء الأبيرو في القرن الثاني عشر في حكم رمسيس الثالث.

وليس هؤلاء الأبيرو مذكورين في مصر فقط. فهل كانت اللفظة تنطبق على العبريين وحدهم؟ وقد يكون مفيداً أن نذكر بأن الكلمة ربما كانت تشير أولاً إلى عمال السخرة دون أية فكرة مسبقة عن أصله، وإنها قد استخدمت بعد ذلك كصفة مهنية. أليس من حقنا أن نقوم بعملية تقريب مع المعاني المختلفة لكلمة سويسري Suisse بالفرنسية التي تشير إلى ساكن سويسرا كما تشير إلى جندي سويسري في الملكية الفرنسية أو حارس بالفاتيكان أو موظف بكنيسة مسيحية؟

أيّاً كان الأمر ففي عصر رمسيس الثاني نفذ العبريون (في قول التوراة) أو الأبيرو (حسب النصوص الهيروغليفية) في الأعمال الكبرى التي أمر بها فرعون ويمكن أن يُقال إنهم ساهموا في أعمال إجبارية. وليس هناك شك في أن رمسيس الثاني كان يضطهد اليهود: ومدينتا رمسيس وبيتوم المذكورتان في سفر الخروج تقعان على الجزء الشرقي من دلتا النيل. وتانيس Tanis وقنطير Qantir الحاليتان اللتان تبعدان 25 كم كل عن الأخرى مطابقتان لهاتين المدينتين القديمتين. هناك كانت عاصة الشمال التي بناها رمسيس الثاني، ورمسيس الثاني هو فرعون الطغيان.

ولد موسى في هذا الإطار. وقد رأينا في سبق الظروف التي طبعت إنقاذه من مياه النهر. وأن اسمه مصري. وقد أثبت ب. مونتي P.montet هذا جيداً

في كتابه «مصر والتوراة L Egypte et la Binle» ف. . مسو Mesw أومس Mesy اسمان في قائمة معجم أسماء الأشخاص في اللغة الهيروغليفية لرانك Ranke وموسى هو نقل لهذا الاسم في القرآن.

ضربات مصر:

تشير التوراة تحت هذا الاسم إلى عشر عقوبات أنزلها الله على سكان مصر، كما أنها تعطي تفاصيل كثيرة عن كل ضربة من هذه الضربات. وهناك عدة من هذه العقوبات تتسم بجانب وبعد خارقين. أما القرآن فهو يعد خمسة فقط من هذه الضربات وليس في معظمها إلا مبالغة لظاهرات طبيعية. هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

أما انتشار الجراد والضفادع فهو مذكور في التوراة. كما أنها تتحدث عن مياه الأنهار التي تحولت إلى دم يغرق كل البلاد (كذا)، ولكن القرآن يشير إلى الدم ويستبعد كل تفاصير اضافي آخر. وفيما يتعلق بهذا الدم فيمكن القول بفروض كثيرة.

وأما الضربات الأخرى (الناموس والنعرة والأورام الجلدية والبرد والظلمات وموت المواليد الأولين والماشية) التي تصفها التوراة فهي تأتي من أصول مختلفة كما كان الحال بالنسبة لرواية الطوفان التي تكونت بتجاور عناصر متعددة كل إلى جانب الآخر.

خط مسير الخروج:

لا يُعطي القرآن أي إشارة عن خط مسير، على حين تشير التوراة إلى خط مسير وبكثير من الدقة. وقد قام كل من الأب ديفو و ب. مونتي بدراسة هذا الخط. ويفترض أن نقطة الانطلاق كانت من تانيس ـ قنطير. أما فيما يتعلق

ببقية الطريق فلم يعثر في أي مكان على آثار من شأنها أن يؤكد رواية التوراة، كما أنه ليس بالإمكان تحديد المكان الذي انفتح به البحر حتى تمر جماعة موسى.

معجزة البحر:

افترض البعض وجود عملية جزر وقعت لأسباب فلكية أو أرضية ذات صلة بانفجار بركان بعدي. وانتهز العبريون، في هذا القول، انسحاب ماء البحر، ويكون المصريون الذين انطلقوا وراءهم قد غرقوا بسبب مد ماء البحر. لكن كل هذا مجرد افتراض.

٢ـ موقع الخروج في الحوليات الفرعونية:

فيما يخص تحديد تاريخ الخروج فيمكن الوصول إلى معطيات إيجابية وبشكل له قيمة. يعتبر، منذ عصر طويل جداً، منبتاح Mineptah خليفة رمسيس الثاني، هو الفرعون الذي وقع في عصره خروج موسى من مصر. لقد كتب ماسبيرو Maspero، عالم الآثار المصرية الشهير في بداية هذا القرن، في كتاب «دليل زائر متحف القاهرة» (1900) أن منبتاح، «في قول مأثور إسكندري الأصل، هو فرعون الخروج، أي الذي هلك في البحر حسبما يُقال». ولم أستطع أن أجد الوثائق التي أسس عليها ماسبيرو زعمه، ولكن جدية الكاتب تفرض علينا أن نعلق قيمة كبيرة على ما قال به.

وإذا استثنينا ب. مونتي P.montet، فقليلون حقّاً علماء الآثار المصرية المتخصصون المحدثون في تفسير التوراة الذين بحثوا عن حجج قد تكون في صالح أوضد هذا الفرض. بل بالعكس فقد شهدنا في العقود الأخيرة، ازدهار افتراضات يختلف كل منها عن الآخر وتبدو أنها لم تطرح إلا بهدف الاستجابة للتوافق مع تفصيلة في روايات الكتب المقدسة، ولم يهتم طارحو هذه

الافتراضات بالجوانب الأخرى لهذه الكتب. وهكذا نشهد ظهور هذا الفرض أو ذلك الذي يبدو متوافقاً مع جانب من رواية دون أن يكلف صاحب الفرض نفسه عناء مقابلته بالمعطيات الأخرى للكتب المقدسة (وبالتالي. ليس فقط بالمعطيات الأخرى للتوراة) وفي نفس الوقت مقابلته بكل المعطيات التي قدمها التاريخ وعلم الآثار. . . إلخ.

ومن أغرب الفروض التي رأت النور فرض ج. دي ميسلي J.de Micela (1960) الذي يدعي أنه توصل إلى تحديد زمن الخروج بهامش تقريبي يصل إلى يوم واحد، وهو 9 أبريل 1495 ق.م. وهذا فقط من خلال حساب التقويمات. وعلى ذلك يكون تحتمس الثاني، وكان ملكاً في هذا التاريخ، وهو فرعون الخروج. وبما أن مومياء تحتمس الثاني مكتوب عليها وصف لأورام جلدية يصفها الكاتب بأنها البرص ـ دون أن ندري سبب ذلك ـ وبما أن واحداً من ضربات مصر التي تذكرها التوراة هي طفح جلدي؛ فإن الفرض يصبح أمراً أكيداً. إن هذا البناء الغريب لا يأخذ في اعتباره مطلقاً الأمور الأخرى في رواية التوراة، وخاصة إشارة التوراة إلى مدينة رمسيس، تلك الإشارة التي تبطل كل فرض عن تحديد تاريخ للخروج قبل أن يكون أحد الرعامسة قد ملك مصر.

أما فيما يتعلق بأورام تحتمس الثاني الجلدية فليس هناك ما يبرر إقامة الحجة منها على أن ملك مصر هذا هو فرعون الخروج، حيث إن ابنه، تحتمس الثالث وحفيده أمينوفيس الثاني هما أيضاً كانا مصابين بأورام جلدية[1] أقام البعض عليها فرض وجود مرض بهذه العائلة. وعلى ذلك يكون فرض أن تحتمس الثاني هو فرعون الخروج فرضاً لا يمكن الدفاع عنه.

---

(1) تُرى هذه الأورام جيداً على مومياءات هؤلاء الفراعنة بمتحف القاهرة.

كذلك الفرض الذي أقامه دانييل ـ روبس في كتابه «شعب التوراة» والذي ينسب إلى أمينوفيس الثاني دور فرعون الخروج. إذ لا يبدو أن فرضه يستند إلى أساس بأكثر من الفرض السابق. فبحجة أن أباه تحتمس الثالث كان شديد القومية، يجعل دانيل رويس من أمينوفيس الثاني مُضطهداً للعبريين وبأن حماته، الملكة حتشبسوت الشهيرة، هي التي التقطت موسى دون أن نعرف سبباً لذلك.

أما الأب ديفو فهو يضع على أساس أكثر صلابة فرضه القائل برمسيس الثاني الذي درسه في كتابه «تاريخ إسرائيل القديم»[1]. وهو وإن لم يكن يتفق مع كل نقاط رواية التوراة فهو فرض له قيمة معطية رئيسية: وهي بناء مدينتي رمسيس وبيتوم، المذكورتين في نص التوراة. وعلى ذلك لا يمكن اعتبار أن الخروج قد حدث قبل صعود رمسيس الثاني إلى العرش، وهو حدث تحدده حوليات دريتون Drioton وفانديه Vandier بعام 1301 ق.م. وتحدده حوليات روتون Rowton بعام 1290 ق.م. إن الفرضين الأولين المذكورين فيما سبق مرفوضان لسبب ضروري وهو أن رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد الذي تتحدث عنه التوراة.

وفي رأي الأب ديفو أن الخروج قد حدث في النصف الأول من حكم رمسيس أو في منتصفه. وتحديد الأب ديفو لهذا التاريخ غير دقيق تماماً؛ فهو يوحي بهذه الفترة حتى يُعطي الوقت الكافي، إن جاز القول، لجماعة موسى أن تستقر بأرض كنعان وحتى يتمكن خليفة رمسيس الثاني المللك منبتاح ـ الذي نظم الحدود بعد موت أبيه ـ من أن يُخضع بني إسرائيل كما يشهد بذلك نصب يرجع إلى العام الخامس من ملكه.

---

(1) Desclee de Brouwer, 1970.

يمكن معارضة هذا الفرض بحجتين.

أ ـ تشير التوراة في سفر الخروج (2، 23) إلى أن الملك مصر قد مات في أثناء مكوث موسى ببلاد مدين. ويصف سفر الخروج هذا الملك بأنه هو الذي جعل العبريين يبنون بالسخرة مدينتي رمسيس وبيتوم. إنه رمسيس الثاني. وعلى ذلك لا يمكن أن يكون الخروج قد حدث إلا في عصر خليفة هذا الأخير. ولكن الأب ديفو يقول لنا إنه يشك في مصدر التوراة للآية 23 من الإصحاح الثاني لسفر الخروج.

ب ـ وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو، وهو مدير مدرسة الكتاب المقدس بأن فرعون قد مات وهو يطارد الهاربين، وتلك تفصيلة تجعل من المستحيل أن يكون الخروج قد وقع في زمن آخر سوى نهاية حكم ما.

الواقع أننا يجب أن نكرر بأنه ليس من المشكوك فيه أن يكون فرعون قد مات في أثناء هذه المطاردة. فالإصحاحات 13و14 من سفر الخروج حاسمان في هذه النقطة: «أسرج فرعون مركبته وقاد جيشه...» (14 و6). «وانطلق ملك مصر مطارداً الإسرائيليين الذين خرجوا مرفوعي الأيدي...» (14،8). «وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذي دخل إلى البحر وراءهم. ولم يبق منهم واحد» (14، 28 ـ 29). ويُضاف إلى ذلك أن المزمور 136 لداود يؤكد موت فرعون مصلياً ليهوه... «الذي ألقى فرعون وجيشه إلى بحر البوص». (136، 15). إذن فقد مات أحد الفراعنة في حياة موسى، حينما كان بأرض مدين، ومات آخر في أثناء الخروج. ليس هناك فرعون واحد لموسى بل فرعونان: فرعون القهر وفرعون الخروج من مصر؛ وعلى هذا يصبح فرض الأب ديفو القائل بفرعون واحد، وهو رمسيس الثاني، غير مُرضي؛ حيث إنه لا يشرح كل شيء. وستأتي الاعتبارات التالية بحجج إضافية ضد هذا الفرض.

٣ـ رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد ـ منبتاح فرعون الخروج:

استخدم ب. مونتي بشكل صحيح التراث الإسكندري الأول[1] الذي أشار إليه ماسبيرو والذي نجده بعد ذلك بكثير في التراث المسيحي الكلاسيكي[2]. ويعرض ب. مونتي هذه النظرية في كتابه «مصر والتوراة»[3]، وهناك حجج إضافية تدعمها وخاصة ما أتت به رواية القرآن، ولكن هذا العالم الشهير في الآثار لا يشير إليها مطلقاً. ولنعد إلى التوراة قبل أن نناقشها.

يحتوي سفر الخروج على إشارة إلى كلمة «رمسيس» برغم أن اسم الفرعون غير مقدم. و«رمسيس» في التوراة هو اسم إحدى المدينتين المذكورتين باعتبارهما قد بُنيتا بعمل العبريين في السُخرة. ومعروف اليوم أن هاتين المدينتين كانتا بمنطقة تانيس ـ قنطير في الجزء الشرقي من دلتا النيل، حيث بنى رمسيس عاصمته للشمال. ولا شك أنه كانت هناك أبنية أخرى في هذه المنطقة قبل رمسيس الثاني ولكن تحول هذه المنطقة إلى موقع هام يرجع إلى هذا الملك. وقد أتت الحفائر التي تمت في العقود الأخيرة ببرهان حاسم على ذلك. وقد استخدم هذا الملك العبريين المستعبدين في بناء هذه العاصمة.

إن قراءة اسم «رمسيس» في التوراة لا تذهل العقل اليوم؛ فقد أصبحت الكلمة شائعة منذ أن اكتشف شامبليون ـ منذ قرن ونصف ـ مفتاح الحروف

---

(1) لا شك أن عصر البطالسة العظيم كان بالإسكندرية، قبل التخريب الذي جاء به الفتح الروماني، وثائق تاريخية عن العصر القديم نفتقد إليها بشدة اليوم.

(2) كتب التاريخ المقدس في بداية القرن العشرين الموجهة إلى التعليم الديني، مثل كتاب ابي هـ. ليستر Abbe H. lesetra تشير إلى الخروج على أنه حدث حين كان منبتاح ملكاً على مصر.

(3) Delachaux et Niestle, Neufchatel. 1959.

الهيروغليفية وذلك بالتحديد بدراسة الحروف الأساسية لهذا الأسم. وقد اعتدنا اليوم على قراءة هذا الاسم على النطق به مع معرفة ما يعني. ولكن يجب أن نتصور أن معنى الحروف الهيروغليفية كان قد فُقد في القرن الثالث بعد الميلاد تقريباً. وأن اسم رمسيس لا يحفظ إلا في التوراة وفي بعض الكتب اليونانية واللاتينية التي شوهت الاسم قليلاً أو كثيراً. فهكذا مثلاً يتحدث تاسيت Tacite في حولياته Annales عن Rhamsis. أما التوراة فقد احتفظت بمنتهى الدقة باسم رمسيس، وهي تَذكره أربع مرات في أسفار موسى الخمسة (التكوين 47، 11، الخروج 11و12، 37، والعدد 33، 3و33، 5).

وفي التوراة العبرية يُكتب اسم رمسيس بطريقتين: Ra(e)mss و Ra(e)amss[1] وفي الطبعة اليونانية للتوراة المسماة بالـ Septante اسمه Ramesse. أما التوراة اللاتينية (Vulgate) فهو Ramesse. وأما الطبعة الكليمانتية بالفرنسية Bible Clementine (الطبعة الأولى 1621) فالكلمة مكتوبة بنفس الطريقة: Ramesse. وقد كانت هذه الطبعة جارية في أثناء دراسات شامبليون. وفي كتابه «مختصر المنهج الهيروغليفي لقدماء المصريين» (الطبعة الثانية 1828 ص276) يتحدث شامبليون عن كيفية كتابة الكلمة في التوراة.

إذن فقد حفظت التوراة اسم رمسيس بشكل رائع وذلك في نسخها العبرية واليونانية واللاتينية[2].

---

(1) الحرف e يعادل الحرف العبري Ayin.

(2) ومن المثير حقاً أن نلاحظ في نسخ التوراة القديمة أن المعلقين لم يفهموا شيئاً عن معنى الكلمة. فعلى سبيل المثال تُعطي الطبعة الفرنسية للتوراة الكليمنتية لعام 1621 التعريف التالي لكلمة رمسيس وهو تعريف مضحك عديم المعنى: «صاعقة الدود».

إن المعطيات التي سبقت تسمح إذن بإثبات ما يلي:

أ ـ أن الخروج لا يمكن أن يتصور قبل وصول أحد الرعامسة إلى الحكم في مصر.

ب ـ أن موسى قد ولد في حكم باني مدينتي رمسيس وبيتوم أي في عهد رمسيس الثاني.

جـ ـ أن الفرعون الذي كان يحكم بمصر قد مات عندما كان موسى بأرض مدين. أما بقية حكاية موسى فإنها في حكم خليفة هذا الملك أي منبتاح.

بل أكثر من ذلك تأتي التوراة بعنصر آخر عظيم الأهمية في تحديد زمن الخرج في الحوليات الفرعونية، والمقصود هو الإشارة إلى أن عمر موسى كان 80 عاماً عندما شرع، بأمر من الله، في محاولة الحصول من فرعون على إطلاق سراح إخوته: «كان عمر موسى 80 عاماً وهارون 83 عاماً عندما تحدثا إلى فرعون» (الخروج 8،7). ويضاف إلى ذلك أن التوراة[1] تعلّمنا أن الفرعون الذي ولد موسى في عهده قد مات عندما كان موسى ببلاد مدين، هذا برغم أن رواية التوراة تستمر دون إشارة لأي تغيير في اسم الملك. هاتان الفقرتان من التوراة تتضمنان إذن أن مجموع المدتين مُلك الملكين اللذين عاش موسى في عصرهما، يكون على أكثر من 80 عاماً.

ولكننا نعلم أن رمسيس الثاني حكم لمدة 67 عاماً (أي من 1301 إلى 1235 ق.م. على حسب حولية دريتون وفانديبه أو من 1290 إلى 1224 ق.م. على حسب حولية روتون). أما فيما يختص بمنبتاح، خليفته، فلا يستطيع

---

(1) (الخروج 2-23).

علماء الآثار المصرية أن يعطوا فترة حكم محددة ولكنها لا تقل عن عشر سنوات؛ حيث إن العام العاشر من حكمه تشهد به الوثائق، كما يشير إلى ذلك الأب ديفو. ولكن مانيتون Manethon يعطيه عشرين عاماً من الحكم. وأما دريتون وفانديه فيقولان باحتمالين بالنسبة لمنبتاح: إما أن يكون قد حكم لمدة عشر سنوات من 1234، وإما أن يكون قد حكم لمدة عشرين عاماً على حسب قول روتون أي من 1224 إلى 1204 ق.م. ولا يعرف علماء الآثار المصرية شيئاً محدداً عن نهاية حكم منبتاح، وكل ما يعرف هو أن مصر قد مرت بعده بأزمة داخلية شديدة الخطورة دامت ما يقرب من ربع قرن.

وبرغم أن حوليات الحكم غير دقيقة فليس هناك، طيلة الدولة الحديثة، فترات أخرى استطاع فيها حكمان متواليان أن يصلا أو يتخطيا الثمانين عاماً فيما عدا فترة رمسيس الثاني ومنبتاح. إن معطيات التوراة الخاصة بعمر موسى عندما شرع في تحرير إخوته لا يمكن أن تدخل إلا في إطار تعاقب حُكمي رمسيس الثاني ومنبتاح. وكل شيء يسمح بالتفكير بأن موسى قد ولد في بداية حكم رمسيس الثاني وكان ما زال موجوداً بمدين عندما مات بعد سبعة وستين عاماً من الحكم ثم أصبح بعد ذلك المدافع عن العبريين في مصر منبتاح ابن وخليفة رمسيس الثاني. وقد وقعت هذه الأمور في النص الثاني من حكم منبتاح إذ كان قد حكم مدة عشرين عاماً وهذا محتمل تماماً كما يعتقد روتون بذلك. وعندئذ قاد موسى الخروج من مصر، أي في نهاية حكم منبتاح على كل حال، حيث أن فرعون قد فقد حياته وهو يطارد العبريين الخارجين من مصر كما يشير إلى ذلك القرآن والتوراة.

ويتفق هذا البيان تماماً مع ما تُخبر به الكتب المقدسة عن مهد موسى والتقاط أسرة فرعون له. والمعروف فعلاً أن رمسيس الثاني كان متقدماً في

العمر عند موته. لقد قال البعض بأنه كان قد بلغ تسعين عاماً أو مائة عام. وعلى حسب هذا الفرض فيكون عمره من 23 إلى 33 عاماً في بداية حكمه الذي دام 67 عاماً. في هذه السن كان يمكن أن يكون متزوجاً وليس هناك تناقض في ذلك مع اكتشاف «أحد أغضاء أسرة فرعون»، في قول القرآن، لموسى في المهد على حافة النيل وطلبت امرأة فرعون من زوجها أن يُبقيه حيّاً. أما التوراة فهي تدعي أن ابنة فرعون هي التي اكتشفته.

وبالنظر إلى عمر رمسيس الثاني في بداية حكمه فيحتمل تماماً أن كانت له ابنة اكتشفت الطفل المتروك، وإذن رواية القرآن ورواية التوراة لا تتناقضان مطلقاً في هذه النقطة.

إن الفرض المصاغ هنا يتفق بشكل مطلق مع القرآن. ولكنه، على العكس، لا يتناقض إلا مع فقرة واحدة من التوراة وهي، كما رأينا، الآية الأولى من الإصحاح السادس من سفر الملوك (وهو ليس جزءاً من التوراة ويجب التنويه بهذا). هذه الفقرة محل جدل كثير، والأب ديفو يرفض معطيات تسلسل الأحداث في هذا الكتاب من العهد القديم، الذي يحدد زمن الخروج من مصر بالنسبة إلى بناء معبد سليمان. وكون أنها موضوع تحفظ يمنع من إعطائها قيمة الحجة الحاسمة ضد النظرية التي عرضنا لها هنا.

مشكلة نصب العام الخامس لمنبتاح:

رأى البعض أنه من الممكن أن يوجد في نص النصب الشهير للعام الخامس من حكم منبتاح اعتراضاً على القضية المطروحة هنا عن الخروج من مصر والذي يشكل آخر عمل في حكم هذا الفرعون.

ولهذا النصب أهمية عظمى؛ حيث إنه يشكل الوثيقة الهيروغليفية

الوحيدة المعروفة التي يُشار فيها إلى كلمة «إسرائيل»[1]. ولقد اكتشف هذا النصب بـ(طيبة) في المعبد الجنائزي لفرعون، ويقدر تاريخه بالجزء الأول من حكم منبتاح. وهو يشير إلى سلسلة من الانتصارات التي حققها على جيران مصر وخاصة، في نهاية الوثيقة، انتصار على «إسرائيل التي مُحيت ولم يعد لها بذور...». واستناداً إلى هذا الأمر قال البعض أن وجود كلمة «إسرائيل» يتضمن أن اليهود كانوا مستقرين بأرض كنعان في العام الخامس من حكم منبتاح، وأن خروج العبريين من مصر، كان قد وقع قبل ذلك الوقت.

ولا يبدو هذا الاعتراض مقبولاً، فهو يعني أنه لم يكن هناك يهود بأرض كنعان طالما كان هناك عبريون بمصر وهذا أم غير محتمل. وبالرغم من أن الأب ديفو مناصر لقضية رمسيس الثاني، فقد كتب في كتابه «تاريخ إسرائيل القديم» وفيما يتعلق بالاستقرار بأرض كنعان، كتب ما يلي: «فيما يخص الجنوب فإن تاريخ استقرار جماعات تنتمي إلى العبريين بمنطقة قادش غير محدد وهو سابق على الخروج من مصر». هو إذن يقول بمعقولية استقرار بعض الجماعات التي خرجت من مصر في زمن آخر غير زمن خروج جماعة موسى من مصر. إن «الابيرو» أو «الهابيرو» الذين يطابقهم البعض على الإسرائيليين كانوا بالشام قبل رمسيس الثاني وبالتالي قبل الخروج: إن أمينوفيس الثاني، كما هو معروف من إحدى الوثائق، قد أتى بمجموعة من الأسرى قدرها 3600 أسير. وقد استخدمهم كعمال سُخرة بمصر. وفي عصر سيتي الأول أيضاً كان يوجد منهم بأرض كنعان كثيرون؛ حيث دبروا الاضطرابات بمنطقة بيت ـ شيان، ويذكر ب. مونتي هذا في كتابه «مصر

---

(1) الكلمة متبوعة بتعريف لا يترك أي مجال للشك في تعريفها لجماعة إنسانية.

والتوراة». وعلى ذلك يكون معقولاً تماماً أن منبتاح قد عاقب بقسوة هذه العناصر على حدوده، على حين كان في داخل البلاد دائماً هؤلاء الذين تجمعوا فيما بعد حول موسى للهروب من مصر. وعلى ذلك لا يعارض نصب منبتاح للعام الخامس مطلقاً الفرض المقدم هنا.

ويُضاف إلى ذلك أن ظهور كلمة «إسرائيل» في تاريخ الشعب اليهودي لا يرتبط بتاتاً باستقرار جماعة موسى بأرض كنعان. وأصل الكلمة هو ما يلي:

على حسب سفر التكوين (32، 29) فإسرائيل هو الاسم الثاني الذي أُعطي ليعقوب ابن إسحاق وحفيد إبراهيم. وربما معناه على ما يحتمل «ليظهر الله قوياً»، وذلك على حسب المعلقين على الترجمة المسكونية للعهد القديم (1975). وبعد أن طبق الاسم على رجل، يصبح من غير المدهش أن يصف بالتالي جماعة بأكملها تخليداً لذكرى أب أول.

وإذن فقد ظهر اسم إسرائيل قبل موسى بكثير أي قبله بعديد من مئات الأعوام. وكون أن نرى الاسم مذكوراً على نصب يرجع تاريخه إلى الفرعون منبتاح أمر لا يدهش. إن هذه الإشارة لا تكون بأي حالة حجة في صالح تاريخ خروج موسى قبل العام الخامس من منبتاح. الواقع، أن النصب عندما يشير إلى جماعة تسميها «إسرائيل» فإنه لا يستطيع أن يشير إلى جماعة مستقرة سياسياً حيث إن هذا التسجيل يرجع إلى نهاية القرن الـ 13 قبل الميلاد؛ وحيث إن مملكة إسرائيل لم تتكون إلا في القرن العاشر قبل الميلاد. إنها بالضرورة إذن مجموعة بشرية أكثر تواضعاً[1].

---

(1) كما يشير الأب ب. كروايه R.P.B. Couroyer. الأستاذ بمدرسة الكتاب =

ومعروف في عصرنا أن فترة طويلة من التكون ما بين 8 أو9 قرون قد سبقت دخول إسرائيل إلى التاريخ. وقد طُبعت هذه الفترة باستقرار جماعات عديدة نصف ـ بدوية في كل المنطقة ومنهم خاصة الأموريون والآراميون، كما طُبعت بظهور الآباء الأولين في داخل هذه الجماعات ومن بينهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ إسرائيل. والاسم الثاني للأب الأخير قد استخدم في الإشارة إلى الجماعة الأولى وهي بذرة لشخصية سياسية ظهرت بعد حكم منبتاح حيث أن مملكة إسرائيل قد دامت من 931 ـ 930 ق.م. إلى 721 ق.م.

٤ـ ذكر الكتب المقدسة لموت فرعون عند الخروج:

يشكل موت فرعون عند الخروج نقطة شديدة الأهمية في روايات القرآن والتوراة. وهي تبرز من النصوص بمنتهى الوضوح. وفيما يخص التوراة فإن موت فرعون ليس مذكوراً فقط في أسفار موسى الخمسة وإنما هو مذكور أيضاً في مزامير داود: وقد بينا مراجع هذا في الصفحات السابقة.

ومن الغريب كل الغرابة أن الكتاب المسيحيين يسكتون على حادثة موت هذا الفرعون. فالأب ديفو يدافع عن القضية القائلة بأن الخروج من مصر قد حدث في الجزء الأول أو في منتصف حكم رمسيس الثاني، ولم يأخذ إطلاقاً بعين الاعتبار أن هذا الفرعون قد هلك عند المطاردة، وذلك يعني ـ مهما كانت الفروض ـ أن الحدث لا يمكن أن يكون قد وقع إلا في نهاية الحكم. وفي كتابه

= المقدس. في تعليقاته على ترجمة سفر الخروج Editions du Cerf 1968 ص12 فإن كلمة إسرائيل مصحوبة بكلمة «شعب» التعريفية بدلاً من كلمة «بلد مثلما هو الحال بالنسبة لاسماء الأعلام الأخرى بهذا النصب».

«تاريخ إسرائيل القديم» لا يبدو أن مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يعطي أقل اهتمام للتناقض بين القضية التي يدافع عنها وبين معطيات سفري التوراة. أما ب. مونتي ففي كتابه «مصر والتوراة» يحدد زمن الخروج في عصر منبتاح ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة عن موت الفرعون الذي كان على راس المطاردين.

هذا الموقف المذهل يتباين مع موقف اليهود: فمزمور داود رقم 136 الذي يحمد الله، في الآية 15، لأنه «ألقى بفرعون وجيشه في بحر البوص» يذكر كثيراً في طقوسهم. وهم يعرفون الاتفاق بين هذه الأية وفقرة الخروج (14، 28 و 29) التي تقول: «وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذي كان قد دخل إلى البحر وراءهم ولم يبقى منهم أحد. . .». وفي رأيهم ليس هناك أدنى شك في أن هذا الفرعون قد هلك مع جيوشه. إن نفس هذه النصوص موجودة في كتب التوراة المسيحية.

ويستبعد المعلقون المسيحيون عن عمد، وضد كل وضوح، موت فرعون. ولكن، أكثر من هذا، يذكر البعض الإشارات التي جاءت في القرآن داعين بذلك القُراء إلى القيام بعملية تقريب غريبة. وهكذا نستطيع أن نقرأ في ترجمة التورات التي تمت تحت إشراف مدرسة الكتاب المقدس بالقدس[1] التعليق التالي للأب كوروايه R.P.B.Couroye ـ وهو الأستاذ بهذه المدرسة - والذي يخص موت فرعون، يقول: «يشير القرآن إليه (أي: موت فرعون) (في سورة يونس الأيات من 90 - 92) وعلى حسب التراث الشعبي فإن فرعون قد ابتُلع بجيشه (وهذا مالا يقوله النص المقدس)[2] وهو الآن يسكن قاع البحر

---

(1) (الخروج L`Exode) 1968 ص73.

(2) لا شك أن المقصود عند كاتب التعليق هو التوراة.

ويحكم مملكة إنسان البحر، أي: عجول البحر[1]. . .».

إن القارئ الذي لا يعرف محتوى القرآن يُنشىء في هذه الحالة، وهذا طبيعي، علاقة بين دعوى القرآن المناقضة لنص التوراة - في رأي المعلق فقط - وبين هذه الخرافة المضحكة التي تنبع فيما يقال من أساطير شعبية، والتي يشار إليها في التعليق بعد الإشارة إلى القرآن.

إن واقع المقولة القرآنية فيما يختص بهذا الموضوع لا صلة له بما يوحي به هذا الكاتب: فالآيات من 90 - 92 من سورة يونس تقول بأن نبي إسرائيل قد عبروا فعلاً البحر حين كان فرعون وجيشه يطاردهم، وبأن فرعون، والبحر على وشك أن يطويه، قد صاح: ﴿. . . ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فأجاب الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ذلك كل ما تحتويه هذه السورة فيما يختص بموت فرعون. وليس في هذه السورة ولا في أية سورة أخرى شيء له علاقة بتلك الأوهام التي يبرزها المعلق على التوراة. إن النص القرآني يقول ببساطة وبشكل واضح تماماً إن جسد فرعون قد أُنقذ، وتلك معطية رئيسية.

وفي العصر الذي وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ، كانت جثث كل الفراعنة الذين شكّ الناس في العصر الحديث صواباً أو خطأً أن لهم علاقة بالخروج، كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الأخرى

---

(1) الفقمة.

للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية. في عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر. وكما يقول القرآن فقد أُنقذ بدن هذا الفرعون. وأياً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة ويستطيع الزوار أن يَروه. إذن فالواقع يختلف تماماً عن تلك الخرافة المضحكة التي ربطها الأب كوروابيه خطأ بالقرآن.

5 ـ مومياء الفرعون منبتاح:

في عام 1898 بوادي الملوك بطيبة اكتشف لوريت Loret مومياء منبتاح ابن رمسيس الثاني، وكل شيء يسمح بالاعتقاد بأنه فرعون الخروج ـ ومن هناك نقلت المومياء إلى القاهرة ورفع إليوت سميث Elliot Smith عنها أربطتها في 8 يوليو 1907.

ويصف إليوت سميث في كتابه (The Royal Nummies المومياء الملكية) (1912م) بروتوكول هذه العملية وفحص الجثة. وفي ذلك الوقت كانت المحافظة على المومياء مرضية بالرغم من بعض التدهورات في نقاط عدة. ومنذ هذا التاريخ والمومياء معروضة للزوار بمتحف القاهرة، مكشوفة الرأس والرقبة، أما بقية الجسم فهو مغطى بقطعة من القماش لدرجة أنه حتى هذه الشهور الأخيرة لم يكن المتحف يملك صوراً فوتوغرافية عامة لجسم المومياء سوى تلك التي يحتوي عليها كتاب أ. سميث (1912م).

وفي يونيو 1975 سمحت لي السلطات المصرية العليا بدراسة أجزاء جسم فرعون التي كانت مغطاة حتى ذلك الوقت، كما سمحت لي بأخذ بعض الصور وعندما أقيمت المقارنة بين حالة المومياء الحالية وما كانت عليه منذ

أكثر من 60 عاماً اتضح جلياً أن حالة المومياء قد تدهورت وأن هناك أجزاء منها قد اختفت. فقد عانت الأنسجة المحنطة الكثير على أيدي البشر بالنسبة لبعض الأجزاء وبسبب آفة الزمن بالنسبة لأجزاء أخرى.

وسبب هذا التدهور الطبيعي يتضح تماماً بتعدل ظروف الاحتفاظ بالمومياء منذ أن اكتشفت المومياء في نهاية القرن التاسع عشر في قبر بمدفن مدينة طيبة، حيث كانت منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. وهي معروضة الآن تحت واقع زجاجي بسيط لا يفصلها بشكل تام عن الجو الخارجي ولا يمنع تلوثها بالجسيمات الميكروبية، كما أنها عرضة لفروق درجات الحرارة الجوية وغير محمية مما قد يصيبنا بسبب الرطوبة الموسمية. لكل هذه الأسباب فالمومياء بعيدة كل البعد عن الظروف التي سمحت لها بأن تعبر ثلاثة آلاف سنة على وجه التقريب في حمي من كل أسباب التدهور هذه. لقد فقدت حماية أربطتها وميزة المكوث بوسط مغلق في قبر؛ حيث الحرارة أكثر استقراراً والهواء أقل رطوبة من جو القاهرة في بعض فترات السنة. ولا شك أنها قد عانت في مدافن طيبة نفسها من زيارات القوارض أو لصوص القبور، وذلك كما هو محتمل منذ زمن بعيد جداً، وقد تسبب هؤلاء في بعض الأضرار، وبالرغم من ذلك فقد كانت الظروف، فيما يبدو، أكثر مواءمة من اليوم لمقاومة آفة الزمن.

وفي أثناء فحص هذه المومياء في يونيو 1975 بدأت بمبادرتي دراسات خاصة. فقد قام الطبيبان المليجي ورمسيس بدراسة طبية بالأشعة السينية. على حين قام الدكتور مصطفى المنيلاوى بفضل ثغرة في جدار القفص الصدري بدراسة جوف القفص الصدري والبطن وقد حقق بذلك أول دراسة بالمنظار الداخلي على مومياء. وقد سمح هذا برؤية وتصوير بعض التفاصيل الهامة جداً داخل الجسم نفسه. ومع الدراسة الميكروسكوبية لبعض أجزاء صغيرة وقعت تلقائياً من جسم المومياء، وهي دراسة سيقوم بها بباريس البروفيسور مينو Mignot والدكتور

دوريجون Durigon ستكتمل الدراسة الطبية الشرعية العامة التي سيقوم بها البروفيسور سيكالدي Ceccaldi. إنه لما يؤسفني حقاً أن نتائج هذه الأبحاث لم تكتمل في اللحظة التي ينتهي فيها تحرير هذا الكتاب. ولكن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة هو ملاحظة آفات عظيمة عديدة مع ثغرة في مادة الجسم ـ ربما كان البعض منها قاتلاً ـ دون أن يكون ممكناً الآن القول بما إذا كان بعض منها قد حدث قبل أو بعد موت فرعون. فهذا الفرعون قد مات إما غريقاً على حسب روايات الكتب المقدسة، وإما بسبب رضوض عنيفة جداً سبقت ابتلاع البحر له أو ربما للسببين معاً.

إن ربط كل هذه الآفات بالتدهورات التي تحدثنا عن أسبابها تجعل من العسير الاحتفاظ في المستقبل بهذا الجسم المحنط ما لم تتخذ إجراءات الإنقاذ اللازمة في مستقبل قريب جداً. وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدان الشاهد المادي الوحيد الباقي حتى يومنا. الشاهد على موت فرعون الخروج وعلى النجاة التي أرادها الله لجسده. وإنه لمن المفروض أن يعمل الإنسان على الاحتفاظ بشواهد على تاريخه، ولكن المعني به هنا هو شيء أكثر من هذا إنها شهادة مادية في جسد محنط على من عَرف موسى وعارض طلباته وطارده في هروبه ومات في أثناء هذه المطاردة، وأنقذ الله جثته من الهلاك التام ليصبح آية للناس كما هو مكتوب في القرآن[1].

إنه بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تهبه قاعة المومياء الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة!

---

(1) كانت مومياء رمسيس الثاني، وهي شاهد آخر على تاريخ موسى، محلاً لدراسة مماثلة لتلك التي أجريت على مومياء منبتاح. وهي تحتاج لنفس إجراءات المحافظة.

القرآن والأحاديث النبوية والعلم الحديث

يعتبر القرآن المصدر الأول للعقيدة والشريعة في الإسلام، لكنه ليس الوحيد، بل إن السنة النبوية، وهي أفعال النبي ﷺ وأقواله تعتبر المصدر الثاني الذي اهتم العلماء به باعتباره مكملاً للمصدر الأول، حتى في أثناء حياة النبي فضلاً عنه بعد وفاته. وكانت معلومات هذا المصدر الثاني تعتمد فقط على النقل الشفهي. لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الأقوال والأفعال في نصوص قد قاموا بتحقيقات تتسم دائماً بالصعوبة كما هو الشأن في حكاية جميع الأحداث بعد انقضائها. ولهذا كان همهم الأول في عملهم الصعب في مدوناتهم منصباً أولاً على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة في حياة محمد ﷺ، وبكل قول من أقواله. وللتدليل على ذلك الاهتمام بالدقة والضبط لمجموعات الأحاديث المعتمدة، فإنهم قد نصوا على اسماء الذين نقلوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وذلك بالصعود في الإسناد إلى الأول من أسرة النبي ﷺ ومن أصحابه ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة من محمد ﷺ نفسه، وذلك بغية الكشف عن حال الراوي في جميع سلسلة الرواية، والابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيرة وصدق الرواية ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوي الموجبة لعدم الاعتماد على الحديث الذي روي عن طريقه. وهذا ما قد انفرد به علماء الإسلام في كل ما روي عن نبيهم ﷺ.

وهكذا ظهرت للوجود مجموعات أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وأصبحت

تعرف الآن في العلوم الإسلامية بـ «علم الحديث». وإذا كانت كلمة «حديث» قد تشير فقط إلى القول، فإنها تجمع تحتها أيضاً روايات أفعال النبي ﷺ.

وقد نشرت أول مجموعة للأحاديث في العشرات من السنين التي تلت مباشرة وفاة محمد ﷺ. وقد كانت كمية الأحاديث التي جمعت في القرن الأول بعد وفاته محدودة بالنسبة إلى كثرة الأمور المنقولة عنه، وإن أضخم مجموعات الحديث لم تظهر إلا بعد مضي أكثر من قرنين على وفاته، وهي التي جمعت أوسع المعلومات وأوثقها، ويعتبر صحيح البخاري بصورة عامة أكثر الكتب صحة بعد القرآن. ولقد قام «هوداس Houdas» و «مارسي Marcais» فيما بين 1903 و1914 بترجمته إلى الفرنسية تحت عنوان «الأحاديث الإسلامية» وقد نشرت في الأعوام الأخيرة طبعة عربية مع ترجمة إنجليزية للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبناء على ذلك أصبح في استطاعة من لا يعرف العربية الاطلاع على الأحاديث بلغة أخرى. غير أننا يجب أن نحتاط تجاه قيمة بعض الترجمات التي أنجزها الغربيون، بما في ذلك الترجمة الفرنسية، إذ يستطيع القارى أن يكتشف فيها أحياناً ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق، مما يعتبر تأويلاً لا ترجمة حقيقية، بل هناك أحياناً تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقي للحديث لدرجة أنها تجعله يقول ما لا يعني.

ونرى في هذا المقام أنه من الممكن المقارنة فيما بين مجموعات الأحاديث وبين الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها: إذ هناك صفة مشتركة فيما بينهما من حيث إن هذه المجموعات والأناجيل قد كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا شهود عيان لما قد نقلوه من الوقائع، كما أنها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الأحداث التي تتكلم عنها. وكذلك فإن مجموعات الحديث هي مثل الأناجيل من حيث إنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة، ولهذا

فإن أصحاب الأخصاء في علم الحديث لم يقبلوا من هذه الأحاديث بصورة شبه إجماعية إلا عدداً قليلاً منها، وأصبح من الممكن أن يوجد في نفس المجموعة الواحدة أحاديث مظنون فيها، أو مرفوضة قطعاً، إلى جانب الأحاديث التي اعتبرت صحيحة.

غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التي لم يتناولها الاعتراف عليها والنقد لها، برغم أنها كتبت بأقلام كتاب لم يكونوا أيضاً من شهود العيان لما قد نقوله، فإن مجموعات الأحاديث، حتى تلك التي تعتبر بوجه خاص أنها صحيحة، قد خضعت كلها لفحوص نقدية عميقة قام بها أساتذة الفكر الإسلامي لتحديد درجتي القبول والعمل بها. ولكن الكتاب الأساسي، أي القرآن، قد ظل المرجع الذي لا يمكن أن يكون محلاً للجدل في صحة نصوصه، وذلك لأنه قد نقل عن النبي ﷺ بصورة متواترة، وسجل عنه في أيام حياته بأقلام كتاب كانوا كلهم شهود عيان لما قد سجلوا.

ولقد قمت بالمقارنة بين الملاحظات التي خرجت بها من دراسة الأحاديث وبين الملاحظات التي عرضتها من قبل فيما يختص القرآن والعلم الحديث. وكانت نتيجة هذه المقارنة هامة جداً: لأن النور قد ظهر جلياً ومدهشاً بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها في حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث كلما كانت تلك المعلومات راجعة إلى العلوم الكونية، وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلقة بموضوعات تدخل في صميم الميدان العلمي، مع العلم بأن هذه الأحاديث هي وحدها التي نعالجها هنا.

وأن هذه المقارنة قد حملتني على إبداء الملاحظة التالية، وهي: كيف أمكن لمحمد ﷺ أنه يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية في القرآن لم يكتشفها إلى التقدم العلمي في القرون الحديثة، لو لم يكن القرآن وحياً منزلاً

لا شك فيه، ولا ارتياب في نصوصه؟. وهذا على خلاف الأحاديث التي أشارت إلى بعض المواضع العلمية وكانت قابلة للنقد والشك فيها. وإنني حينما أشير إلى بعض هذه الأحاديث لا أريد منها إلا الأحاديث التي اعتبرت صحيحة بصورة عامة مثل أحاديث صحيح البخاري. غير أنني لا يفوتني في هذا المقام أن أبين أن العلماء المختصين في علم الحديث قد صنفوا الأحاديث القابلة للنقد في جملة الأحاديث الظنية الثبوت، وميزوا بين هذه وبين الأحاديث المتواترة المصنفة في جملة الأحاديث القطعية، آخذين بعين الاعتبار فيما يتعلق بالأحاديث الظنية الثبوت أنها كتبت بأقلام أناس اعتمدوا فيها على النقل الشفهي للأحاديث النبوية، وأنها بالتالي قد تقل دقتها نتيجة لأخطاء الرواة الذين قد نقلوا هذه الأحاديث النبوية بطريقة أخبار الآحاد، والذين لم يتوافر لديهم كمال القدرة على ضبط ما سمعوه، ولا الانتباه لظروف الكلام الذي نقلوه.

وهكذا يتقرر لدينا من جديد أن حقائق القرآن العلمية كما شرحناها في محلها سابقاً، تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها، وأنها وحي لا شك فيه، وذلك خلافاً لنصوص الأحاديث الظنية من أخبار الآحاد التي لا يمكن أن ترتفع في الثبوت إلى درجة الوحي المنزل المتواتر المكتوب، وذلك لما قد يدخل عليها من أخطاء الرواة كما سبق. وفضلاً عن ذلك كله فقد يكون الحديث صحيحاً لا شك فيه، ولكنه ما دام في أمر من أمور الدنيا مما لا علاقة للدين به فلا فرق عندئذ في ذلك بين النبي ﷺ وبين غيره من البشر لما ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»، وكذلك نقل السرخسي في أصوله قول النبي ﷺ: «إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به، وإذا

أتيتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم»، ويكون النبي ﷺ قد دعم بنفسه ملاحظتنا بشكل عام، وأقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التي لا شك فيها والتي أيدها العلم الحديث، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التي لا وحي فيها عندما يكون الحديث متعلقاً بشأن من شؤون الدنيا مما قد لا يتفق أحياناً مع حقائق العلم الحديث، ولا يضر هذا بمكانة الرسول النبوية أو البشرية، ولكنه مفيد على كل حال لأنه قد يعطينا في هذه المواضيع صورة عن المفاهيم والآراء السائدة في ذلك العصر فيما يتعلق ببعض المواضيع ذات الصفة العلمية.

ومن أبرز هذه الأحاديث الظنية الدنيوية غير الدينية عدد من الأحاديث المتعلقة بالطب، مع العلم بأن القرآن لا يعطينا اية إرشادات فنية عن مهنة التطبيب بصورة خاصة، غير ما قد أشار إليه مرة واحدة فقط في الآية 69 من سورة النحل التي تقول بإمكانية وجود علاج في العسل، ولكن بدون أي إيضاح علاجي في ذلك، أما الأحاديث فإنها تحتفظ بمكان واسع لمثل هذه المواضيع، وهكذا فهناك جزء بتمامه من صحيح البخاري (الباب 76) قد أفرد للطب. ويحتل هذا الباب في ترجمة «هوداس» و«مارسي» الصفحات 62 – 91 من الجزء الرابع، أما في الترجمة الإنجليزية للدكتور محمد حسن خان فيحتل الصفحات من 395 إلى 452 من الجزء السابع. ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى ذات طابع علاجي أيضاً، قد أدمجت في أجزاء أخرى من صحيح البخاري. وليس هناك أدنى شك في أن هذه الصفحات تحتوي على الكثير من الأحاديث الظنية، فضلاً عن أنها كلها تتعلق بأمور دنيوية غير دينية، وقد قال النبي ﷺ في مثل هذا المقام كما سبق: «فأنتم أعلم بأمر دنياكم». غير أن المجموع العام لهذه الأحاديث المتعلقة بموضوعات طبية هو في نظرنا هام جداً لأنه يعطينا فكرة عن نظرة العصر في مثل هذه المواضيع الطبية المختلفة.

وهكذا نكتشف في هذه الأحاديث أفكاراً عن الأذى، والعين، والسحر، وإمكانية التخلص من آثار السحر، مع العلم بأن هناك منعاً عن التكسب باستخدام القرآن لهذا الغرض، كما أن هناك حديثاً يشير إلى أن بعض التمر يقي من السحر، وأنه يمكن أيضاً استخدامه ضد اللدغات السامة.

هذا ولا ينبغي أيضاً أن ندهش، ونحن نتكلم عن عصر كانت الإمكانيات الفنية والصيدلية فيه محدودة، إذا وجدنا هناك توصيات باللجوء إلى إجراءات بسيطة، أو إلى علاجات طبيعية مثل الفصد، والحجامة، والكي، والحلاقة ضد القمل، واستخدام لبن الناقة، وبعض الحبوب مثل الحبة السوداء Nigelle، وبعض النباتات مثل القسط الهندي، ورماد الحصير لفوائده في قطع النزيف، إذ أنه لابد في الظروف الصعبة من استخدام كل الوسائل الممكنة والتي قد تكون مفيدة حقاً، غير أنه لا يبدو لنا مع ذلك أن التوصية بشرب أبوال الأبعرة هي فكرة مستحبة للعلاج في بعض الحالات.

وكذلك يبدو من الصعب في عصرنا تقبل بعض الإيضاحات المتعلقة بعلم الأمراض، وذلك مثل الإيضاحات التالية:

أ ـ فهناك حول «أصل الحُمَّى» أربعة نصوص تنص على أن «الحمى هي من فيح جهنم» ـ كتاب الطب، الفصل 28، ص416.

ب ـ وهناك القول بـ«وجود علاج لكل مرض» حيث ذكر في الحديث أنه: «لم ينزل الله مرضاً إلا وأنزل له علاجاً» ـ كتاب الطب، الفصل (1)، ص395، وفي حديث الذبابة توضيح لهذا المفهوم؛ حيث نقل في الحديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء» ـ كتاب الطب، الفصل 58، ص452، وكتاب بدء الخلق، الباب 54، الفصلان: 15و16، ص335.

جـ ـ وهناك قول بـ «الإجهاز عند رؤية ثعبان معين» وأنه «يسبب العمى»، وقد نص على ذلك في كتاب بدء الخلق، الفصلين 13، 14، ص330ـ335.

د ـ وكذلك حول النزيف خارج العادة الشهرية، فقد جاء في كتاب الحيض، وفي الباب السادس من البخاري حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية (الفصلان 21، 28). هذان الحديثان يخصان امرأتين، ويؤكد الحديث فيما يتعلق بإحدى الحالتين أن النزيف ناشى عن عِرْق، ولكن الحديث لم يعطنا أي إيضاح عن الأعراض، وأما في الحالة الأخرى فالموضوع امرأة تنزف منذ سبع سنوات خارج العادة الشهرية، وفي هذه الحالة أيضاً يذكر الحديث بأن النزيف ناشى كذلك عن عِرْق. وقد يكون من الممكن القول بعدة افتراضات حول السبب الحقيقي لهذه الاضطرابات، ولكنه من العسير معرفة الحجة التي استند إليها حينذاك لتأكيد مثل هذا التشخيص الذي قد يكون مع ذلك صحيحاً.

هـ ـ وهناك أيضاً القول بـ «عدم عدوى بعض الأمراض»، وقد نقل ذلك في عدة أمكنة من مجموعة البخاري ـ كتاب الطب، الباب 76، الفصول: 19، 25، 30، 31، 53، 54 ـ وذلك تارة في أثناء الكلام عن بعض الحالات الخاصة مثل الجذام، والطاعون، وجرب الجمال، وتارة بصورة عامة، غير أن هذه الأقوال في تلك الحالات الخاصة قد رافقتها أقوال أخرى مناقضة، وهكذا فهناك في الواقع أحاديث أخرى توصي بعدم الذهاب إلى حيث يوجد الطاعون، كما توصي بشدة بالفرار من المجذوم.

ونستنتج من كل ذلك أنه من الممكن القول بوجود بعض الأحاديث غير المقبولة علمياً في مواضيع الطب والمعالجة، وأن الشك يخيم على صحتها، فضلاً عن أنها من أمور الدنيا وليست من أمور الدين، وإن الفائدة من الإشارة

إليها هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلمية التي أثبتت دراستها كما سبق أنها لا تحتوي قط على شيء من ذلك غير صحيح، ولذلك كان لهذه المقارنة أهمية كبرى، لأنها كما رأينا تشهد للقرآن بأنه وحي لا شك فيه، وأنه لا يد فيه للبشر.

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة من الأحاديث التي قد ذكرناها أعلاه مما لم يعتبر مقبولاً علمياً في مواضيع الطب والمعالجة، هناك أيضاً بعض الأحاديث الأخرى من أخبار الآحاد ومما لا علاقة لها بأمور الدين، غير أنها قد تتخذ تفسيراً لبعض الآيات القرآنية الكونية في مدار الشمس وفي مراحل تكوين الجنين مما لا يمكن أن تقبل في عصرنا كتفسير لآيات لا اعتراض على مفهومها ضمن نصها القرآني.

وهكذا فقد مر معنا كما تعلمون في الآيات العلمية حول الشمس أنها ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ (٣٨)﴾ [يس]، وتبين لنا أنها من عجائب معلومات القرآن الكونية التي لم تكتشف إلا في العلم الحديث. غير أنه قد ورد حديث قد يعتبر تفسيراً للآية القرآنية، وهو يرى أنه «عندما تغرب الشمس فإنها تسجد تحت عرش الله، وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها تسجد من جديد، وفي نهاية الأمر تعود من حيث أتت لتشرق من جديد». وقد جاء النص الأصلي لهذا الحديث في «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخاري، الجزء الرابع، الباب 54، ص283. وعلى الرغم من أن هذا الحديث مبهم وصعب الترجمة، فإنه يحتوي على صورة مجازية تتضمن معلومات خاصة «بمدار الشمس حول الأرض» مما لا يتفق في ظاهره مع العلم الحديث الذي أثبت العكس. وعلى كل فإن هذا الحديث في ظاهر معناه هو أكثر من ظني، وهو من أخبار الآحاد كما هو معروف في علم الحديث، وما كان كذلك فهو لا يفيد العلم القطعي.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بمراحل تكوين الجنين، فقد وردت فقرة من حديث يحدد بصورة غريبة أزمنة تطور الجنين في مراحله الأولية كما جاء ذلك في نفس «كتاب بدء الخلق» من صحيح البخاري، الباب 54، والفصل السادس، الرقم 430، والصفحة 290، فهناك مرحلة محددة بأربعين يوماً تجتمع فيها العناصر المكونة للكائن البشري، ثم مرحلة أخرى مساوية للأولى حيث يصبح فيها الجنين «علقة»، ثم مرحلة ثالثة مساوية أيضاً في المدة الأربعين يوماً يصبح فيها الجنين كاللحم الممضوغ «مضغة». ثم بعد ذلك يأتي تدخل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن، ثم تنفخ فيه الروح. وإن وصف تطور الجنين في هذا الحديث الظني لا يتفق مع المعلومات العليمة الحديثة. أما نص القرآن القطعي حول ذلك فقد سكت عن هذا التحديد الزمني الذي لا اعتراض عليه.

وفي الحقيقة يجب على القارئ أن يتذكر أن تعاليم النبي ﷺ قد انقسمت عند موته إلى مجموعتين:

- فمن ناحية كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب، وكانوا يتلونه مثل النبي ﷺ دائماً. ويضاف إلى ذلك أنه كانت هناك أيضاً تسجيلات كاملة لنص القرآن، وقد تمت هذه التسجيلات في حياة النبي ﷺ وبأمر منه، ومنذ ما قبل الهجرة[1].
- ومن ناحية أخرى فإن المقربين من أصحابه (والمؤمنين ممن كانوا من شهود العيان لأفعاله وأقواله، قد حفظوها في ذاكرتهم واعتمدوا عليها بالإضافة إلى القرآن للتعريف بالعقيدة والشريعة الجديدتين.

---

(1) تقع الهجرة في عام 622م، أي قبل عشر سنوات من وفاة محمد ﷺ.

غير أن هذه التعاليم القرآنية والنبوية لم تلبث أن دونت فيما بعد وفاة النبي ﷺ وذلك في مجموعتين منفصلتين، وكانت أولى المجموعتين هي مجموعة نصوص القرآن التي دونت بصورة رسمية في عهد الخليفتين أبو بكر وعثمان، وخاصة في خلافة هذا الأخير الذي قد عمم على جميع الأمصار الإسلامية النص القطعي للقرآن. وكان ذلك كله فيما بين العام الثاني عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام وبمعرفة جميع شهود العيان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجلوا.

وأما فيما يتعلق بالحديث فإن أول مجموعة فيه إنما ظهرت بعد حوالي أربعين عاماً من الهجرة.

ونرى من الواجب في هذا المقام التأكيد على عدم التشابه بين هاتين المجموعتين: القرآنية والنبوية، سواء من وجهة النظر الأدبية، أو من حيث المحتوى والمضمون فيما يتعلق ببعض الأمور ذات الطابع العلمي أحياناً، وهكذا فإنه يستحيل إقامة أية مقارنة بين أسلوب القرآن وبين أسلوب الحديث. وكذلك فإننا إذا قارنا بين محتويات نصوص القرآن وبين محتويات نصوص الحديث فيما له صلة بالعلوم لا بالعقيدة والتشريع، وقابلناهما مع معطيات العلم الحديث، فسوف تذهلنا حقاً الفروق التي آمل أن أكون قد نجحت في إظهار وجودها:

أولاً: من ناحية معتقدات علمية وقرآنية لم تكن أحياناً مقبولة في ظاهرها، ولكنها عندما درست اليوم على ضوء المعارف الحديثة الثابتة ظهر أنها تنطوي على معطيات علمية استطاع العلم في العصر الحديث فقط أن يثبت حقيقتها.

ثانياً: من ناحية أخرى فيما يتعلق ببعض نصوص الأحاديث ذات الصلة

بقضايا علمية لا صلة لها بقضايا الدين، فقد احتوت على آراء اعتبرت اليوم غير مقبولة علميّاً، ولكنها ـ وهي كلها من أمور الدنيا ـ يبدو لنا أنها تعبر عن مفاهيم ذلك العصر في تلك القضايا، حتى ولو كانت صحيحة في نسبتها إلى محمد نفسه. وقد أُقحمت هذه الآراء الدنيوية في مجموعة من النصوص المتعلقة بالعقيدة والشريعة الإسلاميتين مما هو متفق على الاعتراف بصحتها وعلى عدم المجادلة فيها.

وأخيراً فإن هذا الذي قد توصلنا إلى الكشف عنه من الفروق في الأمور العلمية الدنيوية فيما بين القرآن والحديث، يدعمه محمد ﷺ نفسه حين قال كما سبق: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»، وفي رواية: «وإذا أتيتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بامر دنياكم».

وهكذا نختم هذه المقارنة بين القرآن وبين الحديث في القضايا العلمية الدنيوية بالتأكيد على أن هذه الفروق تثبت بصورة مذهلة أن القرآن هو الوحي المكتوب الذي لا شك فيه. ولذلك كان معصوماً من كل خطأ علمي من هذا النوع. وأما كلام محمد ﷺ في تلك الأمور الدنيوية التي لا وحي فيها، حتى وإن صحت نسبة الكلام فيها إليه، فإنه كلام بشر قد يُخطىء وقد يُصيب عملاً بقول محمد ﷺ نفسه كما سبق أعلاه، ولذلك كان التمييز على هذا الأساس ما بين القرآن وبين أقوال محمد البشرية الدنيوية هو ضرورياً، وفيه قوة للقرآن، وتأكيد على أنه وحي لا شك فيه، كما أنه قوة لمحمد ﷺ نفسه وذلك بالتدليل على صدقه فيما نقله عن الله بطريق الوحي مما يتميز عن كلام البشر، مصداقاً لقول محمد ﷺ: «فإذا أتيتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

ملخص عام

في نهاية هذا الكتاب، يبدو واضحاً أن الرأي السائد، والمتمسك به في بلادنا عن نصوص الكتب المقدسة التي في حوزتنا اليوم، لا يصبح عند مقارنته مع الواقع. ولقد رأينا في أي ظروف وفي أي عصور وبأي طريقة جمعت ونقلت كتابة العناصر التي شكلت العهد القديم والأناجيل والقرآن، ولما كانت الظروف التي رافقت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة قد اختلفت اختلافاً كبيراً، فقد نجمت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص وببعض جوانب مضامينها.

إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية، أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً، وهو يشكل مجموعة متضادة جداً من النصوص عدّل البشر عليها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم صعب جداً أحياناً.

لقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر، عن طريق ذكر أفعال وأقوال المسيح، بالتعاليم التي أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض؛ والسبب هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التي أُخبروا بها. إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة وذلك في شكل أقوال متوارثة شفهية أو مكتوبة اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهي والنصوص النهائية.

على ضوء ما سبق يجب أن ننظر اليوم إلى الكتابات اليهودية ـ المسيحية، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فعلينا أن نتخلى عن المفاهيم التفسيرية الكلاسيكية.

لقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتضادات التي أعطينا عليها أمثلة عديدة. ولما كان لكتاب الأناجيل، إزاء المسيح، نفس الميول إلى تفخيم بعض الأمور مثل كتاب الأدب الملحمي في القرون الوسطى إزاء الملاحم الغنائية البطولية، فإن ناتج هذا هو ان الأحداث مقدمة بشكل خاص عند أي راو، ولذلك تبدو صحة الأمور المخبر بها في عديد من الحالات مشكوكاً فيها بشكل كبير. وفي هذه الظروف فإن بعض المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية التي قد يكون لها علاقة بالمعارف الحديثة يجب أن تدرس بالتحفظ الذي يفرضه المظهر الجدلي لصحتها.

إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق. ولكن دهشة المسيحيين تعظم حقاً عندما يدركون كل هذا، فقد كان الجهد عميقاً ومستمراً ذلك الذي قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة، ذلك الذي أخفاه هؤلاء المعلقون تحت حركات بهلوانية جدلية حاذقة غارقة في الرومانسية المديحية، وقد أعطينا أمثلة عديدة بهذه الحالة العقلية الخاصة فيما يتعلق بنسبي المسيح في إنجيلي متي ولوقا المتناقضين والمرفوضين علمياً. ولقد جذب إنجيل يوحنا الانتباه بوجه خاص لاختلافاته الهامة جداً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى وخاصة فيما يتعلق بالثغرة التي كانت مجهولة بتأسيس تناول القربان المقدس.

إن لتنزيل القرآن تاريخاً يختلف تماماً عن تاريخ العهد القديم والأناجيل.

فتنزيله يمتد على مدى عشرين عاماً تقريباً وبمجرد نزول جبريل به على النبي ﷺ كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب، بل قد سجل كتابةً حتى في حياة محمد ﷺ. إن التجميعات الأخيرة للقرآن التي تمت في خلافة عثمان، فيما بين اثنى عشر عاماً وأربعة وعشرين عاماً من بعد وفاة النبي ﷺ قد أفيدت من الرقابة التي مارسها هؤلاء الذين كانوا يعرفون النص حفظاً، بعد أن تعلموه في نفس زمن التنزيل وتلوه دائماً فيما بعد، ومعروف أن النص منذ ذلك العصر قد ظل محفوظاً بشكل دقيق. إن القرآن لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة.

إن القرآن، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهي السمة البارزة في مختلف صيغ الأناجيل، بل هو يظهر أيضاً ـ لكل من يشرع في دراسة بموضوعية وعلى ضوء العلوم ـ طابعه الخاص وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة. بل أكثر من ذلك، وكما أثبتنا، يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن.

إن مقارنة العديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الاساسية بين دعاوى التوراة المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة؛ لقد رأينا دليلاً من خلال روايتي الخلق والطوفان. وعلى حين نجد في نص القرآن، بالنسبة لتاريخ خروج موسى، معلومة قيمة تضاف إلى رواية التوراة وتجعل مجموع الروايتيين يتفق تماماً مع معطيات علم الآثار بما يسمح بتحديد عصر موسى نجد فيما يتعلق بموضوعات أخرى فروقاً شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاءً ـ ودون أدنى دليل ـ عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى يعد نص القرآن.

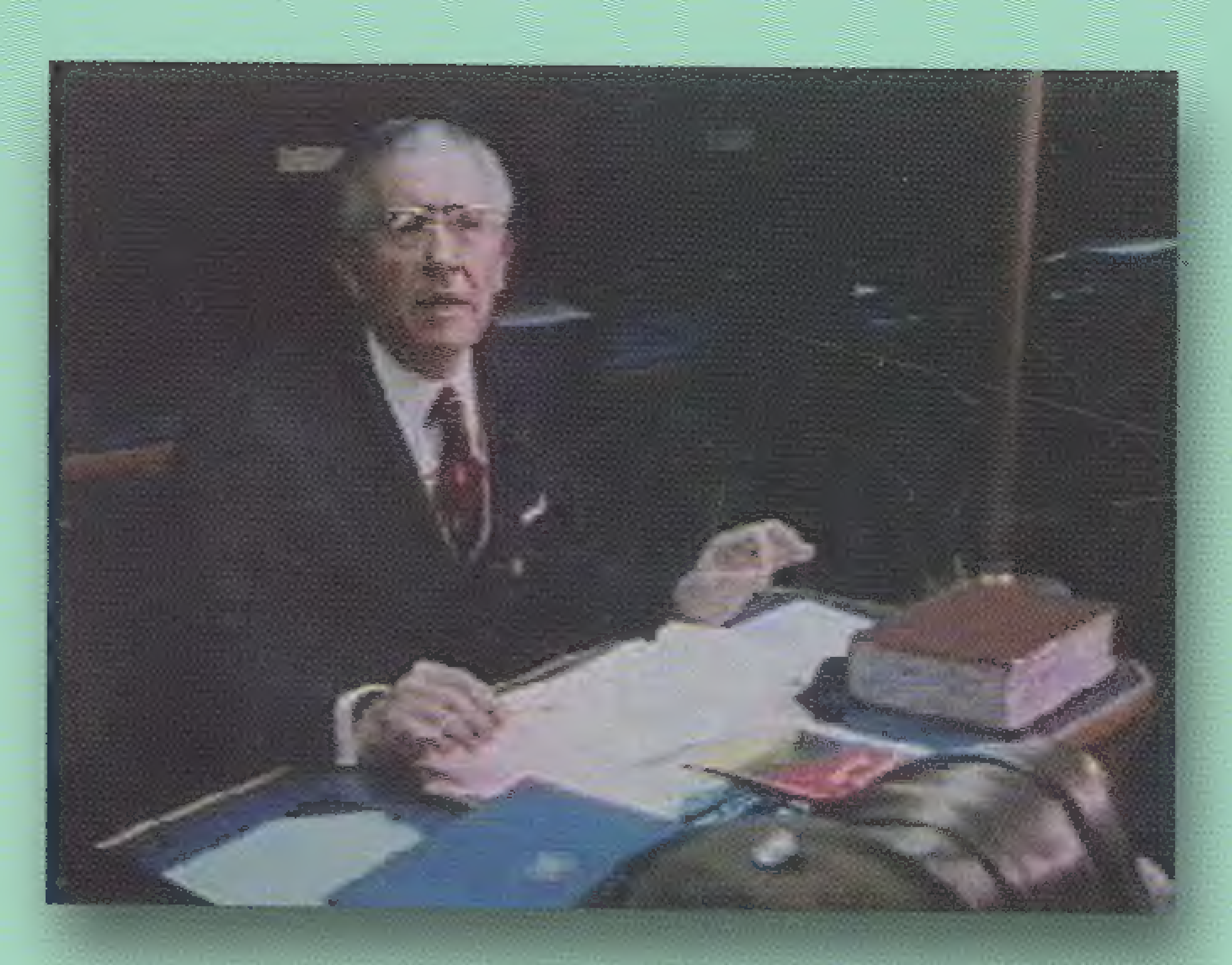
وفي نهاية المطاف فإن الدراسة المقارنة من ناحية بين الدعاوى الخاصة بالعلم، تلك التي يجدها القارئ في مجموعات الأحاديث التي نسبت إلى محمد ﷺ والتي يُشك في صحتها غالباً ـ وإن عكست مع ذلك معتقدات العصر، وبين المعطيات القرآنية ذات نفس الطابع من ناحية أخرى، توضح بجلاء اختلافاً يسمح باستبعاد فكرة شيوع الأصل بين القرآن والأحاديث.

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر وهذا بسبب حالة لامعارف في عصر محمد ﷺ. لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته الأمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي. عقيمة حقاً تلك المحاولات التي تسعى لتفسير القرآن بالاعتماد فقط على المعطيات المادية.





ISBN 978-6589-07-940-4
9 786589 079408



Maurice Bucaille

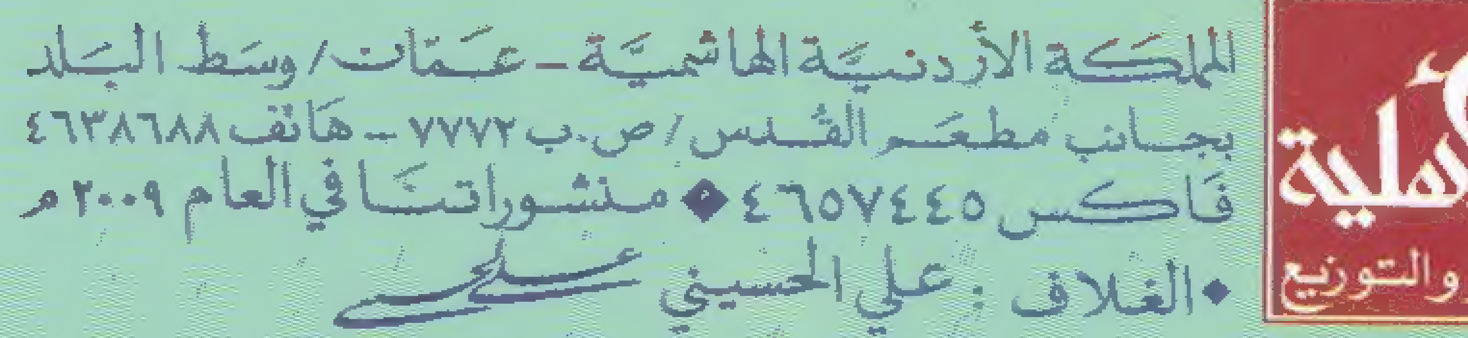
«لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا.

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها شجرة أنساب المسيح، وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.»

موريس بوكاي




المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٩ م
• الغلاف : علي الحسيني